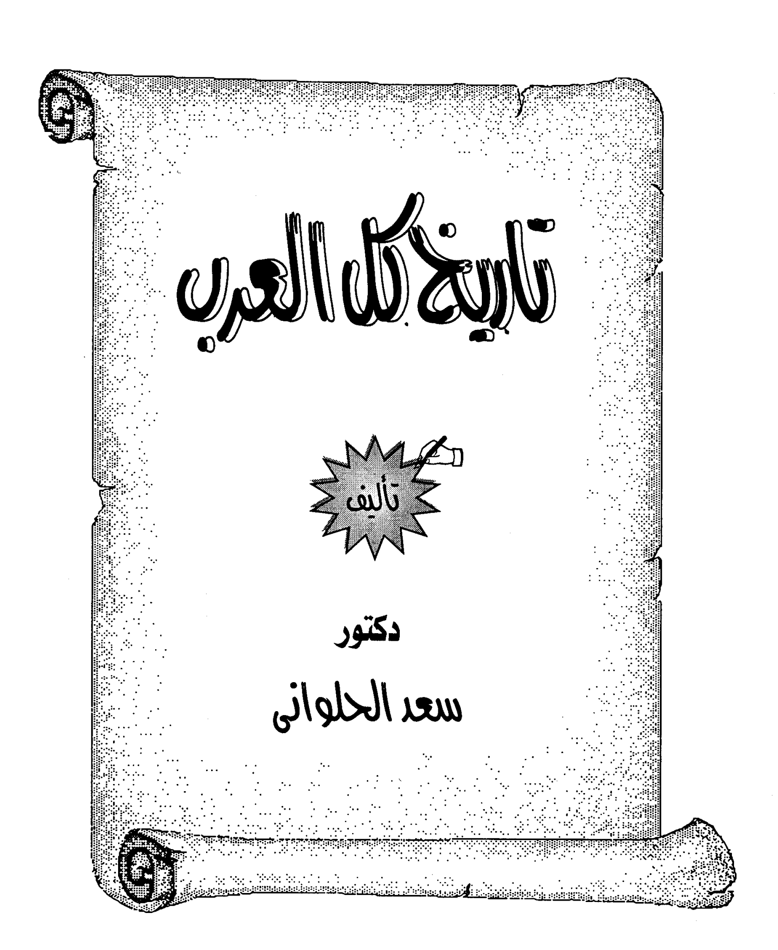

تاريخ كل العرب
تأليف
دكتور
سعد الحلوانى


إهـــداء
إلـــى ....
أبنائى وبناتى كل طلبة التاريخ
فى الجامعات العربية
د. سعد

تاريخ كل العـــرب

* الكتـــــاب : تاريخ كل العرب

* الكـــاتـــب : د/ سعد الحلوانى

* الطبـــعـــة : الطبعة الأولى 1998م .

* النشـــــر : دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا .

* التـــــوزيـع : دار البشير - طنطا 35 ش الجيش عماره الشرق للتأمين .

فاكس : 308909 - 305538 ☎ 210907 - 228277

* التجـهـيـز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية . المحلة الكبرى . ص . ب265 ☎ 228277

* الإيداع القـانونى : 98 / 10932

• الترقيم الدولى : ٩٧٧/١٩/٦٨٨٢/٣



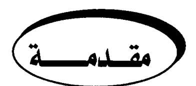
أقدم خالص شكرى وتقديرى العميق إلى أخى :

مهندس / **جمال بدير الحلوانى** الذى تحمل عناء الطباعة وإجراءات إخراج الكتاب إلى النور - فجزاه الله عنى خير الجزاء - ، كما أشكر أخى وصديق العمر الدكتور / محمد جمعان الغامدى على جهده المشكور الذى بذله فى سبيل مساعدتى فى توفير قدر كبير من المادة العلمية ، والأستاذ / **محمود غريب** على ما قدمه لى من مساعدة أثناء الإعداد والعميد المترجم / **فرج محمد عطية** أستاذ الترجمة الفورية فى الكلية الحربية المصرية على جهوده فى الترجمة ، وأشكر كل من أسدى إلىّ خدمة فى جمع المادة العلمية والمراجعة وشركة الندى للتجهيزات الفنية بالمحلة الكبرى .


والله من وراء القصد يهدى وينير

د . سعد


بسم الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله نحمده ونستغفره و نؤمن به ونتوكل عليه ونثُنى عليه الخير كله .

وبعــــــد ...

تعود بداية فكرة كتابة تاريخ كل العرب إلى فترة إعداد الماجستير والدكتوراه وما تلاهـا من أبحاث عديدة نشرتُها فى كتب ، أو شاركت بها فى مؤتمرات دولية ، وقد شاء الله فى أغلبها أن تكون فى إطار العلاقات العربية ، ورغم ذلك فلم أقم بتدريس مادة : تاريخ العرب الحديث أو المعاصر فى مصر (المحروسة) .

وكانت البداية عندما تمت إعارتى إلى إحدى أعلى بلاد الدنيا ـ أبها ـ عسير بالمملكة العربية السعودية ، وأُسند إلىّ أمر تدريس المادة فطفت المكتبات بحثاً عن مؤلف للطلاب فى المادة ، ووجدت العجب فى الكتب المتوافرة .

البعض منها اكتفى بالمشرق دون المغرب العربى رغم أن المادة تاريخ العرب ، ليس هذا فحسب بل اكتفى البعض بعدة دول تكون إقليماً واحداً جغرافياً على أن هذا هو تاريخ العرب ، والبعض الآخر عمد إلى كتابة مادة علمية متخصصة لا يصل إلى فهمها وإدراك ما فيها سوى العلماء الكبار ، مع أننا لا نقوم بالتدريس لهم ، وأنّى لنا ذلك !؟ .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تناول البعض من إخوانى وأساتذتى الكرام التاريخ العربى بشكل شمولى كأنه وحدة واحدة ـ كما نأمل جميعاً ـ ولكن أرض الواقع شئ آخر فالوحدات (الدول) العربية تتمتع كل منها بخصوصية لا يمكن إبرازها فى دراسة شمولية ،وإنما تحتاج كل وحدة لدراسة منفردة تبين كيف حكمتها الدولة العثمانية ، والعلاقة بينها وبين الأهالى ، والحركات الانفصالية ، والأطماع الاستعمارية ، والإمكانات الاستراتيجية والاقتصادية والبشرية . . . . الخ ،

وأثر الأحداث الكبرى ، ومقاومة كل وحدة (دولة) للاستعمار وأخيراً الاستقلال .

من هنا كانت الفكرة التى شاء الله أن يسّر لها كَمّا طيباً من الوثائق وكيفاً كذلك ، وعدداً كبيراً من المصادر الأصلية المتنوعة والمراجع المكمِّلة الجادة ، كان الكثير من هذه وتلك متوافر فى مكتبتى ، والآخر يسَّره الله فلله الحمد وكل الشكر .

فقد استخدمتُ وثائق متنوعة بعضها أمريكياً حصلت عليه من وزارة الخارجية الأمريكية ، والأخرى وثائق تركية وعربية حصلت عليها من دار الوثائق القومية المصريةبالقاهرة ، ودار الملك عبد العزيز بالرياض (السعودية) ، إضافة إلى المصادر والمراجع العربية والأجنبية التى كتبت فى البلاد المعنية عربية واستعمارية أوربية ، ولا سيما انجلترا التى كان لها باع طويل فى المجال الاستعمارى ، وتوجيه دفته فى البلدان العربية .

والذى تجدر الاشارة إليه هو أننى قد اعتبرت اتجاه العثمانيين للشرق العربى الإسلامى هو بداية التاريخ الحديث عند العرب ، كما يرى بذلك البعض ، ويرى آخرون غيره .

أما الذى أود تأكيده فهو أن هذه الدراسة قد سبقتها دراسات أخرى ربما أفضل منها ، ولكننى حاولت جمع شتات الدول كلها بين دفتى كتاب بشكل أيسر وأسهل ليكون فى متناول إمكانات طالب الجامعة والقارئ الذى يود التعرف على تاريخ أمته العربية ، الحديث والمعاصر .

هذا وبالله التوفيق

المؤلف

أبها ـ عسير ـ السعودية

فى ١٠ ربيع أول عام ١٤١٩ هـ

٤ يوليو تموز عام ١٩٩٨ م



تمهيد

أسباب اتجاه العثمانيين للشرق العربى الإسلامى

لا شك أن العثمانيين قد قطعوا شوطاً بعيداً فى فتوحاتهم ، وانتصاراتهم العديدة فى بلاد أوربا النصرانية ، وبدأت الدولة فى ضم البلاد العربية والإسلامية بعد أن اجتازت فترة شبابها إذ كانت منذ القرن الثالث عشر الميلادى تخوض حرباً ضروساً وفتوحات عديدة فى آسيا الصغرى وبلاد البلقان ، واتجهت إلى العالم العربى فى دور قد وصلت فيه إلى مرحلة النضج تلك المرحلة التى تسبق انحدار الهرم إلى الضعف والهزال والشيخوخة (**سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً**) .

وقد أثار ترك العثمانيين للجهاد والفتوحات الأوربية (حيناً) أى (الاتجاه غرباً فى مواجهة نصارى أوربا) وتغيير دفة الجيوش العثمانية مائة وثمانين درجة إلى الشرق الإسلامى أى (الاتجاه شرقاً) أثار ذلك قريحة المؤرخين فى محاولة منهم لتحليل أسباب هذا الاتجاه ، وهذا التحول فى عجلة الحرب والاستراتيجية العثمانية .

فمنهم من يرى : [١] أن التفسير الأقرب للمنطق هو أن الأحداث التى كانت دائرة رحاها فى منطقة الشرق الإسلامى ، هى التى دفعت سليماً إلى توجيه جهوده الحربية هذه الوجهة ، ويعنى فى ذلك خطر الدولتين الفارسية والمملوكية ، وتوفر أسباب الخصومة بينهما ، علاوة على حكم الجوار الذى بات حقيقة واقعة مع المماليك بعد استيلاء العثمانيين على مواقع جديدة فى بلاد الفرس ، وعلى مشارف الشام ، وما يتبع ذلك من احتكاك مذهبى وحدودى وتصارع عليها .

والبعض الآخر يرى : [٢] أن الدولة العثمانية قد أصبح موقفها دفاعياً تجاه

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوى ـ أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ـ حـ١ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ ص ٥٧٨ . . ود/ السيد محمد الدقن ـ دراسات فى تاريخ الدولة العثمانية ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ ص ٤٤ .

(٢) د/ عبد الرحيم عبد الرحمن ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر ـ دار الكتاب الجامعى ـ ط ٤ ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ م ص ١٥ .

أوروبا أكثر منه هجومياً ، وكان عليها أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع ، وهذا الرأى مردود عليه بأن سليمان القانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ابن سليم قد استطاع أن يجول ويصول فى أوربا ، ولا سيما بعد معاهدته مع فرانسوا الأول (ملك فرنسا) سنه ١٥٣٥ ودخل المجر واستولى على بلاد إيطالية عديدة كان من بينها قشنسا ، ومودنا ، وعلى المجر ، ووقف على عاصمته النمسا (فيينا) مرتين التى هدم أسوارها ، ولولا البرد القارس ونفاذ ذخيرة المدفعية لباتت تسبح بحمد الديان على دين الإسلام ، ولكن لم يشأ الله ذلك .

وهناك من يرى [١] : الآراء السابقة مع إضافة رغبة العثمانيين فى حماية الشرق الإسلامى من الخطر الصليبى القادم من البرتغال ، ثم من تلاها من الدول الأوربية الأخرى ، وأيضاً إضافة إلى رغبة سليم فى ضم الأماكن المقدسة إلى دولته لتدعيم مركزها كدولة إسلامية على المذهب السنى فى مواجهة أعدائه الأوربيين النصارى ، والفرس الشيعة .

ويرى آخر [٢] : « أننا لا نرى ما يمنع من أن تكون هذه العوامل جميعها مسئولة مسئولية مشتركة عن الاتجاه الشرقى للدولة العثمانية » .

ولكننا لا نستطيع التسليم بهذه الآراء جملة وتفصيلاً بعد الإبحار فى الحوادث السابقة ، ولذلك نحاول تتبع من قام بالغزو شرقاً فى محاولة الاستقراء ، واستنطاق الأحداث وإبطالها ، ولا سيما سليم الذى اتخذ قرار الاتجاه شرقاً .

فقضية وصول العثمانيين إلى درجة التشبع ، وأصبح موقفها دفاعياً قد فندناها فقد كان بايزيد الثانى محباً للسلم ومع ذلك غزا مواقع أوربية عديدة ، وكذلك فعل سليمان .

---

(١) د/ محمود صالح منسى ـ تاريخ الشرق العربى الحديث ـ دار الوزان ـ القاهرة ١٩٩٠ ص ٣٢ وما بعدها .

(٢) د/ محمد أنيس ـ الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥٤ ـ ١٩١٤) ـ الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٨٥ ـ ص ١٠٣ .

أما قضايا حماية العالم الإسلامى ، والمقدسات الإسلامية . . . . . الخ .

فإن الأحـداث ، وطبيعة سليم ، وتاريخه ينفى عنه ذلك ـ فى رأى ـ كما سيتضح فيما يلى : ـ

فإن سليماً الذى يعلن العصيان على والده بايزيد الثانى ، ويجمع جيوشاً يحاربه بها فى الأناضول فى وقت كانت الجيوش العثمانية فيه تفتح بلاداً أوربية على بحر الأدرياتيك وبعد أن فتحت مدينة رودتسو كانت بلاد البنادقة (ڤينسيا وتوابعها) على وشك السقوط فى أيدى العثمانيين لولا عصيان سليم وإخوته أبيهم فى الأناضول ، فاضطر بايزيد الثانى لإبرام الصلح مع أعدائه فى أوروبا (المجر والبندقية) سنه ١٥٠٢ .

وعلى الرغم من عفو بايزيد الثانى عن ابنه سليم إلا أن الأخير وافق الانكشارية أو أنه أو عز إليهم (لتعلقهم به) فى عزل والده وتنصيبه هو فى ٢٥ من إبريل سنة ١٥١٢ م ولو صح ما ذكره المؤرخون من أن سليماً قد دس لأبيه السم خوفاً من رجوعه إلى منصة الملك (كما يذكر محمد فريد) لاستطعنا أن ننفى عن السلطان سليم أى توجهات إسلامية أو أهداف سامية ، فقد توفى بايزيد بعد شهر واحد من عزله (٢٦ مايو ١٥١٢) وهو فى الطريق إلى بلدة ديموتيقا التى اختار السفر إليها .

كما أن سليماً قد قبض على خمسة من أولاد إخوته ، وأمر بقتلهم ، ثم قتلت جيوشه سنه ١٥١٣ أخوه أحمد الذى كان محبوباً لدى الأعيان والأمراء .

ومما يدل على أنه كان ميالاً لسفك الدماء أنه أمر بحصر عدد الشيعة المنتشرين فى الولايات المتاخمة للفرس بطريقة سرية ، ثم أمر بقتلهم جميعاً ، وكان عددهم أربعين ألفاً ، ليس هذا فقط بل إنه كان يقتل وزراءه لأقل هفوة تصدر منهم (حتى كان من يُرام موته يُقال له : لعلك تصبح وزيراً لسليم) فقد قتل سبعة من وزرائه ، كما أنه قتل عدداً عظيماً من ضباط الانكشارية بعد عودته من تبريز سنه ١٥١٥ أما سبب توجه سليم للشرق الإسلامى فالأمر لا يعدو ـ فى نظرى ـ الانتقام من الشاه إسماعيل نظراً لإيوائه الأمير أحمد (أخيه)، وقبوله من فرّ من أبنائه عنده ، كما أن

سليماً بذلك أراد الفتك بأبناء أخيه الموجودين بفارس حتى لا يثوروا عليه طلباً للثأر ، وللحكم .

فقد كان سليم أصغر إخوته الذين عاشوا : كركود وأحمد ، ولم يكن الأحق بالسلطنة ونجد أن سليماً بعد أن انتهى من دخول تبريز وهزيمة الصفويين قد عاد إلى عاصمة بلاده إسلامبول ، ولكنه أعد العدة للإنتقام كذلك من المماليك الذين تحالفوا مع الشاه إسماعيل الصفوى لمحاربة العثمانيين (١) .

فالقضية ليست ـ كما يصورها البعض ـ أهدافاً إسلامية أو استراتيجية ، وإنما هى قضية انتقام وثأر شخصى بين حكام أخذتهم النعرَة الشخصية فيما بينهم ـ سليم ، إسماعيل ، الغورى ـ أى أن سليماً لم يخطط قط ـ قبل تحركه إلى تبريز ـ للسيطرة على مصر والشام . . . الخ ولم تكن هذه الخطوات قد أعد لها سلفاً فلم تكن هناك سياسة أو اتجاه عثمانى قائم بذاته نحو الشرق العربى .

•••

(١) انظر تفاصيل الأحداث عند : محمد فريد بك ـ الدولة العلية العثمانية ـ مكتبة الآداب ـ ط ٢ ـ مصر ١٨٩٦ـ ص ٧١ وما بعدها .

السيطرة العثمانية على العالم العربى

ترك العثمانيون الميدان الأوربى بعد أن أبلو فيه بلاءاً حسناً سيطروا فيه على كثير من بلدانه التى نشروا فيها الإسلام ، واستداروا إلى العالم العربى والإسلامى بعد ظهور أخطار نجمت عن محاولات الصفو يين نشر المذهب الشيعى (قزل باش) فى بعض الممتلكات العثمانية حيث استغل الصفويون انشغال العثمانيين بحروبهم فى أوروبا ، هذا بالإضافة إلى بعض المتاعب التى باتت تظهر من إيواء الغورى سلطان المماليك لبعض الأمراء العثمانيين وشكلوا بذلك شوكة فى جبين الدولة العثمانية[1] .

ومن ناحية أخرى يغلب على الاعتقاد أن العثمانيين قد أحسوا فى أوائل القرن السادس عشر بازدياد القوى العسكرية الأوربية ، وعدم جدوى التوغل فى أراضيها فكان عليهم تثبيت وتقوية مركزهم وللحفاظ على المكاسب التى حققوها بالتفرغ للأخطار التى استجدت من ناحية الصفويين والمماليك فى الشرق الإسلامى .

العثمانيون والصفويون فى جالديران سنة ١٥١٤م :

بدأت المشكلة الصفوية العثمانية تشتد منذ أن حكم إسماعيل الصفوى (١٥٠٠ - ١٥٢٤) م مؤسساً دولة شيعية موحدة فى إيران بعد إخضاع أجزائها مستعيناً بعناصرها من الأتراك فى الأناضول والشام ، ثم تطلع إلى المناطق الجغرافية القريبة منه ، وشجعته ظروف العراق المضطربة ، وخصوبة أراضيه ، ورواج التجارة فيه ، وما يحويه العراق من تراث شعبى تمثل فى مقابر الأئمة (المزارات) كل ذلك دفعه إلى الاستيلاء على العراق سنه ١٥٠٨ م متبعاً سياسة بسط المذهب الشيعى ، ونجح فيه جزئياً إذ أن دخول العثمانيين السنة إليه قد ساعد على التوازن السنى الشيعى هناك .

---

(١) د . السيد محمد الدقن - دراسات فى تاريخ الدولة العثمانية القاهرة - ١٩٨٥ م - ص ٤٥ ، ٤٦ .

وباستيلاء الصفويين على العراق أصبح التلامس الحدودى قائماً بينهم وبين العثمانيين مع ما فيه من احتكاك وانتقال العناصر المختلفة بين الدولتين من أكراد وتركمان وعرب وأتراك ، وتأرجح هذه العناصر فى الولاء ، إضافة إلى لجوء الفارين من المعارضين العثمانيين إلى فارس ونشر الفرس لمذهبهم الشيعى (القزل باشى) أى الرؤوس الحمراء فى ممتلكات العثمانيين السنة أدى ذلك مجتمعاً إلى المواجهة والحرب بين الفريقين.

حشد السلطان العثمانى سليم الأول قواته ، واتجه بها صوب عاصمة الصفويين حيث كان اللقاء الفاصل فى سهل جالديران سنه ١٥١٤ ، وانتهت المعركة بهزيمة شنيعةللصفويين ، تقدم سليم بقواته على إثرها إلى تبريز العاصمة ، واستولى على أموال ونساء الشاه إسماعيل الذى فر إلى الداخل .

ولم يشأ سليم أن يتتبع إسماعيل بعد أن ظهرت معارضته الإنكشاريه وخوفه من وعورة المسالك ، واكتفى بتأمين حدوده الشرقية باستيلائه على شمال العراق وديار بكر ، وجزء من أذربيجان [١] .

العثمانيون والمماليك فى الشام و مصر:

تأرجحت العلاقات العثمانية المملوكية بين الود والتحالف من جهة ، والخلاف والنزاع من جهة أخرى ، فمن الأولى ظهرت ألوان التحالف الذى كان مبعثه الأخطار التى باتت تواجه الشرق الأوسط الإسلامى من ناحية المغول إلا أن هزيمة بيازيد أمامهم فى معركة أنقرة قد عطل هذا التحالف ، وتجدد مرة ثانية أمام الخطر البرتغالى عندما طلب الغورى مساعدة بيازيد الثانى الذى لبى النداء والمساعدة على شكل أخشاب لبناء الأسطول المملوكى ، كما اشتركت سفن الدولتين فى معركة فى الغرب من الإسكندرية سنة ١٥١٠ ضد شفن فرسان القديس يوحنا يقودها أحد القادة البرتغاليين .

(١) د . عبد العزيز الشناوى ـ أوربا فى مطلع العصور الحديثة ـ حـ ١ ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ ـ ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ ود . محمد أنيس ـ الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ـ ١٩١٤) م ـ الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

كذلك كان من مظاهر الود تلقى المماليك لأنباء الانتصارات العثمانية بابتهاج وسرور ولا سيما نبأ سقوط القسطنطينية حيث احتفل به السلطان إينال فى القاهرة احتفالاً رسمياً (١) .

أما مظاهر العداء والنزاع فتمثلت فى العديد من الأحداث على رأسها الخلاف الحدودى فى أعالى الشام ، وكذلك المنافسة بينهما للسيطرة والنفوذ فى البحر المتوسط خاصة بعد استيلاء المماليك على جزيرة قبرص سنه ١٤٢٤ م فى عهد السلطان برسباى ، كما حدث نزاع آخر بايزيد وقايتباى عندما لجأ الأمير جم منافس بايزيد إلى مصر . مما أشعل فتيل الحرب بينهما سنة ١٤٨٥ م كان النصر فيها حليفاً لقايتباى ، وانتهى الأمر بصلح تم عقده فى سنة ١٤٩١ م (٢) .

ومع ذلك فلم يتطور الخلاف فى كل المراحل إلى عداء أو نزاع شديد ، وإنما دأبت الأمور الخلافية على العودة إلى المسالمة سريعاً قبل استفحالها .

وعلى كل فقد جانب الصواب السلطان المملوكى الغورى إذ أنه لم يقف على الحياد فى الصراع العثمانى الصفوى ، كما أنه لم ينضم صراحة ليرجح إحدى الكفتين ، واكتفى فقط بعرقلة وصول الإمدادات والمؤن للجيش العثمانى ويبدو أن هذه العرقلة جاءت رداً على تعرض العثمانيين لقوافل تجار المماليك الذى كانوا يأتون بالمماليك الجراكسة إلى السلطنة ومنع وصول الهدايا المرسلة من الهند إلى استانبول ، مما أغضب السلطان العثمانى ، ودفعه إلى الانتقام .

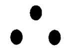
وبالفعل اتجه سليم إلى المناطق الفاصلة بين الدولتين واستولى على شرقى

---

(١) عندما علم الأمير جم بموت محمد الثانى (الفاتح) ثار على أخيه الأكبر بايزيد طالباً منه اقتسام الأملاك العثمانية فيختص هو بآسيا وبايزيد بأوروبا الأمر الذى رفضه الأخير وهزمه فى يكى شهر سنه ١٤٨١م فاضطر جم للجوء إلى القاهرة ضيفاً على السلطان قايتباى . انظر : محمد فريد بك ـ الدولة العلية العثمانية ـ مكتبة الآداب ـ ط ٢ ـ مصر ـ ١٨٩٦ ـ ص ٦٨ .

(٢) د / محمد أنيس ـ مرجع سابق ـ ص ١٠٨ ، ١٠٩ . ويذكر محمد فريد بك : أن الصلح قد تم بعد وساطة باى تونس إثر المناوشات الخفيفة التى وقعت بين العثمانيين والمماليك للخلاف على منطقتى التلامس الحدودى (اطنه ، وطرسوس) انظر : الدولة العلية العثمانية ـ ص ٧٠ .

الشام، وغربى الفرات ، مما جعل الخطر وشيكاً ، وفى ٢٥ من رجب ٩٢٢ هـ/ ٢٤ أغسطس ١٥١٦ وقعت معركة مرج دابق شمالى حلب بعد فشل محاولات الصلح بينهما [١] ، وتغلب محاولات الوقيعة سقط فيها السلطان الغورى صريعاً ، ولقى المماليك هزيمة صعبة سقطت على إثرها مدن الشام الواحدة تلو الأخرى : حلب ـ حماه ـ حمص ـ دمشق حيث تسابق الأمراء فى إعلان الولاء لسليم وتمت الخطبة باسمه فى المسجد الأموى .



(١) ابن إياس (أحمد بن محمد) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ حـ ٥ ـ ص ٦٤ .



العالم العربي في القرون الوسطى

الباب الأول

الشام





الفصل الأول

سوريا

الشام تحت الحكم العثمانى:

عندما وصل السلطان سليم بقواته إلى دمشق ، اتجه إلى حلب التى حضر فيها صلاة جمعة ٨ من شعبان ٩٢٢ هـ / ٣ أغسطس ١٥١٦ م، وسمع خطيب المسجد يخطب باسمه مطلقاً عليه لقب : خادم الحرمين الشريفين فأعجبه ذلك ، وسجد لله شكراً [١] .

وبعد أن فتح مصر ونظم شئونها عاد إلى دمشق حيث اهتم بتوزيع المناصب فيها وتقسيمها بشكل مختلف عن الولايات العثمانية الأخرى كما نظم عملية جباية الأموال ، وقفل راجعاً إلى عاصمة بلاده (إسلامبول) .

لم تخضع بلاد الشام ـ تحت الحكم العثمانى ـ لحكومة مركزية واحدة كما هو الحال فى مصر ، بل تم تقسيمها إلى عدد من الوحدات الإدارية أطلق عليها الباشويات أو الإيالات وهى : ـ

باشوية حلب ، باشوية دمشق التى أطلق عليها أحياناً باشوية الشام وباشوية سوريا أحياناً أخرى ، باشوية طرابلس ، وكانت هناك بعض التعديلات التى تحدث على هذا التقسيم الإدارى تبعاً للأحداث السياسية التى واجهتها الدولة بلاد الشام .

كما اختلفت بلاد الشام عن غيرها من الولايات العثمانية فى استمرارية اتصالها (طوال قرون الحكم العثمانى) بدول أوروبا سواء فى المجال التجارى ، أو فى المجال الفكرى والدينى نظراً لهذا التنوع البشرى واللغوى ، والدينى الذى امتازت به الشام عن غيرها من تلك الولايات [٢] .

وسوف نفرد لكل منطقة منها حديثاً خاصاً فيما يلى :

---

(١) النهر والى(قطب الدين) ـ أخبار مكة المشرفة ـ حـ ٣ ـ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٢) د/ عبد العزيز الشناوى ـ الدولة العثمانية ـ حـ ٢ ـ الأنجلو المصرية ١٩٨٠ص ـ ٧٣٦ ـ ٧٣٧ .

أولاً : ســــوريا

ظل الجزء الشمالى من سوريا الذى كان مركزه مدينة حلب فى غاية الأهمية من الناحية الاستراتيجية ، نظراً لما كان يقوم به من دور فى حماية الممرات إلى الأناضول عـبـر جـبـال طوروس ، ومن أجل ذلك وضـعـت ولاية حلب تحت قـيـادة وال عثمانى ، اختلف دوره عن غيره طوال القرون الأربعة التالية إذ أنه كان بعيداً عن مشاكل سوريا ولبنان لانشغاله الدائم بمشاكل العراق وإيران وديار بكر والموصل والأناضول بحكم موقع منطقته (حلب) ، واتصالها بتلك البقاع المشار إليها حيث إنها كانت ملتقى الطرق وسريعة التأثر بأحداث الصراع العثمانى الفارسى طوال قرنين من الزمان وحتى سنة ١٧٤٧م . هذا بالإضافة إلى أن القبائل التى حاول حكام حلب كـبـح جـمـاحـهـا لـم يكونوا فـقط عـبـراً بل كـان منهم البـدو ، والتركمان ، والأكراد ، كما أن حلب ظلت مركزاً هاماً من مراكز التبادل التجارى مع أوربا ، وقد أنشئ بها مصنعاً لتجارة شركة الليڤانت الإنجليزية The English Levant Company التى عنيت بتجارة واسعة فى صنف الحرير الفارسى الخام[١]

ومع ذلك فقد كان هناك نزاع دائم فى حلب بين قوات الانكشارية ، والقوات المحلية التى كانت تسمى الأسياد (الأشراف) الذين كان يدعون النسب النبوى .

وتسببت الاضطرابات المتتالية إلى إنهيار الزراعة بعد سنة ١٧٥٠م حتى أن الرحالة الفرنسى فولنى Volney الذى زار المنطقة فى سنة ١٧٨٥ م وسجل مشاهداته وذكر أن أكثر من ٣٢٠٠ قرية كانت مسجلة أسماؤها فى إيالة حلب بسجلات الضرائب قد هجرها سكانها ، ولم يتبق منها سوى ٤٠٠ قرية فقط [٢] .

وخلاصة القول : أن حلب قد تمتعت طوال القرنين الأولين من الحكم العثمانى

---

(١) د/ عمر عبد العزيز عمر - تاريخ المشرق العربى (١٥١٦-١٩٢٢) م - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - ١٩٩٣ م - ص ١٥٣ وما بعدها .

(٢) د . محمد أنيس - الدولة العثمانية - ص ١٥٤ .

بانتعاش اقتصادى واجتماعى بسبب تلك العلاقات القوية التى زادت مع الأجزاء الأخرى من الشرق الأدنى حيث نمت واتسعت تجارتها مع تركيا والعراق ، وباتت حلب أكبر وأهم المراكز التجارية العربية فى البحر الأبيض المتوسط ، هذا على الرغم من حركات التمرد المسلح ، وجشع الباشوات العثمانيين وجامعى الضرائب ، والتمرد المستمر للقبائل العربية ، ومع ذلك فإن النظام فيها قد استمر دون انهيار حتى سنه ١٧٥٠ م (١)

أما الجزء الجنوبى من سوريا (دمشق) فالملاحظ أنه لم يكن ذا أهمية استراتيجية فى الفترة المبكرة من الوجود العثمانى بالنسبة للإمبراطورية ، إنما كان من متطلبات الإدارة فى هذه المنطقة شيئا ن ضروريان إلى حد كبير ، وهما : استمرارية الحفاظ على الاستقرار الداخلى ، وثانيهما : العناية بسير قافلة الحج الكبيرة إلى الحجاز بأمان ويسر ، وعودتها دون التعرض لأخطار الغارات التى تعودت عليها بعض القبائل العربية .

فقد كان الطريق الممتد من دمشق إلى الحجاز مروراً بشرق الأردن ذا أهمية خاصة ولا سيما منذ أن كان مستخدماً كطريق للحج الطبيعى هذا بالإضافة إلى أهمية قافلة الحج الاقتصادية والدينية ، وتجدر الإشارة فى هذا المجال إلى أن منطقة دمشق الشامية كانت مركزاً تتجمع فيه قوافل الحجاج من سوريا والجزيرة والقوقاز وكردستان والقرم والأناضول وأذربجان ، هذه القوافل التى تراوحت أعداد الحجاج فيها سنوياً بين ٣٠ ألف و ٥٠ ألف استغل بعضهم فرصة التقاء هذه الجموع الغفيرة فى المبادلة التجارية ، وأخيراً فقد كان من مهام ممثل السلطان العثمانى العمل على حماية نفوذ وهيبة سلطانهم الذى يُعَد خادمًا للحرمين الشريفين حينئذ .

ونظراً لوجود مشاكل إدارية معقدة فى جنوب سوريا فقد بادر السلطان سليم بتعيين أحد القادة المماليك الذين لهم خبرة ودراية بالمنطقة وهو جان بردى الغزالى فى منصب الوالى عليها ، مطلقاً يده فى كل جنوب سوريا من مفرّة النعمان حتى

(١) د/ محمد أنيس ـ الدولة العثمانية ـ ص ١٥٣ .

العريش ، وشغل الغزالى فى السنوات الأولى بإخضاع القبائل حتى علم بوفاة سيده السلطان سليم فى أكتوبر سنة ١٥٢٠ قام بالثورة على الدولة العثمانية وحاصر قلعة دمشق التى كانت بها حامية تحت قيادة ضابط عثمانى ، وبعد استيلائه عليها أعلن عصيانه للسلطان سليمان ومنع ذكره على منابر الجمعة ، ثم بادر بالزحف على حلب نظراً لأهميتها الاستراتيجية ، ولكن القوات العثمانية فيها تمكنت من قتله وعُين قائد القوات هناك والياً على دمشق وما جاورها ، كما تم تعيين حكام تابعين له فى غزة ، وصفد ، والقدس ، بينما طرابلس رُفعت إلى مرتبة الولاية لتتساوى بذلك مع كل من دمشق وحلب .

أدت ثورة الغزالى إلى إعادة توزيع المنطقة إدارياً حيث اشتملت ولاية دمشق على عشر صناجق (ألوية) أهمها : (القدس - نابلس - غزة - تدمر - صيدا - بيروت) بينما ضمت حلب خمسة صناجق بينها : شمالى سوريا أما طرابلس فقد كان فيها خمسة صناجق منها : حمص - حماه - جبله - سلميه ، وظل هذا التقسيم الإدارى سارياً حتى سنة ١٦٦٠م عندما أضيفت ولاية أخرى هى ولاية صيدا لتكون مركزاً ومعقلاً للقوات العثمانية التى تراقب لبنان بعد ثورة الأمير فخر الدين المعنى ، واستمر بعد ذلك الوضع حتى استيلاء مصر على الشام فيما بين سنتى ١٨٣٢ - ١٨٤٠ م ، وبعدها عاد التقسيم إلى نظام الولايات الأربع (١) .

دور أسرة العظم فى استقرار إيالة دمشق :

استمرت الخلافات العنيفة بين الإنكشارية والقوات المحلية فى إيالة دمشق ولم ينقذها من الانهيار سوى أسرة حكمت حوالى ستين عاماً هى أسرة العظم : -

فقد ساعدت هذه الأسرة على تثبيت النفوذ العثمانى فى بلاد الشام ، وأصبح من الصعب الاستغناء عنها طوال فترة حكمها ، خاصة بعد أن استمر النزاع بين القابقول السلطانية) ، والبردلية (الانكشارية المحلية) أيام ولاية عثمان باشا المعروف باسم أبو طوق بين سنتى ١٧٢١ م ، ١٧٢٤ م ، ، ولذلك فقد عمر السلطان إلى

(١) د/ عمر عبد العزيز - تاريخ المشرق - ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

عزل عثمان باشا سنة ١٧٢٤ م خشية على طريق الحج ومركز تجمعه الذى يستمد منه السلطان نفوذه فى العالم الإسلامى ، وعين إسماعيل باشا العظم الذى كان حاكماً على صيدا .

تمكن إسماعيل العظم من إخماد حركة التمرد فى دمشق ، واستعان بجنده من مماليك البوسنة والمغاربة ، ولكنه طُرد من دمشق سنة ١٧٣٠ م وسادت الاضطرابات حتى عُين أخوه سليمان باشا العظم الذى استطاع السيطرة على الموقف طوال فترة حكمه وحتى وفاته ١٧٤٠ م ، وخلفه بن أخيه أسعد باشا العظم حاكم صيدا إلا أن الأخير قد وجد صعوبة نتجت عن عداء كل من البردلية ودروز لبنان له .

ولكنه تمكن فى سنة ١٧٤٦م من القبض على عدد كبير من البردلية وقتلهم مما ثبت أقدامه فى المنطقة ، وعمل على تعيين أقاربه وأتباعه فى المناصب الهامة فى باشوية طرابلس وباشوية صيدا ، هذا بالإضافة إلى إسناد إيالة حلب له شخصياً سنة ١٧٥٥م الأمر الذى أثار حفيظة الدولة العثمانية وخشيت من عظم نفوذه .

على أثر ذلك حدثت محاولة لإقصاء آل العظم عن الحكم ، ولكنها باءت بالفشل إذا استمرت الاضطرابات طوال السنوات التى ابتعد فيها آل العظم عن الحكم، مما اضطر الدولة للعودة إلى الأسرة مرة أخرى ، وتعيين محمد باشا العظم سنة ١٧٧٨م فى دمشق ليظل فيها عشر سنوات كان مثالاً يُحتذى فى الإدارة والحزم حتى وفاته [١] .

أحمد باشا الجزار :

شخصية مغامرة لعبت دوراً خطيراً فى الحياة السياسية والاجتماعية فى عدة مناطق فى بلاد الشام ، ولذلك أفردتُ له حديثاً خاصاً به ، فقد ولد الجزار سنة ١٧٢٠ م أرناؤوطياً فى بلاد البوسنة ،ولذلك عُرف باسم أحمد البوشناقى ،وعمل من سنة ١٧٥٦م فى مصر تحت قيادة المماليك ، وقد اشتهر بقسوته على أعدائه

(١) محمد أنيس ـ الدولة العثمانية ـ ص ١٥٤ وما بعدها .
وانظر : عمر عبد العزيز ـ تاريخ المشرق ـ ص ١٦١ ، ١٦٢ .

وقتلهم غيلة كما كان له صولات فى انتقامه من عرب الهنادوه ، ولذلك أطلق عليه الجزار لكثرة من قتلهم ، ولكنه اختلف مع على بك الكبير (الذى سيأتى ذكره) فخاف من بطشه ، وفرّ من مصر متنكراً فى زى المغاربة إلى إسلامبول حيث رحبت به الدوائر الحكومية هناك لخروجه على أحد عصاة الدولة ، ورحل الجزار بعدها إلى الشام وهناك قدم خدماته لكل من طلبها ، واستقر به المقام حاكماً على بيروت التى جعلها كرأس جسر انطلق منه إلى بلاد شامية أخرى [١] .

كان الجزار حاكماً على بيروت عندما تحالف ظاهر العمر ـ الذى سيأتى ذكره ـ مع على بك الكبير (شيخ البلد فى مصر) ، ومساعدته له فى غزو بلاد الشام ، كما تحالف ظاهر مع الأسطول الروسى ، واستولى على بيروت وطرد منها حاكمها الجزار ، وبعد عدة سنوات حصل الجزار على حكم باشوية دمشق بجانب باشوية صيدا وطرابلس حيث فرض الضرائب الباهظة وسياسة الاحتكار ، هذا غير إسرافه فى إراقه دماء معارضيه حتى أن الناس عندما علموا بخلعه سنة ١٧٩٥ م ابتهجوا وزينوا الشوارع وأضاءوا الحوانيت اعتقاداً منهم أنهم قد تخلصوا من كابوس أطبق على صدورهم .

ولكن الجزار استطاع أن يعود إلى حكم باشوية دمشق بعد ذلك سنة ١٧٩٩م ، ومرة ثالثة فى آخر سنة ١٨٠٣ استمرت للعام التالى فقط ، وفى المرتين اشتد عنفه وفتكه بالناس حتى أن الكثيرين من أهالى دمشق فروا منها إلى حلب ، ولبنان للنجاة بأرواحهم [٢] ، وانتهى بحكمه العصر العثمانى الأول فى الشام فى مطلع القرن التاسع عشر الميلادى .

استيلاء محمد على باشا على الشام:

اختلفت الرؤى فى أسباب اتجاه محمد على للسيطرة على بلاد الشام فمنهم من رأى [٣] : انه أراد استرجاع الفلاحين الذين فرّوا إلى عكا هرباً من فداحة الضرائب

---

(١) د/ عمر عبد العزيز ـ تاريخ المشرق ـ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) د/ محمد أنيس ـ الدولة العثمانية ـ ص ١٥٨ .

(٣) محمد فريد بك ـ الدولة العلية ـ ص ٢٣٣ .

التى فرضها عليهم محمد على بعد رفض الجزار (واليها) لإعادتهم إلى مصر مدّعيا بأن الجهتين تتبعان سلطان واحد ، ويرى آخرون [(١)] : أن الفكرة قديمة ترجع إلى سنة ١٨١٠ عندما طمع محمد على فى ضم الشام إلى مصر ، وتوسيع رقعة نفوذه لولا انشغاله بالحجاز واليونان والسودان .

إلا أن أستاذنا الدكتور / السيد الدقن [(٢)] : ينفى هذا التفكير المبكر لمحمد على فقد كانت الظروف غير مواتية حتى للتفكير فى ذلك ويرى الدكتور / الدقن أنه لم يفكر فى سوريا إلا بعد أن بسط نفوذه فى شبه الجزيرة العربية وفتحه للسودان ، وانتهائه من الحرب اليونانية ، ورفض السلطان مكافأته على الجهود التى بذلها فى الأخيرة بضم الشام إليه .

بينما يرى أستاذنا الدكتور / مصطفى رمضان [(٣)] : أن محمد على أراد أن يملأ الفراغ الذى باتت تتركه الدول العثمانية سياسياً وعسكرياً فى المنطقة ، وأراد استباق الدول الأوربية التى طمعت فى ملأ هذا الفراغ ، ولكنه وجد فى إعلان الاستقلال صعوبة دولية كبيرة ، وهو بالفعل مستقل بدون إعلان ذلك ، وأمام رفض السلطان إعطائه الشام بادر هو بالسيطرة عليه ، ورغم تقارب الآراء فإنى أتفق مع الرأى الأخير لأن سنة الله فى خلقه على مر التاريخ أن تقوى أمة ثم تضعف لتقوى أخرى فيه على حسابها فالقضية قضية ملأ فراغ تركه شيخوخة العثمانيين قبل أن يسبقه الأوربيون الذين باتوا يسنون أسنانهم لالتهام المنطقة .

ولذلك فقد أعد محمد على جيشاً كبيراً بقيادة ابنه إبراهيم باشا سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م وأمره بالتحرك سريعاً إلى بلاد الشام براً عبر العريش وبحراً فى آن واحد لمباغتة عكا قبل أن يأتيها المدد ، وتم تعيين سليمان الفرنسى قائم مقام ، وتمكن إبراهيم بمساعدة البحرية المصرية من فتح غزة ويافا وبيت المقدس ونابلس ثم اتخذ

---

(١) عبد الرحمن الرافعى بك - عصر محمد على ج ٣ - النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٥١ م - ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٢) دراسات فى تاريخ الدولة العثمانية - ص ٩٠ .

(٣) تاريخ الحركة الوطنية وجذور النضال المصرى - القاهرة ١٩٨٥ - ص ١٤ .

مدينة يافا مقراً لقيادة العمليات ، أما عكا فقد حاصرها سريعاً براً وبحراً حتى لا يأتيها المدد من البحر (كما حدث مع بونابرت سنة ١٧٩٩ م حيث استعصت عليه فترة) ، واعتبرت الدولة ذلك عصياناً من محمد على وابنه فأرسلت إليه عثمان باشا والى حلب فى عشرين ألفاً، ولكن إبراهيم لم يمهله فاتجه إليه وتقابلا فى حمص حيث شدد عليه الهجوم ، حتى تمكن إبراهيم من هزيمته ، وعاد إلى عكا ففتحها عنوة فى مايو ١٨٣٢م ، ووقع الجزار فى أسره حيث أرسله إلى مصر .

لم ييأس السلطان محمود الثانى فأمر بتجميع أكبر عدد من الجيوش النظامية بلغت ستين ألفاً بقيادة حسين باشا (الذى كسر شوكة الإنكشارية) فتمكن إبراهيم من مقدمته فى يوليو ١٨٣٢ م مما ألجأ حسين إلى التقهقر بجيشه متحصناً بمضيق بيلان بين الشام والأناضول حيث لحق به إبراهيم وانتصر عليه فى الشهر نفسه ، مما أغرى إبراهيم للتقدم صوب العاصمة العثمانية فاحتل إقليم اطنه وقونيه فى وسط الأناضول حيث التقى مع الجيش الآخر الذى أعده السلطان بقيادة رشيد باشا (الذى كان قد ساعد إبراهيم فى بلاد المورة) فانتصر عليه إبراهيم وأخذه أسيراً مثيراً الفزع فى الآستانة خوفاً من اقتحامها [١] ، وهو أمر بات سهلاً الأمر الذى فزعت منه الدول الأوروبية خوفاً من التوازن الدولى ، وربما خوفاً من تقدمه إليها ، وإعادة صفحات التاريخ الإسلامى إلى عُقر دارهم مرة أخرى .

وصل إبراهيم باشا فى زحفه إلى مدينة كوتاهيه (على بعد خمسين فرسخ من العاصمة العثمانية) وسيطر على مغنيسيا ، وأزمير فى فبراير ١٨٣٣م ، ولم يتعد جيشه ثلاثين ألفاً بينما بلغ العثمانيون ثلاثاً وخمسين ألفاً ، اضطر السلطان أمام ضغط محمد على ، واضطر الأخير أمام ضغط الدول الأوربية إلى عقد معاهدة كوتاهيه (مايو ١٨٣٣) بتخلى السلطان عن سوريا وإقليم أدنه لمحمد على مقابل أن يجلو عن باقى الأناضول .

---

(١) محمد فريد بك ـ الدولة العلية ـ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

وانظر : د/ عبد الرحيم عبد الرحمن ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر ـ دار الكتاب الجامعى ـ ط ٤ ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ ـ ص ١٥٩ .

أدت اتفاقيه هنكازيين العثمانيين والروس (يوليو ١٨٣٣) وهى دفاعية هجومية إلى دخول الأسطول الروسى إلى مياه البسفور ، واستعداد العثمانيين فى ثمانين ألفاً من رجالهم لملاقاة جيوش إبراهيم باشا التى بلغت ستين ألفاً ، وكانت موقعة حاسمة عند(نزيب) أو نصيبين فى ٢٤ من يونية سنة ١٨٣٩م تم فيها تدمير الجيش التركى ، وتسليم قائد الأسطول العثمانى أحمد فوزى لسفنه جميعها إلى محمد على بالإسكندرية ، مما أفقد الأتراك لجيشهم وأسطولهم فى الوقت الذى كان فيه السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) ، وخلفه ابنه عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١) م [١] .

وقد هرعت الدول الأوربية على اختلافها بمشاورات عديدة انتهت إلى معاهدة لندن (١٥ يوليو سنة ١٨٤٠) م التى كبحت جماح محمد على [٢] ، واضطرته فى النهاية إلى ترك الشام وشبه الجزيرة العربية ، وبقائه على مصر والسودان فقط .

حالة سوريا بعد خروج محمد على منها :

على الرغم من قصر عهد الإدارة المصرية بالشام (١٨٣٢ ـ ١٨٤٠) م إلا ءأنها قد تركت آثاراً إيجابيه لا تنكر فى أغلب نواحى الحياة حيث أشرفت الإدارة المصرية على كافة شئون التعليم ، الصحة ، والمواصلات ، والأمن . . . الخ .

ففى جانب التعليم لم يكن فى الشام قبل الحكم المصرى سوى مدارس أولية بدائية ، ومنذ سنة ١٨٣٤ م أنشئت العديد منها ابتدائية (فى مختلف أنحاء البلاد) ، وثانوية فى المدن الرئيسية مثل دمشق وحلب وإنطاكية ، ونظمت الحكومة أمور الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، وتمتع أهالى الشام بالمساواة مع اختلاف عقائدهم ،

---

(١) دار الوثائق بالقاهرة ـ وثيقة رقم ١٣ أصلية ـ محفظة ٦٦ عابدين ـ من محرم أغا محافظ المدينة المنورة إلى باشمعاون الخديوى ـ ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ هـ .

وانظر : الوثيقة ٢١ أصلية ـ محفظة ٢٦٦ عابدين ـ من الميرميران سليم بالجديدة إلى صاحب الدولة ـ ١٥ من جمادي الأولى سنة ١٢٥٥ هـ .

و : د/ مصطفى محمد رمضان ـ تطور الحركة الوطنية ـ ص ١٤٩ وما بعدها .

(٢) انظر تفاصيل ذلك عند : محمد فريد بك ـ تاريخ الدولة العلية ـ ص ٢٣٧ وما بعدها .

بالإضافة إلى ما أنشأه إبراهيم باشا من مجالس للمشورة تكونت من أعيان البلاد ، وعين كذلك كثيراً من السوريين فى المناصب الكبرى ، وبذلك مهد الحكم المصرى (القصير) السبيل لنهضة عملية وثقافية تطورت إلى نهضة سياسية عربية ، ووعى بمصالح الأمة ، كما فتحت سياسة التسامح التى أطلقها إبراهيم لأصحاب العقائد المختلفة الباب أمام نشاط الإرساليات الأجنبية ومدارسها فأرسل البعض إليها أبناءه ، وأحجم البعض الآخر فأنشئت المدارس الإسلامية العربية الخاصة (١) .

وتطورت الأفكار فى نهاية القرن التاسع عشر ، وبدأت تظهر على السطح العربى ولا سيما فى الشام الفكرة العربية الإسلامية للتمييز بينها وبين المسلمين غير العرب ، ووضح ذلك فى فكر عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه : « أم القرى » الذى نشر بمصر سنة ١٩٠٠ ، وتطور هذا الفكر (تبعاً لعوامل التغير فى الفكر التركى والعربى) إلى المناداة بالقومية العربية ، إلا أن القومية العربية انحصرت فى نطاق عربى ضيق فى بلاد الشام والعراق ، واتخذت حركة القومية إطار الجمعيات الثقافية السرية والعلنية ، والجمعيات الوطنية التى تعددت مشاربها ، ولكن المهم فى هذا الإطار هو ظهور الشخصية العربية المستقلة عن الشخصية القومية التركية التى باتت هى الأخرى تدعو إلى استقلاليتها ، على الرغم من وجود الشخصية الإسلامية ودعاتها ، وسار الاثنان جنباً إلى جنب فى مطلع القرن العشرين .

وقد ساعد على اتساع رقعة الفكر العربى المستقل عن الفكر التركى فى سوريا على وجه الخصوص - فى بداية القرن العشرين - الإدارة التركية الفاسدة فيها بعد أن تولى الحكم جمال باشا فى ٥ ديسمبر سنة ١٩١٣ ، وبدأ حكمه بخداع الشعب هناك عندما تحدث عن إحياء المجد العربى وهو كاره له ، ودس الدسائس للقيادات العربية ، وتصفية العديد منهم جسدياً مما عجل بمشاعر الكره تجاه كل ما هو تركى ، وعجل أيضاً بالدعوة إلى كيان عربى خاص فى داخل الدولة العثمانية ثم تطور ليكون ذلك بدونها .

---

(١) د/ محمود صالح منسى - تاريخ الشرق العربى الحديث - ص ٨٣ ، ٨٤ .

الحرب العالمية الأولى وأثرها فى سوريا :

اهتبلت بريطانيا الفرصة على أثر نشوب الحرب عندما دخلتها تركيا بجانب دولتى الوسط (ألمانيا ، إمبراطورية النمسا والمجر) معلنة الجهاد داعية الأمة الإسلامية إليه ، فكانت فرصة بريطانيا فى إبطال هذه الدعوة عن طريق القوميين العرب الذين استخدمتهم لضرب تركيا .

وعلى الرغم من أن سوريا كانت المرشحة لتلعب هذا الدور ، إلا أن قربها من مركز الدولة العثمانية وتواجد الحشود العسكرية بها بقيادة أحد قادة حكومة الاتحاد بين محمد جمال باشا جعل ذلك بريطانيا ترجئ التعامل مع الشام إلى مرحلة تالية ، ولذلك اتجهت إلى الشريف حسين شريف مكة الذى يستطيع تضييع الفرصة على الأتراك والذى وجدت عنده الاستعداد لمناهضة الدولة العثمانية ، وأخذت تُمنيه بما يرغب فى نظير ثورته على العثمانيين .

أما القوميون العرب فى دمشق فكانوا من جهة أخرى يبحثون عن قيادة دينية حتى لا تضرب حركتهم القومية بالدين عندما يُتهمون بالخروج عن الإسلام ، ووجدوا ضالتهم فى الشريف حسين فاتصلوا به عن طريق مندوب لهم هو فوزى البكرى فى أوائل سنة ١٩١٥ ، وتم الاتفاق على أن يكون فى مقابل ثورة القوميين على الترك اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية ، وعلى هذا الأساس ، بدأ الشريف فى مفاوضاته مع بريطانيا تلك المفاوضات التى عُرفت بمراسلات الحسين مكماهون [١] .

مراسلات الحسين مكماهون :

كان ممثل بريطانيا فى هذه الاتصالات هو السير هنرى مكماهون (المندوب السامى لبريطانيا فى مصر والسودان من أوائل سنة ١٩١٥م)، ودارت المراسلات على أساس تحقيق استقلال العرب ، وانفصالهم عن تركيا ، وكانت عبارة عن خمس مذكرات بدايتها ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ م ، وآخرها ١٠ مارس سنة ١٩١٦ م ،

(١) د/ محمود صالح منسى ـ الشرق العربى المعاصر ـ ق ١ ـ ص ٤ ، ٥ .

وهى الأساس (بما فيها من وعود وعهود) الذى بنى عليه الشريف ثورته على تركيا[1] ، دون أن يدرى بما يجرى فى الخفاء من بريطانيا وحلفائها الذى تمخض عنه : ـ

معاهدة سايكس بيكو :

وهى معاهدة سرية تم تدبيرها فى السر والكتمان لأن المراسلات العربية البريطانية كانت متداولة حينئذ ، وتناقض هذه المعاهدة مع تلك المراسلات ، ففى ١٦ من مايو تم الاتفاق بين الحلفاء (بريطانيا ـ فرنسا ـ روسيا) على تقسيم البلاد العربية ، فتحصل روسيا على القسطنطينية مع بعض جانبى البسفور ، وقسم من الأناضول (كلها خارج الحدود العربية) ، بينما تحصل فرنسا على معظم بلاد الشام ، وجزء من الأناضول ، والموصل من العراق ، أما بريطانيا فكان نصيبها أغلب العراق، ومنطقة حيفا وعكا مع توطئة فلسطين لتكون تحت حكم انجلترا لأنهم جعلوها أولاً تحت إدارة دولية ثم جعلوا هذه الدولية (بريطانيا)وبالطبع لعبت الصهيونية العالمية الدور الأكبر فى هذه الجزئية [2] .

وفى الشام شهدت البلاد محاكمات سريعة على أثر ظهور وثائق حصل عليها الأتراك من السفارتين الإنجليزية والفرنسية (بعد اشتعال الحرب) تدل على أسماء رجالات العرب وزعمائهم الذين كانوا على اتصال بدول الحلفاء ، فاعتقلت السلطات التركية عدداً منهم وصدر فى حقهم أحكام عديدة بالإعدام ، وتم تنفيذها فيمن وُجد منهم وتم إلقاء القبض عليه ، ساعدت هذه الأحداث على إخلاص القوميين العرب فى تعهداتهم للحسين وبريطانيا .

---

(١) جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ بيروت ـ ١٩٦٢ ـ ص ٢٥٩ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك عند : جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ ص ٥٧٨ وما بعدها

ـ وانظر ـ Stepen Hemsley Longrigg: Syria and Lelanon under, franch Mandate oxford 1955 . p 54.

الثورة العربية وأثرها على سوريا :

وفى ١٠ من يرنيو سنة ١٩١٦ أطلقت أول رصاصة من قصر الشريف حسين على ثكنات الجيش التركى ، وبدأت بذلك الثورة العربية على الأتراك اشترك فيها سوريون وعراقيون ولبنانيون وحجازيون وفلسطينيون مسلمون ونصارى كما اشترك فيها أيضاً بعض المصريين الذين بلغ عددهم ثلاثمائة ضابط وجندى ، وكان يقود رجال الثورة العربية ضباط انجلترا مثل السير ونجت (قائد العمليات الحربية فى الحجاز) ، ولورنس الذى اتهم بعمالته للصهيونية ، وعلاقته المشبوهة بالجاسوسة الصهيونية (سارة أورتسوهن التى أنشأ أبوها أول مستعمرة صهيونية فى فلسطين (زخروف باكوف) وساعدت على التمكين لليهود فى فلسطين ومساعدة الإنجليز ضد الأتراك ، وتم القبض عليها من قلب الأتراك فانتحرت حتى لا تبوح بأسرارها .

وفى أوائل ١٩١٧ أعلن الملك حسين نفسه ملكاً على العرب الأمر الذى لم تعترف به بريطانيا وفرنسا ، ولكنهما اعترافا به ملكاً على الحجاز فقط وتمكن فيصل بجيشه العربى وقياداته الإنجليزية من الاستيلاء على العديد من مدن الشام ، ودخل دمشق فى أكتوبر سنة ١٩١٨ وعلى الفور تم تنصيبه ملكاً على سوريا مع تأييد مؤقت من بريطانيا لامتصاص فورة الثوار .

وما أن انتهت الحرب حتى قسمت البلاد السورية إلى أقسام ثلاثة :

الأولى شرقية تشمل : شرق الأردن ، دمشق / حمص ، حماه ، حلب تحت زعامة فيصل .

الثانية غربية وتشمل : لبنان ، وولاية بيروت (صور ـ صيدا ـ طرابلس ـ اللاذقية)، تحت الإدارة الفرنسية .

والثالثة : : شملت فلسطين وقد سيطر عليها الإنجليز .

وبذلك شكل فيصل حكومة عربية فى دمشق شملت السوريين والفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين والحجازيين ، وغمرت الفرحة رجالات العرب الذين

توسموا خيراً وُشدت أنظارهم إلى دمشق لتصبح مركز الثقل العربى .

ولكن الفرحة ما تمت فقد اغتالتها اليد الاستعمارية عندما ظهر على السطح أبعاد اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ م ، وتصريح (وعد) بالفور ١٩١٧ م بعد انتهاء الحرب وعقد الهدنة بين ألمانيا والحلفاء فى نوفمير ١٩١٨م .

وفى مؤتمر الصلح بباريس صُدم فيصل بالحقيقة المرة وعدم اعتراف فرنسا به على سوريا فاقترح لجنة تحقيق لاستطلاع رغبات سكان البلاد الشامية فكانت لجنة كنج كرين King Crane التى جاءت تقاريرها موضوعية ، ولكن سبق السيف العزل فلم تفلح قراراتها التى جاءت فى صالح العرب ، ولم يفلح المؤتمر السورى بإعلانه الاستقلال (١) .

وفى ١٩٢٠ انعقد مؤتمر سان ريمو (تحت مظلة عصبة الأمم) تقرر فيه : -

الانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان ، والانتداب البريطانى على فلسطين والعراق ، وتنفيذ ما جاء فى وعد بالفور بشأن فلسطين واليهود والصهاينة ، وبعدها تحول الانتداب إلى وصاية .

وأما سخط وهياج الشعب السورى رفض فيصل إعلان الحرب على فرنسا ، ولكنه لم يسمح للفرنسيين بالتمكين لهم من البلاد فأرسل الجنرال غورو إنذاراً فى ١٤ من يوليو سنة ١٩٢٠ بقبول الانتداب الفرنسى ، ورغم قبول فيصل للإنذار إلا أن جورو تعلل بعدم وصول رد فيصل إلا بعد تحرك القوات ، وبالفعل التقى الجيش الفرنسى بكامل أسلحته ، مع الشعب السورى الغاضب بزعامة وزير الدفاع يوسف العظمة فى معركة غير متكافئة (معركة ميسلون ٢٤ يوليو ١٩٢٠) انتهت باحتلال الفرنسيين دمشق واستشهاد يوسف العظمة ، وتقسيم سوريا إلى دولتين منفصلتين : لبنان وسوريا بالرغم من اعتراض الأهالى ، وحكم البلاد المفوض السامى الفرنسى

---

(١) Stephen Longrigg : Syria and Lebanon - opcit 91 - 92.

وانظر : د/ زاهية قدوره ـ تاريخ العرب الحديث ـ ٢٤٨ وما بعدها .

حيث فرض الأحكام العرفية خمس سنوات حتى ١٩٢٥م ، وطرد فيصل حيث لجأ للسفر إلى انجلترا [١] .

تولى بعده علاء الدين الدروبى رياسة الحكومة السورية تحت الانتداب الفرنسى الذى سرعان ما اغتيل فى ٢١ أغسطس عام ١٩٢٠ م فى منطقة حوران، وقد تغيرت التقسيمات الإدارية فى الشام تحت الحكم الفرنسى مرات عديدة من بينها : تقسيم الفرنسيين الشام لأجزاء فكانوا كثيرى التقلب والتغيير فمثلا قسموا البلاد إلى دولتين منفصلتين فى دمشق وحلب ، وعلى كل منها حاكم محلى يساعدهما (بل عليهما) المستشارون الفرنسيون .

أما صنجق الأسكندرونة فقد تمتع بإدارة ذاتية إلى حد كبير نظراً لوجود عناصر تركية فيه ، ومنح سكانه الأتراك مميزات خاصة ، ومن بينها : أصبحت اللغة التركية هى اللغة الرسمية (بجانب العربية والفرنسية) .

وفى عام ١٩٢٢ تم إعلان انفصال جبل الدروز كوحدة منفصلة إدارياً تحت الحماية الفرنسية وكذلك أعلن أن دولة العلويين قائمة بذاتها بنظام إدارى خاص ، وحاكم فرنسى ، واستمر هذا التغيير عدة مرات حتى تم التنازل عن صنجق الأسكندرونة إلى تركيا مكافأة لها (رشوة) لضمان حيادها عند نشوب الحرب العالمية الثانية [٢] .

أثر الحرب العالمية الثانية على سوريا :

قُدر لسوريا أن تكون من البلاد التى نجت من التدمير والخراب الذى تركته الحرب العالمية الثانية ، بل وعجلت بالاستقلال قبل انتهاء عجلة الحرب ساعد عليه تواجد القوات البريطانية وتدخلها فى الحياة السياسية والاقتصادية السورية إبان

---

(١) stephen Longeigg : Syria . op . citp . 145 .

وانظر : د/ زاهية قدوره ـ تاريخ العرب الحديث ـ ٢٥٨ وما بعدها .

(٢) د/ محمود منسى ـ الشرق العربى المعاصر ـ ق ١ ـ ص ١٤٥ ، وما بعدها .

الحرب ، مما أتاح الفرصة للوطنيين السوريين على تحقيق هدفهم الرئيسى وهو الاستقلال عن الحكم الفرنسى .

وقد ساعد سرعة إعلان استقلال سوريا ولبنان كذلك هذا التصريح الذى أعلنه تشرشل فى سبتمبر عام ١٩٤١ م مؤكداً على أنه ليس من الضرورى إرجاء استقلال سوريا ولبنان إلى ما بعد انتهاء الحرب .

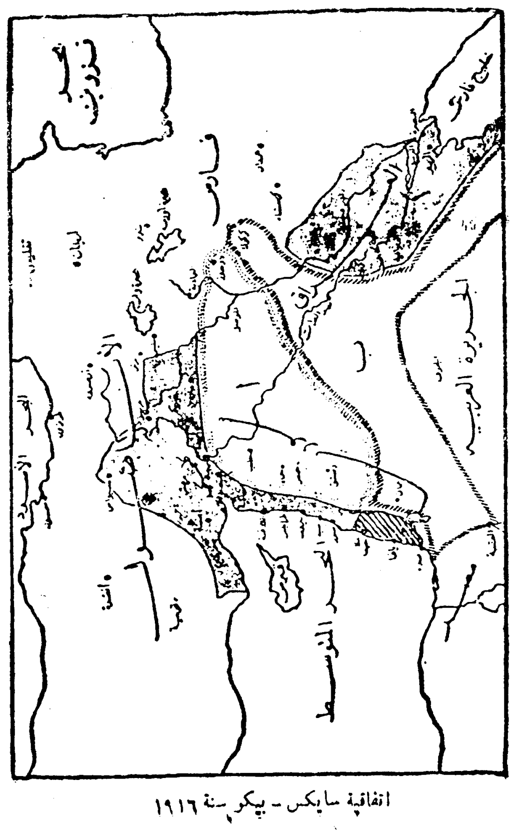
ويبدو من ذلك ومن بعض التحركات البريطانية الأخرى أن بريطانيا كانت تريد إزاحة الوجود الفرنسى أو إضافة على أقل تقدير فى منطقة سوريا ولبنان ليزداد النفوذ البريطانى فى المنطقة ويمكن من خلال ذلك ضمان الأمن للمصالح البريطانية العديدة فيها .

وزاد من فرصة سوريا فى الاستقلال المبكر أيضاً (إبان الحرب) ذلك البيان الرسمى الذى أصدرته الولايات المتحدة الأمريكية فى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤١ أعربت فيه عن عطفها على أمانى الشعبين السورى واللبنانى فى التمتع بحقوق السيادة التامة على كامل أراضيهم [(١)] .

وعلى كل فقد كان إعلان الجنرال كاترو المندوب العام الفرنسى (أحد معاونى الجنرال ديجول رئيس القوات الفرنسية الحرة) نهاية الانتداب واستقلال سوريا فى ٨ من يونيو ١٩٤١ وتأييد انجلترا لهذا الإعلان ليُعد ذلك بداية الطريق نحو الاستقلال التام إذ أن فرنسا ندمت ـ فيما يبدو ـ على هذا الإعلان ، وظلت الحكومة الفرنسية تمارس سطوتها وحكمها فى سوريا فى كثير من نواحى الحياة فيها رغم معارضة الشعب السورى الذى أشعل الاضطرابات حتى نال استقلاله التام فى سنة ١٩٤٣ م[(٢)]

(١) د/ محمود منسى ـ الشرق العربى المعاصر ـ ق ١ ـ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) د/ زاهية قدوره ـ تاريخ العرب الحديث ـ ص ٢٦٦ .



اتفاقية سايكس - بيكو سنة ١٩١٦



الفصل الثانى

لبنــان

ثانياً : لبنان :

قد يحار المرء وهو يتصفح تاريخ لبنان فما بالنا بمن يسبح فى أعماقه !هذا البلد الصغير الذى تقلب على جمرات متوهجة لا تكاد تخمد نارها حتى تتوهج من جديد، يتلظى أهلها ،ويتعجب المرء كيف استطاع هؤلاء أن تغمض أجفانهم منذ خمسة قرون إلى يوم الله هذا .

فمنذ خمسة قرون (بداية العصر الحديث فى الشرق الإسلامى) دخل لبنان (ضمن بلاد الشام) تحت السيادة العثمانية التى استنفدت جهداً شاقاً لحل القضايا اللبنانية عسكرياً وإدارياً وسياسياً ، فقد كان موقع لبنان الجغرافى ، وتنوع سطحه الطبيعى ، وغرابة توزيع السكان فيه أثر وأى أثر فى تاريخه الحديث ، ولا سيما بعد أن أصبحت المنطقة التى يتوسطها لبنان واسطة للتطور العالمى السياسى والاقتصادى الثقافى والحضارى .

وقد انتهت لبنان إلى تشكيلة معقدة بشرية وطائفية ، مذاهب متعددة لأديان مختلفة لمشارب أكبر تعدداً ساعدت عليها الدول الاستعمارية كل منها يبتغى أن يجد لأهدافه موقع قدم فيها ، ولكن الجميع من الاستعماريين قد اجتمعوا ـ فيما يبدو وفيما أعتقد ـ على الزج بطوائف أعيتها الخلافات فى أوروبا وأعيت أوروبا منها فحاول الأوربيون لذلك التخلص من هؤلاء فألقوا بهم فى أرض أرادوا لها الشتات والفرقة ولأمة إسلامية أرادوا الانتقام منها فى ثوب جديد .

ووقفت كل جهة استعمارية تمد هذا المسرح بمشاهد تمنع إغلاق الستار ، ليستمر الجميع يتمتعون بمشاهدة دراما مناظر التمزق والفرقة التى كلما خمدت نارها أمدوها بما يشعلها من جديد حتى لا تخبو وتظل رسالتها ، هذا بالإضافة إلى خلافات الشرقيين المسلمين أنفسهم ، ويبدو أيضاً أن صهيونية القرن العشرين ما هى إلا فصل جديد بعد ما سئم الأوربيون الفصول الأولى ولم تعد تشفى غليلهم فكان عليهم البحث عن دراما أعنف وأشد قوة حتى وجدوا ضالتهم فى الصهيونية فاهتبلوا

الفرصة ، وجعلوا بدايتها وعد بالفور سنة ١٩١٧ م .

إن هذا التكوين الغريب للبنان بشرياً وطائفياً قد سبب متناقضات عديدة يصعب على الآخرين من خارجه فهمها ، فموقف النصرانى فى لبنان من النصرانية يختلف عن موقف النصرانى فى بقية الدول العربية ، وكذلك المسلم فيه يختلف عن المسلمين فى مصر وسوريا وفلسطين وغيرها ، وكذلك موقف كل منهم (مسلم ونصرانى) تجاه الآخر يختلف عن موقف غيرهما فى البلاد الأخرى .

هذه المتناقضات التى أسيئ تفسيرها يرجع فى نظرى لأن الجميع لم يحاول فهمها بل عمد الكل إلى استغلال هذه الظروف كل لمصلحته البعض يقوى ، والبعض الآخر يعمل على الإضعاف ، هذا غير تنوع الثقافات والمدارس الفكرية التى انتمى إليها كل عنصر من عناصر المجتمع فى لبنان .

الحكم العثمانى فى لبنان :

عندما سيطر السلطان سليم على الشام كان التنوع الدينى فى لبنان أكثر تعقيداً من أى قطر آخر مسلمون ونصارى .

أولاً : الطوائف الإسلامية :

فقد كان المسلمون طرائق قدداً ، من بينهم أهل السنة ، وهم عرب وتركمان وعثمانيون وهم أصحاب الثقل السياسى فى البلد ، وبينما اتبع العثمانيون والتركمان والأكراد المذهب الحنفى ، ومعهم بعض الأعيان العرب من سكان المدن الذين نهجوا النهج نفسه فاتبعوا المذهب الحنفى ، (مذهب السلطان) ومذهب الدولة الرسمى تقرباً وزلفى ، وانتمى عدد من السنين إلى المذهب الحنبلى ، فى الوقت الذى كان فيه المذهب الشافعى هو السائد فى البلاد تأثرت بمصر الشافعية مثل فلسطين والأردن وغيرهما .

أما الشيعة : فقد مثلوا قطاعات ذوى عصبيات قوية وكونوا عشائر عديدة وكبيرة كان على رأسها طائفة الدروز الذين كانوا يعتقدون فى ألوهية الحاكم بأمر الله

الخليفة الفاطمى (٩٩٦ ـ ١٠٢٠م) ـ والعياذ بالله ـ وأن الروح الإلهية انتقلت من آدم ـ عليه السلام ـ إلى على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ ثم إلى الحاكم بأمر الله وحلت به ، وأنه سيعود فى آخر الزمان فى شخص المهدى المنتظر ، وهم يُنكرون أغلب العبادات الإسلامية ، والرسل وأصول الإسلام والنصرانية واليهودية .

كما أنهم لا يسمحون بتعدد الزوجات وبلغ عدد الدروز زهاء مائة ألف نسمة أغلبهم سكنوا جبل لبنان وحوران ووادى التيم ، وقاموا بدور بارز فى تاريخ المنطقة حتى أنهم أصبحوا حكامها الفعليين عدة قرون ، واشتهروا بالبسالة وطاعتهم لرؤسائهم ، ما اشتركوا فى أغلب الثورات التى قامت فى وجه الدولة العثمانية بلبنان حيث اتخذوا من الجبال معقلاً حصيناً لهم حتى سمُى جبل لبنان بجبل الدروز وظلوا كذلك حتى أوائل القرن الثامن عشر .

وكان أول من دعا إلى تأليه الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى هو الفارسى الأصل محمد بن إسماعيل الدرزى ، ووضع فلسفة هذه الهرطقة داع فارسى آخر هو حمزة اللباد الزوزنى وهو المؤسس الحقيقى لها (١) .

لم يظل الدروز فى قالب عصبى واحد بل تشعبوا إلى عصبيات عديدة فكان منهم التنوخيون ، والقيسيون ، والمعنيون (بنومعن) هؤلاء الذين باتوا أقوى العصبيات فى جنوبى لبنان إبان الحكم العثمانى ، وبلغوا أوج قوتهم ونفوذهم فى عهد أميرهم : ـ

فخر الدين المعنى الثانى (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥) :

كان أبوه قرقماز هو صاحب الزعامة على الدروز عندما احتل العثمانيون البلاد ، ورضى به العثمانيون زعيماً فيها ، ولما توفى سنة ١٥٨٤ م خلفه فى الرياسة ابنه فخر الدين الذى ظل إلى سنة ١٦٣٣ ، وقد كان صغيراً عندما توفى والده ، ولذلك لم

---

(١) محمد عبد الله عنان ـ الحاكم بأمر الله ـ ص ١٩٧ وما بعدها .

ـ وانظر : د/ عبد العزيز الشناوى الشناوى ـ الدولة العثمانية ـ ج ٢ ـ ص ٧٣٨ ، ٧٣٩ .

تأخذ زعامته الصورة الواقعية إلا من سنة ١٥٩١ ومنذ هذا التاريخ بدأ يوسع إمارته فاستولى على صيدا سنة ١٥٩٢ م ، وعلى البقاع سنة ١٥٩٤ م فطرد آل سيف من بيروت ، ودخل كسروان فى المرة الأولى سنة ١٥٩٨ بمباركة ولاة دمشق العثمانيين ، وقد استولى عليها نهائياً سنة ١٦٠٥ م .

وتبع ذلك استيلاؤه على صفد من والى دمشق ، ثم امتد نفوذه إلى نابلس وعجلون بين سنتى ١٦٠٠ ، ١٦١٣ م الأمر الذى أثار حفيظة والى دمشق وحدث الصدام بينهما ، اضطر فخر الدين إزاءه للهروب إلى إيطاليا التى قضى فيها خمس سنوات (١٦١٣ ـ ١٦١٨) نزل فيها ضيفاً على حاكم توسكانية .

عندما عاد فخر الدين إلى بلاده سنة ١٦١٨ ضم إلى نفوذه بلاد جبيل والبترون ، واللازقية ، وجبيله حصل عليها برضاء الدولة العثمانية ، وبعدها نابلس وعجلون مرة ثانية سنة ١٦٢٢ ، ولم تنقض سنة ١٦٣١ حتى كان فخر الدين يسيطر على الجزى الأكبر من ديار الشام ابتداءاً من بلاد القدس فى الجنوب إلى تدمر فى الشرق ، وأنطاكية شمالاً ، وعلى وجه التقريب لم يكن فى يد العثمانيين سوى مدينتى حلب ودمشق فقط .

وفى سنة ١٦٣٣ وجهت الدولة العثمانية جيشاً ضد فخر الدين بأمر السلطان مراد الرابع للباشوات المجاورين ، فجاءته حملة برية من دمشق بقيادة واليها ، ومن البحر مجموعة من السفن التى قصفت الموانئ حتى تم أسر فخر وفى سنة ١٦٣٣ وجهت الدولة العثمانية جيشاً ضد فخر الدين بأمر من السلطان مراد الرابع للباشوات المجاورين ، فجاءته حملة برية من دمشق بقيادة واليها ، ومن البحر مجموعة من السفن التى قصفت الموانئ حتى تم أسر فخر الدين، وثلاثة من أبنائه سيقوا جميعاً إلى العاصمة العثمانية ، ولم ينج منهم من القتل سوى ابنه الأصغر حسين الذى صار فيما بعد فى البلاط ثم سفيراً للدولة فى الهند [1] .

---

(١) د/ نقولا زيادة ـ أبعاد التاريخ اللبنانى الحديث ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ بيروت والقاهرة ـ ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ـ ص ٢٦ ، ٢٧ .

أصبحت الإمارة المعنية بعد القضاء على فخر الدين إمارة صغيرة مرتبطة بالمقاطعات الدرزية ، وفى سنة ١٦٦٧ تمكن الأمير أحمد المعنى من إعادة الوحدة للمناطق الدرزية وكسروان بموافقة الدولة العثمانية ، وصارت بذلك نواة للكيان اللبنانى الذى ظهر فيما بعد بانضمام المناطق الشمالية إلى الإمارة فى أواخر القرن الثامن عشر ،

وبوفاة الأمير أحمد المعنى سنة ١٦٩٧ م لم يكن هناك من يخلفه فانتقلت الإمارة إلى الشهابيين الذين قبضوا على الزعامة من سنة ١٦٩٧ إلى سنة ١٨٤٠ م [١] .

وبالإضافة إلى المعنيين والشهابين فقد كانت هناك طوائف عديدة عدّدها أستاذنا الدكتور الشناوى نجملها فيما يلى : ـ

فقد كان هناك آل علم الدين وهم من اليمنيين ، وكذلك الأمراء الأرسلانيون ، والمتاولة ، وهم من غلاة الشيعة الذين عاشوا فى جنوبى لبنان ، وامتدوا إلى البقاع ، كما سيطروا على بعلبك ، وعاشت جالية منهم فى دمشق كذلك ، كما كانت لهم اتصالات وعلاقات ببلاد فارس ، وتراوح عددهم بين خمسة وعشرين وخمسين ألفاً .

وكان هناك أيضاً النصيرية أو العلويون الطائفة الشيعية الباطنية التى كانت تجيز الزواج من المحرمات كالأم ، والأخت ، والإبنة ، وخلقوا متاعب للدولة ولجيرانهم حيث كانوا يعتدون على المسلمين والنصارى على السواء .

ومنهم أيضاً : الإسماعيلية وهم من أقدم الطوائف الشيعية فى بلاد الشام تركزوا فى السلمية شمالى شرق حمص اعترفوا للأغاخان بالزعامة ، ومن غلاة الشيعة كان بنو حرفوش الذين ناصبوا الطوائف الدرزية مثل المعنيين والشهابيين العداء ، ومن الأكراد اشتهر من عشائرهم بنو جانبولاد الذين عرفوا باسم الجنبلاطين ، واعتنقوا

---

(١) د / نقولا زيادة ـ أبعاد التاريخ اللبنانى ـ ص ٢٩

المذهب الدرزى ، ومن الأكراد أيضاً السيفيون أو بنو سيفاً ، وكانوا ممن عظم مركزهم وعلا على نفوذ الباشا العثمانى فى طرابلس ، ودان لهم شمالى لبنان حتى امتد نفوذهم إلى حماة وحمص .

بذلك نلاحظ أن بلاد الشام كانت مسرحاً تزاحمت عليه طوائف إسلامية عديدة من أهل السنة أو من الشيعة ، وكما رأينا فقد انقسم الشيعة إلى جماعات وطوائف عديدة عقائد ومذاهب تنابذ أفرادها سعياً وراء المناصب والزعامة وتحقيق المصالح الشخصية [١] .

ثانياً: الطوائف النصرانية

كانت الطوائف النصرانية فى بلاد الشام على شاكلة الطوائف الإسلامية ولاسيما فى تعددها وتصارعها المستمر على النفوذ ، وتحقيق المشارب الخاصة واتخذت كل طائفة نصرانية لنفسها منهجاً تسير عليه ربما يختلف عن غيرها من الطوائف الأخرى فكان من بينهم : الروم الأرثوذكس ، والروم الكاثوليك ، والسريان اليعاقبة ، والسريان الكاثوليك ، والأرمن الأرثوذكس ، والأرمن الكاثوليك ، والأقباط ، والأحباش ، والموارنة ، واللاتين ، والبروتستانت .

كان الروم الأرثوذكس يتبعون الكنيسة اليونانية فى إسلامبول ، وأتباعها من أكبر الطوائف النصرانية فى بلاد الشام سواء فى العدد أم فى الأهمية ، وبسبب استخدام اللغة اليونانية التى لا يعرفها العرب الأرثوذكس فى الطقوس الدينية شب النزاع بين الفريقين فطالب العرب فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بتعريب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية .

أما الروم الكاثوليك فكانوا يتبعون الكنيسة البابوية بروما ، وكانوا فى البداية قد تعرضوا للاضطهاد الشديد من جانب الروم الأرثوذكس ، ولكن الكاثوليك انتخبوا بطريركاً خاصاً بهم ، وأذعنوا للبابا فى روما ، ثم أنشأوا ثلاثاً وأربعين كنيسة لهم فى

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوى - الدولة العثمانية - جـ ٢ - ص ٧٤٠ ، ٧٤١

باشوية دمشق وغيرها بما فيها لبنان .

أما الأرمن فقد انقسموا إلى أرثوذكس وكاثوليك بعد أن كانوا حتى أوائل القرن السابع عشر من أتباع الكنيسة اليعقوبية ، ثم انشق بعضهمَ سنة ١٧٣٩ .

أما الموارنة فقد كانوا أهم طائفة نصرانية فى بلاد الشام ليس بسبب عددها ولا بسبب تكتلهم فى منطقة جبلية ، إنما بسبب الدور السياسى الذى شاركوا فيه ولعبوه فى تاريخ البلاد ، والدور القيادى فى تقرير مصير لبنان وتوجيه السياسة فيه [١] . ويفصل الدكتور / نقولا زيادة توزيع هذه الخلطة العجيبة من الطوائف على كثير من مناطق لبنان نوجزها فيما يلى : ـ

فقد غلب على منطقة عكار المسلمون السنة ، والروم الأرثوذكس ، وتُعد مناطق جبة بشرى ، وأهدن ، وزغرتا ، ووحدت الجبة كلها مارونية ، بينما الكورة يغلب عليها الأرثوذكس ، وجبل كسروان منطقة مارونية ، والمتن وإقليم الغرب فيها دروز وأرثوذكس ، وبعض الروم الكاثوليك ، كما يغلب الشيعة على جبل عامل ، وشمال البقاع ، أما الأجزاء الساحلية فى لبنان فقد تنوع فيها السكان ، وتعددت عقائدهم ومذاهبهم : ـ

فأكثر السكان فى صور من الشيعة ، بينما فى صيدا يقيم السنة والشيعة معاً ، وفى بيروت يوجد فيها من جميع الطوائف ، وفى الجبيل موارنة وشيعة ، وفى طرابلس أغلبهم من أهل السنة .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك طوائف دينية أخرى فى لبنان تقيم فى جهات مختلفة ولاسيما فى المدن وعلى الساحل مثل الطوائف الإنجيلية والأرمن والأرثوذكس والكاثوليك والبهائيين واللاتين والسريان والأرثوذكس والكاثوليك [٢] . . . إلخ

---

(١) د / عبد العزيز الشناوى ـ الدولة العثمانية ـ ص ٧٤٢ وما بعدها .

(٢) د / نقولا زيادة ـ أبعاد التاريخ اللبنانى الحديث ـ ص ١٢ .

نخلص من هذه التركيبة المعقدة بأن لبنان قد ضم العديد من الأديان والطوائف بعضها لا وجود له سوى فى لبنان خاصة وبلاد الشام بعامة مثل طوائف الدروز والإسماعيلية والسمرة والنصيرية (١) .

البعثات التنصيرية

قُدّر للبنان أن يكون من أكثر المناطق التى استقبلت بعثات تنصيرية وديرية عديدة طوال القرون الأربعة المنقضية ، وكان لها دور نشط فى حياة الأهالى فى المجال الدينى والثقافى ، بل واشتركوا فى الحياة السياسية وأثروا فيها بشكل مباشر وغير مباشر ، عندما ادعت بعض الدول الأوربية حمايتها كل لطائفة بعينها ،

ومن أهم البعثات كانت من طائفة اليسوعيين الذين وصلوا حلب فى سنة ١٦٢٥ م ، ثم توسعوا وأسسوا لهم أديرة فى دمشق سنة ١٦٤٣ ، وفى صيدا سنة ١٦٤٤ م ، وطرابلس سنة ١٦٤٤ م ، وأغلقت مؤسساتهم ثم عهد بها إلى الرهبان العازاريين سنة ١٧٧٣ م ومع ذلك فقد عاد اليسوعيون مرة ثانية سنة ١٨٢١ م إلى بلاد الشام فاستأنفوا نشاطهم المكثف بأوسع نطاق .

وممن وفد أيضاً من البعثات : الفرنشسكان الإيطاليون ، والفرير ، والكرمل ، هذا بالإضافة إلى وجود راهبات الناصرة ، وراهبات القديس يوسف ، والراهبات الكرمليات ، وراهبات قلب يسوع ، ومريم .

أما البعثات البروتستاتينية فقد تعاقب وصولها ابتداءاً من مطلع القرن التاسع عشر ، وقام أعضاؤها بإنشاء أول مركز لهم سنة ١٨٢٠ م فى بيروت ، وقد صاحب تعاقبهم فى هذه الفترة توجس المسلمين منهم ، وكذلك السلطات العثمانية حيث كانت تبدوا عليهم أمارات الريبة ، وظهور بوادر تسلل استعمارى غربى فى عباءتهم الدينية التى لبسوها .

---

(١) قساطلى (نعمان بن عبده بن يوسف الدمشقى) ـ حسر اللثام عن نكبات الشام ـ القاهرة ـ ١٨٩٥ ـ ص ٦،٥ .

ورأى فيهم الأرثوذكس والكاثوليك كذلك تهديداً خطيراً لكيانهم الدينى مما تسبب فى قيام مقاومة عنيفة لهؤلاء البروتستانت ، إلا أنهم استمروا فى ممارسة نشاطهم الذى امتد وشمل دمشق وحلب وحمص وحماه وجبال النصيرية ، وكانوا يعتمدون فى تحركاتهم على مساندة القناصل البريطانيين والأمريكيين [١] .

ويذكر أستاذنا الدكتور [٢]/ عبد العزيز الشناوى (رحمة الله عليه) : أن الهدف الأسمى لهذه البعثات التنصيرية لم يكن تنصير السكان ، بل كان لأعضائها أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية سعوا لتحقيقها لمصلحة الدول الأوربية التى بعثت بهم إلى الشام .

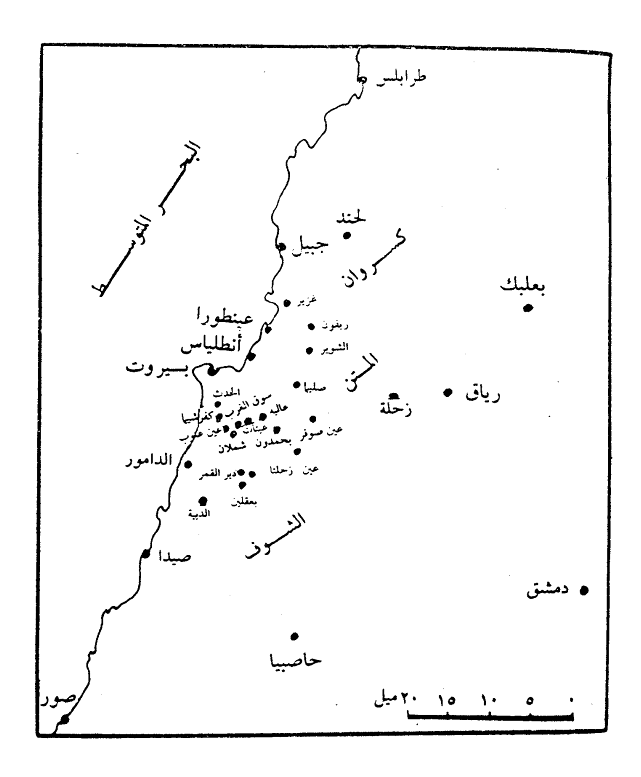
وقد جمع هؤلاء المنصرون عداوتهم للعرب المسلمين من جهة ، وعداوة أخرى نحو النصارى المخالفين لهم فى المذهب الذى يعتقدونه أو يتسترون خلفه ، وقد اتشحموا جميعاً وتحصنوا بالدول الاستعمارية الكبرى مستغلين كل الحصانات التى وفرتها لهم معاهدات الامتيازات الأجنبية التى كانت وبالاً على الدولة العثمانية ورعاياها [٣] .

• • •

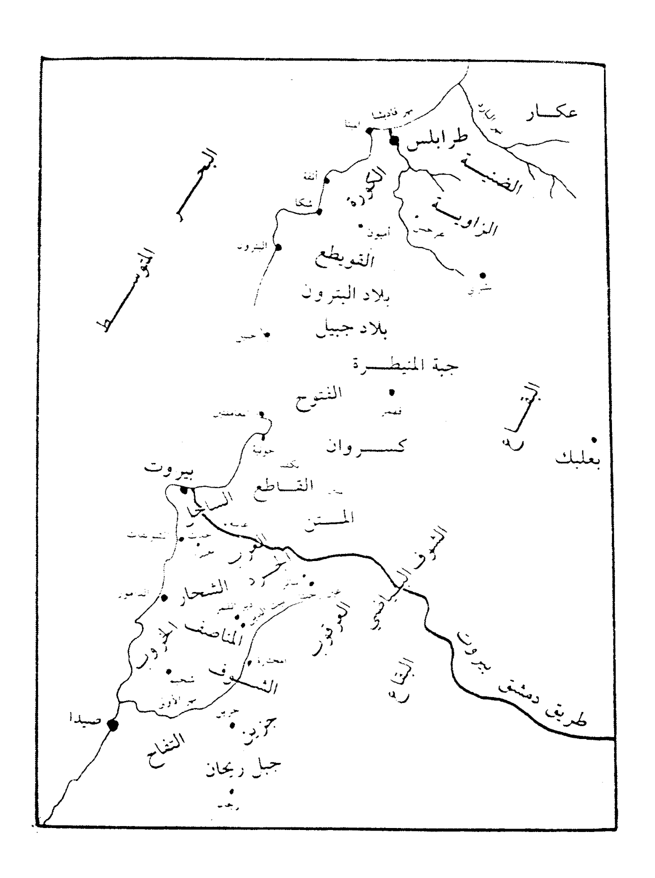
(١) د/ عبد العزيز الشناوى ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ـ ص ٧٤٥ .

(٢) الدولة العثمانية ـ جـ٢ ـ ص ٧٤٦ .

(٣) د/ مصطفى خالد وآخر ـ التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ط ٤ بيروت ١٩٧٠ م ص ٣٤ وما بعدها .



لبنان في عهد المعنيين والشهابيين



عكار
طرابلس
الضنية
الزاوية
الكورة
القويطع
بلاد البترون
بلاد جبيل
جبة المنيطرة
الفتوح
كسروان
البقاع
بعلبك
بيروت
القاطع
الساحل
المتن
الغرب
الجرد
الشحار
المناصف
الشوف البياضي
العرقوب
الشوف
البقاع
طريق دمشق بيروت
صيدا
جزين
التفاح
جبل ريحان
البحر المتوسط



الفصل الثالث

الأردن

ثالثا : الأردن

تشكل المملكة الأردنية جزءاً طبيعياً من بلاد الشام التى تمتد من جبال طوروس شمالاً إلى خليج العقبة جنوباً ، ومن حدود العراق شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً ، وتقع الأردن تحديداً جنوبى الشام على شرق نهر الأردن فتحدها سوريا من الشمال ، والعراق من الشرق وكذلك السعودية من الشرق الجنوبى بينما فى الغرب تقع أراضى فلسطين التى احتلتها إسرائيل .

وأهم مدن الأردن : عمان العاصمة ، وأربد ، وجرش ، وعجلون ، والكرك وهى مدن تاريخية أثرية ، ويقع بجوار الأخيرة مدينة مؤتة التى وقعت فيها أول غزوة بين المسلمين والروم ، وهناك أيضاً : معان ، والبتراء (وادى موسى) ، والعقبة (الميناء الوحيد على البحر الأحمر بعد اغتصاب إسرائيل لميناء حيفا) (١) ولشرق الأردن أهمية خاصة لوقوعها على الطريق الناقل لقافلة الحج الشامية ، الأمر الذى جعل الدولة العثمانية تعتنى بإقامة الحصون والقلاع على طول الطريق لتأمين سلامة الحجاج ، وازدادت أهمية شرق الأردن بعد أن تم مد خط سكة حديد الحجاز الحميدية من دمشق إلى المدينة المنورة ماراً بشرق الأردن من الشمال إلى الجنوب حتى يصل إلى الحجاز ، وافتتح هذا الخط سنة ١٩٠٨ م (٢) .

أما عن تاريخ الأردن الحديث فهو مرتبط بتاريخ الشام بشكل عام ، وعند دخول العثمانيين إلى بلاد الشام أصبحت الأردن متصرفية تابعة لولاية سورية التى كانت عاصمتها دمشق وقد سبق أن ذكرنا التقسيمات الإدارية التى شملت بلاد الشام ومنها بلاد الأردن التى تبعت بالتالى دمشق ، وشملت الصناجق أو الألوية : دمشق - القدس - غزة - نابلس الكرك - الشوبك - عجلون - صفر - بيروت - صيدا (٣)

(١) د/ محمد عبد الغنى سعودى - الوطن العربى - القاهرة - ١٩٦٦ - ص ٢٨٨ .
(٢) د/ محمود صالح منسي - الشرق العربى المعاصر - ق ١ - ص ٣٠٥ .
(٣) د/ نقولا زيادة - أبعاد التاريخ اللبنانى الحديث - ص ٣١ .

وقد تغير هذا التقسيم كثيراً فى العصر العثمانى ، أما فى عهد محمد على بالشام فقد خضعت البلاد الشامية لإبراهيم باشا كحاكم عام ، وقسمت البلاد الشامية إلى مديريات تولى إدارة كل منها مدير يساعده متسلم فى كل مدينة يعاونه على تدبير الأمور فيها ، كما أنشأ محمد على فى كل مدينة تجاوز عدد سكانها العشرين ألفاً : ديوان مشورة تراوح أعضاؤه بين ١٢ ، ٢١ عضواً روعى فيه عدد السكان المسلمين ، وعدد النصارى الذين يقطنون المدينة (١) .

نخلص من ذلك إلى أن إمارة شرقى الأردن لم يكن لها كيان مستقل محدود خاصة قبل سنة ١٩٢١ فى أى عهد من العهود فقد كان تابعاً لغيره من المناطق أو يشكل مع غيره دولة أو إقليماً ، فكان يتبع الحجاز حيناً ، وباشوية دمشق حيناً آخر ، وبعد دخول فيصل الشام انضمت إلى حكمه تحت إشراف الحاكم العسكرى البريطانى العام (٢)

وبقيام الثورة العربية بزعامة الشريف حسين فى الحجاز ضد العثمانيين سنة١٩١٦ وتحرك قوات الثورة (من الحجاز بعد إتمام تحريره) فى اتجاه الشام ، انضوت قبيلة الحويطات (التى تقطن شرق الأردن بزعامة شيخها عودة أبو تايه) تحت قيادة الأمير فيصل بن الحسين حيث أدركته فى منطقة الوجه ، وصاحبته فى الطريق إلى العقبة ثم الشام حيث شاركوا معه فى العمليات الحربية بالشام ضد القوات العثمانية .

عندما استقر فيصل فى مملكته الجديدة بدمشق شملت هذه المملكة بلاد الشام المترامية الأطراف بحدودها المعروفة من الحدود المصرية حتى الحدود التركية شملت من بين ممتلكاتها شرق الأردن (عمان والكرك) ، أما معان والعقبة فكانتا تحت السيطرة الحجازية .

(١) د/ نقولا زيادة - مرجع سابق - ص ٧٤ .

(٢) د/ عبد العزيز الشناوى - الدولة العثمانية - جـ ٢ - ص ٩٤٩ .

وضمت شرق الأردن ثلاثة ألوية هى : لواء الكرك وعاصمته الكرك (فى الجنوب) ، ولواء البلقاء وعاصمته السلط (فى الوسط) ، ولواء عجلون ، وعاصمته إربد (فى الشمال) ، وشكلت منطقة عمان وما حولها وحدة منفصلة عرفت باسم : محتفظة العاصمة وعندما فقد الأشراف الحجاز ، واستولى عليه الملك عبد العزيز آل سعود شكلت معان وحدة خامسة [١] .

وبعد خذلان الحلفاء لفيصل وإخراجه من الشام ثم انتداب فرنسا على كل من سوريا ولبنان ، استحوذت بريطانيا على كل من الأردن وفلسطين والعراق وجعلتهم تحت الانتداب البريطانى ، هذه الأمور والترتيبات التى وضعت فى مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠ م ، وأخذت الشرعية الدولية بموافقة عصبة الأمم عليها .

حنيئذ أسست بريطانيا إدارة فى شرق الأردن ، تُعد منفصلة نوعاً ما عن إدارة فلسطين ، إلا أنها تحت رئاسة المندوب السامى البريطانى فى فلسطين (اليهودى هربرت صمويل) وهذا بدوره عليه استخدام مجموعة من الضباط الإنجليز لإدارة شرق الأردن ، وتأسست بالتالى حكومات محلية يتزعمها أقوى شيوخ العشائر ، على أن تأتمر كل حكومة منها بإمرة ضابط انجليزى ، دون أن يكون لها أدنى صفة دولية ، ويقتصر عملها على الشئون المحلية الداخلية فقط [٢] .

فى الوقت نفسه كانت قد بدأت حركة مقاومة للفرنسيين بدأها جماعة من رجال الحركة العربية بجانب إخوانهم فى حوران ، وجبل الدروز ، الذين أثاروا وأقلقوا مضاجع الفرنسيين فاتجهوا لبريطانيا يطلبون منها العون لتهدئة الثائرين ، ولكن الثائرة زادت عندما جمع الأمير عبد الله بن الحسين قواته ، وانطلق من الحجاز إلى معان معلناً الثورة مُحفزاً الوطنيين بمنشوراته الحماسية [٣] .

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوى ـ الدولة العثمانية ـ ج ٢ ـ ص ٩٤٩ .

(٢) د/ محمود صالح منسى ـ الشرق العربى المعاصر ـ ق ١ ـ ص ٣٠٧ .

(٣) زكى المحاسنى ـ النهضة العربية الحديثة (الأردن) ـ القاهرة ـ (د ـ ت) ـ ص ٤٦٠ .

وبالفعل تدخل البريطانيون إزاء الثورة فى شرق الأردن تلك الثورة التى عضدتها ثورة عراقية أخرى ضد الانتداب البريطانى فى العراق ، وأصابت الثورة لأنها حملتهم أعباءاً باهظة فى الإنفاق على إخمادها وإدارة هذه البلاد ، ولذلك اضطرت بريطانيا إلى إنشاء إدارة للشرق الأوسط فى أوائل سنة ١٩٢١ ألحقتها بوزارة المستعمرات برئاسة ونستون تشرشل الذى عقد مؤتمر الشرق الأوسط ـ القاهرة والقدس ـ فى مارس ١٩٢١ م للتوصل إلى أفضل طريقة وأقلها تكلفة لإدارة هذه البلاد .

وتوصل المؤتمرون إلى فرض سيطرة المستعمرين (المنتدبين) بطريقة غير مباشرة بتسترهم خلف قيادة عربية تأتمر بأمرهم ، وبالتالى تهدىء من ثورة القادة العرب ، وكذلك الأهالى وبالفعل تقرر الاعتراف بعبد الله الهاشمى أميراً على شرق الأردن بحكومة وطنية يساعدها سبعة من المستشارين البريطانيين [١] .

وبذلك أحكم الإنجليز سيطرتهم السياسية بهؤلاء المستشارين الإنجليز بالإضافة إلى ما يستندون عليه من قوات عسكرية إضافة إلى إسناد قيادة الجيوش لضباط بريطانيين كما سنرى .

ومن جهة أخرى سمح للإرساليات التنصيرية أن تعمل بحرية فى منطقة شرق الأردن للتمكين بشتى السبل للاستعماريين ، ليس هذا فقط بل بدأت دول أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية فى دفع مجموعة من الإرساليات للعمل فى المنطقة ، وتوسيع عملها فى البلاد المحيطة

من هذه الإرساليات : واحدة كانت تعمل من مركزها فى نيويورك أرسلت مجموعة على رأسها المنصر سمالى وزميله جورج بريدين فى العشرينات من القرن العشرين وجعلا مركزهما الرئيسى فى مدينة معان بالأردن ، وافتتحوا لهم مراكز

---

(١) د / محمود صالح منسى ـ الشرق العربى المعاصر ـ ق ١ ـ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ . وانظر : د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب الحديث ـ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

أخرى فى مدن : مدبه ، والكرك ، حيث عملوا بحرية تامة فى محاولة منهم لتنصير أبناء المنطقة (١) .

وأمام إلحاح الأردنيين وعلى رأسهم أميرهم / عبد الله طلباً للاستقلال الفعلى أخذت سلطات الانتداب البريطانى تماطل فى ردودها المطاطية ، وتلقى للأردنيين كل حين بفتات ذرا للرماد فى العيون ، وعلى طريقة الإنجليز فى البداية : الظروف غير مواتية لاستقلال الأردن ديسمبر سنة ١٩٢٢ ، ثم وعد بالاستقلال فى مايو سنة ١٩٢٣ على لسان هربرت صموئيل ، وعلى إثر الثورة عقدت معاهدة ١٩٢٨ بين الأردنيين والبريطانيين تنازلت فيها بريطانيا عن السلطتين التنفيذية والتشريعية ، وفى يونيو ١٩٣٤ أبرمت معاهدة أخرى بين الطرفين نصت على نقل الأردن من حكم الانتداب إلى الحكم المستقل على أن يبقى الجيش تحت السيطرة الانجليزية .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية التى شاركت فيها الأردن بجانب الحلفاء ، وافقت بريطانيا على إنهاء انتدابها والاعتراف باستقلال الأردن مع بقاء سيطرتها على المالية والأمن والجيش ، وذلك فى معاهدة الصداقة والتحالف مارس ١٩٤٦م(٢) .

وعندما استفحلت المشكلة العربية مع اليهود وانتقالها إلى الميدان الدولى ، بادرت الأمم المتحدة بإقرار تقسيم فلسطين فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ بتأييد كل من بريطانيا واليهود ، ورفضه العرب ماعدا الملك عبد الله (٣) الذى شارك فى محادثات سرية مع اليهود بهذا الخصوصى وأظهر فيها تأييده للتقسيم ، ومحاولاً

---

(١) الوثائق الأمريكية وثائق وزارة الخارجية . see 390 f `` 11630 for 1642 from jerusalem to heizer dated feb 13.1928

(٢) د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب الحديث ـ ص ١٦٣ وما بعدها .

(٣) aqil hyder , hasan abidi : jordan apolitical study 1948 - 1957 , india 1965 . p 25

إقامة علاقات ودية بين العرب واليهود فى اجتماعات ومفاوضات مستمرة قبل وبعد إعلان قيام دولة إسرائيل .

وعندما انفجرت حرب ١٩٤٨ بين العرب واليهود كان إصرار الملك عبد الله على قيادته للجيوش العربية حيث انتهت هذه الحرب بنكبة كبيرة فى بداية سنة ١٩٤٩ م شُرِد على إثرها أصحاب البلاد [١] ، وانتقلت القضية الفلسطينية برمتها من على التراب الفلسطينى إلى أدراج وأرقام باهته لالون لها ولا طعم فى الأمم المتحدة .

انتهت حرب ١٩٤٨ بمآسيها ومخازيها ، وبقادتها الإنجليز عند الطرفين العربى واليهودى [٢] وعرضت جامعة الدول العربية مشروع حكم المناطق الفلسطينية التى سيطرت عليها الجيوش العربية بحكومة عربية ، إلا أن الملك عبد الله بمؤازرة الإنجليز رفض ذلك مُصراً على توحيد الأراضى الأردنية مع البقايا الفلسطينية [٣] ، وعارض كذلك ما اقترحته الجامعة بشأن تدويل مدينة القدس رغم إقراره من عصبة الأمم .

وتم بالفعل دمج الجهتين عام ١٩٥٠ فى كيان واحد ، وحل مجلس النواب الأردنى مع انتخاب جديد على مستوى الضفتين الشرقية (الأردنى) ، والغربية (الفلسطينية) ، مع اعتراف بريطانى بهذا الوضع الجديد والغريب فى الوقت نفسه .

---

(١) ibid ., P . 3826 .

(٢) فقد كان قائد الفليق العربى الأردنى هو جلوب gioff الإنجليزى الذى تخلى عن الله والرحلة عن عمد لليهود ، وقد ظل فى خدمة ملوك الأردن كقائد للجيش حتى عزله الملك حسين عام ١٩٥٦ بعد أربع سنوات من حكمه :

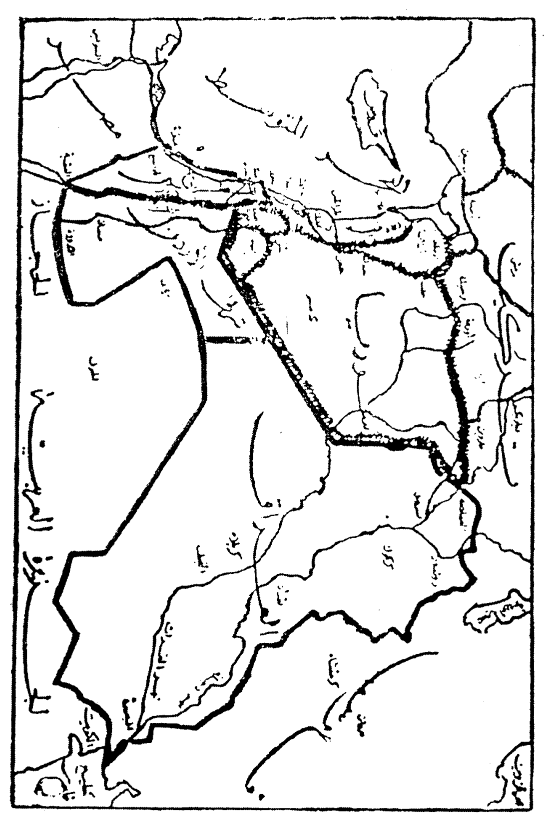
ـ انظر : A qil Hgder gassan Afidi : Joron, P . 134

(٣) لم يكن حكم الملك عبد الله يتوقف عند ضمه لأجزاء فلسطين بل كان يسعى منذ تولى حكم شرق الأردن فى قيام دولة كبرى يحكمها هو تشمل فلسطين والأردن وسوريا فى الوقت الذى كان أخوه فيصل بالعراق يطمع فى ضم سوريا إلى حكمه

وفي يوم الجمعة ٢٠ من يوليو عام ١٩٥١ وأثناء دخول الملك عبد الله لصلاة الجمعة فى المسجد الأقصى تمكن أحد أعضاء جماعة الجهاد المقدس (التابعين لأمين الحسينى (مفتى فلسطين) من اغتياله ، وحكم على ستة ممن اتهموا بالإعدام كان من بينهم عبد الله التل (حاكم القدس السابق) الذى فرّ إلى مصر [١] .

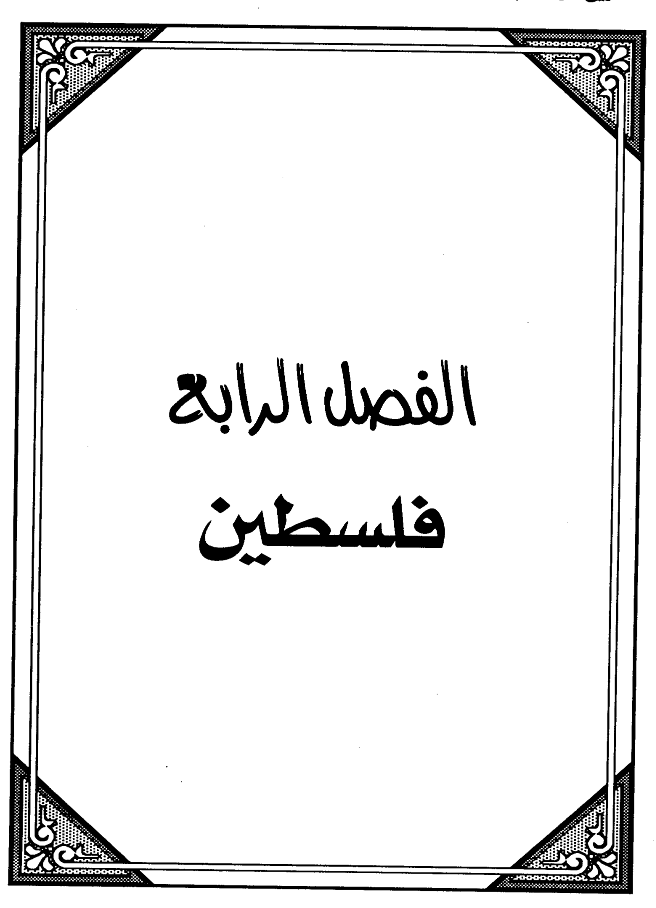
• • •

(١) د / زاهية قدوره - تاريخ العرب الحديث - ص ١٦٦ ، ١٦٧



مناطق الانتداب البريطاني والفرنسي





الفصل الرابع

فلسطين

رابعاً : فلسطين

تعتبر فلسطين واحدة من أجزاء الوطن العربى الذى مرت عليه ، واستقرت فيه كثير من الدول والحضارات التى تعاقبت على مر التاريخ ، وأصبحت هذه البلاد قبل ٢٥٠٠ ق . م موطناً للشعوب السامية المهاجرة من شبه الجزيرة العربية (١) ، وباتت فلسطين تمثل سوريا الجنوبية ، دون انفصال عنها .

وفى سنة ٥٠٠ ق . م نزح العبرانيون مع غيرهم من الشعوب السامية إلى جنوب العراق مهاجرين أيضاً من شبه الجزيرة العربية ، ثم انطلقوا إلى سوريا التى لم يستقروا بها لصفاتهم الخسيسة حيث طردهم الكنعانيون فنزلوا مصر ، وأخرجهم منها نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ حيث اتجهوا عبر سيناء إلى أرض فلسطين (كنعان) ، ولم يدخلها موسى لأنه توفى فى الطريق قبيل القدس .

وفى سنة ١٣٠٠ ق . م نزح شعب يدعى الفلسطينيون من بحر إيجه استقر على الساحل الكنعانى (جنوب سوريا) ، وأخذت أرض كنعان اسم فلسطين من هذا الشعب المهاجر .

ومع ذلك فرغم إقامتهم قليلة الأثر فى أرض كنعان (فلسطين) فقد حدث لهم أكثر من شتات أعظمه البابلى الأول والثانى ، وقُطع دابرهم من فلسطين ، وآخر شتاتهم كان فى الحرب الصليبية فى القرن الحادى عشر الميلادى عندما دخل الصليبيون بيت المقدس والمدن الفلسطينية الأخرى فإنهم قد عمدوا إلى مساكن وحارات اليهود ، ولم يبقوا بها يهودياً واحداً على قيد الحياة ، خاصة بعد أن جمعوهم فى الكنيس الخاص بهم ، وأضرموا فيه النيران بمن فيه من اليهود (٢) .

(١) الكنعانيون الذين تفرع منهم الفينيقيون ، وعاشوا على طول الساحل السورى ، واشتهرت حضارتهم فى حيفا وعكا

(٢) د/ سعد بدير الحلوانى ـ اليهود فى الحروب الصليبية وموقف صلاح الدين منهم ـ ص ١٤ .

وقد زار الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى فلسطين سنة ١١٧٣ م وسجل ضمن مشاهداته : أنه رأى المدن الفلسطينية تكاد تخلوا تماماً من اليهود [١] .

وفى العصر العثمانى اتخذ اليهود العالم الإسلامى خاصة البلاد العثمانية مأوى لهم وأماناً مستغلين روح التسامح الإسلامية بعيداً عن الاضطهاد الذى لاقوه فى أوروبا ، وخاصة ما لاقاه يهود أسبانيا السفارديم بعد طردهم منها سنة ١٤٩٢ م [٢] .

ومع ذلك فقد ظلت أعدادهم بسيطة بجانب أعداد العرب طوال العصر العثمانى وحتى بدايات القرن العشرين ، فنجد أنهم لم يتعدوا الخمسة آلاف فى أثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٩ م) مقابل ثلاثمائة ألف عربى بنسبة ٢٪ من مجموع سكان فلسطين ، ولم يتجاوز عددهم العشرين ألفاً سنة ١٨٨٠ م ، وفى سنة ١٩١٨ م بلغ عددهم ستة وخمسون ألفاً فى مقابل ثلاثة أرباع المليون من العرب أى بنسبة ١٠٪ فقط [٣] .

الصهيونية العالمية وفلسطين :

تنسب الصهيونية Zionism إلى صهيون ، وهو أحد التلال (الجبال) التى تقوم عليها مدينة القدس منذ آلاف السنين حيث إنه اسم كنعانى ورد ذكره فى التوراة والإنجيل ، استخدمه مفكروا اليهود لإثارة الشعور الدينى والعنصرى فى يهود العالم ، وركزوا دعايتهم هذه القرن التاسع عشر (قرن الاستعمار الأوروبى) حيث إن هذه الفكرة قد تربّت على فراش الاستعمار الأوروبى .

وبناء على ما انتشر فى أوروبا من الدعوة إلى فكرة القوميات أخذ بعض

---

(١) المرجع السابق - ص ١٥ .

(٢) Yale . William : The Near East . London 1958 p.145

(٣) Government of Palesine , Statisticat Abstract Palestin 1941 , P 12 .

المفكرين اليهود يطبقون هذه الفكرة أمثال : الحاخام يهوذا القالى (١٧٩٨ ـ ١٨٧٨)، الذى نشر كتابه : « اسمعى يا إسرائيل » فألف كتابه «الدولة اليهودية » : Derjudenstaat سنة ١٨٩٦ دعا فيه لإقامة دولة يهودية ذات سيادة دون تحديد للأرض التى يريدها ، وترك لليهود حرية اختيارها [١] مع تفضيله لفلسطين ، ومن أجل ذلك دعا إلى عقد مؤتمر صهيونى عالمى ، وبالفعل انعقد فى بازل بسويسرا ٣١ أغسطس سنة ١٨٩٧ ، وخرج بقرارات عملية لإنشاء وطن قوى حى للشعب اليهودى ، منها إنشاء مؤسسات مصرفية مكاتب لتنفيذ المآرب الصهيونية ، وبذل جهوداً خارقة للاتصال بالسلطان عبد الحميد الثانى [٢] ، ونجح بالفعل فى مقابلته ثلاث مرات إلا أنه فشل فى إقناعه للسماح بهجرة بعض اليهود إلى فلسطين فى مقابل تسديد اليهود للديون العامة للدولة العثمانية [٣] ، ويقال أن اليهود حاولوا رشوة السلطان بمبلغ مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً [٤] وبفشل هرتزل مع العثمانيين اتجه بأفكاره ومحاولاته إلى الدول الإستعمارية الأوروبية ليحصل على تأييد دولى لأفكاره فى فلسطين .

وفشل أيضاً هرتزل مع إمبراطور ألمانيا ولهلم ، وكذلك مع فرنسا ، وبريطانيا ، ولذلك اقترح فيه إقامة مستعمرات يهودية فى فلسطين ، وبعد وفاته ١٨٧٨ فى فلسطين استطاع مجموعة من أتباعه شراء قطعة أرض ، وأنشأوا عليها مستعمرة

---

(١) Taylor , A : op . Cit , p . 3 - 4 .

(٢) تولى عبد الحميد الثانى السلطة العثمانية فى ١٢ من شعبان سنة ١٨٧٦ م ، وتم خلعه منها فى سنة ١٩٠٩ م .

ـ انظر : دار الوثائق القومية ـ وثيقة رقم ١٤٠ ـ دفتر ٣١ عابدين ـ صادر ص ٢٥ تلغرافات ـ إرادة سنية إلى محافظ العريش ـ ١٣ من شعبان سنة ١٢٩٣ هـ.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ـ ترجمة / محمد حرب عبد الحميد ـ دار الأنصار القاهرة ـ ١٩٧٨ ـ ص ٦٥

(٤) جريدة الأهرام ـ السنة ١٢٢ ـ العدد ٤٠٦٨٩ ـ ٢ مايو سنة ١٩٩٨ م .

زراعية لليهود هى مستعمرة : « تباح تكفا » وبعدها ظهرت مؤلفات مفكريهم تدعو إلى فكرة الاستيطان مثل موسى هس (١٨١٢ ـ ١٩٨٥) Moses Hass فى كتابه « روما والقدس » وكاليشر فى كتابه : « السعى إلى صهيون » نشر سنة ١٨٦٢ ، وبنسكر Leon Pinsicer (١٨٢١ ـ ١٨٩١) فى كتابه : التحرير الذاتى ، وكان له دور فى توحيد الجمعيات اليهودية فى حركة واحدة سميت : « أحباء صهيون » سنة ١٨٨٧ م وقد حاولت الجمعيات اليهودية ولاسيما جمعية البيلو Bilus الحصول على ترخيص من الدولة العثمانية لشراء الأراضى فى فلسطين لإقامة مستعمرات يهودية عليها ، ولكن العثمانيون وعوا خطورة الأفكار اليهودية فأصدروا فى سنة ١٨٨٢ قانوناً يمنع اليهود من الاستيطان فى فلسطين [١] .

وفى أواخر القرن التاسع عشر ظهر على الساحة الدولية الزعيم الصهيوني الذى أسس المنظمة الصهيونية العالمية وهو تيودور هرتزل Thaodor Herzel (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) الذى ولدفى بودابست وعمل بالصحافة فى فرنسا وفيها عاصر محاكمة در يفوس اليهودى ، وتأثر بها فبدأ يعرض أفكار وبدائل أخرى على بريطانيا فاقترح على جوريف تشمبرلين Joseph chamberlainوزير المستعمرات أن يسمح لليهود بالاستيطان فى جزيرة قبرص إلا أنه رفض هذا الطلب، ورفضت بريطانيا طلباً آخر لاستيطانهم فى العريش [٢] .

وبالنسبة للعريش بخاصة وسيناء بعامة فقد اتجهت بعثة يهودية بالفعل أوائل عام ١٩٠٣ إلى سيناء وانتهت فى مارس من العام نفسه إلى أن المنطقة صالحة للاستعمار ، وأوصت بأن تكون العريش بداية المشروع الاستيطانى بشرط أن يُسمح

---

(١) د/ إسماعيل أحمد باغى ـ الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ـ دار المريخ ـ القاهرة ـ ص ٣٦ وما بعدها.

ـ وانظر: Taylor, Allon . Prelude to Israel London . 1967 p . p 3-2

(٢) Taylor , A . PRELUDE TO I SRAEL , P.8.

لليهود بجلب الماء العذب من نهر النيل ، ولما رفض كرومر توصيل المياه أهمل المشروع ككل .

ومحاولة أخرى قام بها المغامر اليهودى بول فريدمان الذى كان يبحث عن منطقة قليلة السكان لإعدادها مسرحاً لدولة يهودية ، ووقع اختياره على أرض مدينة سيناء إلا أنه هو الآخر قد باءت محاولاته بالفشل [١] .

وبفشل مشروع العريش عرضت إنجلترا على هرتزل بديلاً آخر وهو أوغندا وافق عليه هرتزل ولكن زعماء الصهيونية انقسموا إلى معارضين وموافقين ، وبوفاة هرتزل عام ١٩٠٤ ، ومعارضة وايزمان (الزعيم التالى لهرتزل الذى تمكن من وعد بالفور عام١٩١٧ م تم إسقاط المشروع من حسابات اليهود الصهانية .

وينص وعد بلفور المشئوم (نوفمبر ١٩١٧) على ما يلى :

« أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يفهم جلياً ، أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ، ولا الحقوق والوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى » [٢] . **طبعاً هذا الوعد على طريقة من لا يملك يُعطى لمن لا يستحق .**

التنفيذ العملى لوعد بالفور :

فى ١١ ديسمبر عام ١٩١٧ دخلت الجيوش البريطانية القدس بقيادة الجنرال اللنبى Allenby الذى أعلن الأحكام العسكرية ، وبالتالى شكل إدارة عسكرية

---

(١) د/ سعد بدير الحلوانى ـ العلاقات ـ ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٢) Hurewitz , J. C : Diplomacy in the near and Middle East . L ondon 1962 , vol .2.p26

سيطر عليها عناصر يهودية ، وقرر مجلس الحلفاء المنعقد فى سان ريمو (٢٥ إبريل عام ١٩٢٠) وضع فلسطين تحت الانتداب وبالفعل عينت إدارة مدنية لإدارتها تحت قيادة أحد زعماء الصهاينة الإنجليز هو : هربرت صموئيل Herbert Samual ، ومن يومها أخذت بريطانيا على نفسها مهمة تجهيز فلسطين لتكون وطنا قومياً لليهود بشتى السبل ، سواء فى ذلك بتسهيل الهجرة اليهودية ، وتسهيل الاستيطان ، والتمكين لهم بتولى المناصب ، وتسهيل تسليحهم ، حتى إذا ترك الإنجليز البلاد تكون السيطرة لليهود على حساب الفلسطينيين العرب .

كما تم إحياء اللغة العبرية التى ظلت من اللغات الميتة طوال العصر العثمانى . وقد جاء فى المادة الثانية والعشرين من صك الانتداب البريطانى على فلسطين ما يلى نصه : « تكون الإنجليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين ، وكل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تكرر بالعربية » وظل هذا الحال حتى قامت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ م حينئذ أصبحت اللغة العبرية هى اللغة الرسمية للدولة الجديدة [١] .

المقاومة الفلسطينية للإنجليز واليهود:

شهدت الفترة الواقعة بين إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ ، وإعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ م عقد مؤتمرات مثل مؤتمر الشباب ، ومؤتمر اللجنة التنفيذية ، والمؤتمر النسائى ، والمؤتمر الوطنى [٢] ، ومظاهرات ، واضطرابات ، وكذلك إصدار بيانات واحتجاجات وبعض الانتفاضات التى ذهبت جميعها إدراج الرياح ، كما تكونت أحزاب كحزب الاستقلال العربى عام ١٩٣٢ ، وحزب الدفاع الوطنى عام ١٩٣٤ ، والحزب العربى الفلسطينى عام ١٩٣٥ ، وحزب الإصلاح عام ١٩٣٥ . . . . الخ ،

(١) الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين - المجموعة الأولى (١٩١٥ - ١٩٤٦) - جامعة الدول العربية - إدارة فلسطين - الشعبة السياسية - القاهرة - ١٩٥٧ م - ص ١٢٨ وما بعدها .

(٢) وثائق المقاومة الفلسطينية العربية - مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت - ١٩٦٨ - ص ٣٠٥ - ٢١٧

وحدثت فى عام ١٩٣٣ انتفاضة فلسطينية راح ضحيتها ٢٦ شهيداً و ١٨٧ جريحاً فلسطينياً ، وقتل وجرح ٥٦ من رجال البوليس ، على أثر انعقاد المؤتمر الوطنى الكبير الذى أعلن فيه مقاطعة البضائع الإنجليزية واليهودية (١) واستمرت حالة الهيجان والفوران حتى ظهرت حركة الشيخ عز الدين القسام التى سنفرد لها الحديث التالى :

الشيخ عز الدين القسام :

يعد الشيخ عز الدين القسام واحد من أبرز رجال المقاومة الوطنية الإسلامية فى القرن العشرين ، وكان له أكبر الأثر فى إذكاء وإشعال ثورة إسلامية على الغاصبين من اليهود ، ومن يحمونهم بعد أن كان الثبات ما زال مسيطراً على الغالبية من الناس الذين اكتفوا بمظاهر المؤتمرات والهتافات والاحتجاجات ، وإن زادت فتكون المظاهرات والاضطرابات .

وقد ولد الشيخ القسام فى بلدة جبلة التابعة لقضاء اللازقية عام ١٨٧١ م فهو سورى الأصل ونشأ نشأة علمية أدبية ، حيث بعثه أبوه (بعد الإبتدائية) لتلقى العلوم الدينية والدنيوية بالأزهر الشريف بمصر ، فأخذ العلم ورجاحة العقل عن الشيخ الإمام محمد عبده ، وبعد عدة سنوات عاد إلى بلده ، وعكف على التدريس بمسجد السلطان إبراهيم بن أدهم ، وأخذ يبث فكر الجهاد فى نفوس تلاميذه ، ثم اتجه للمجال العلمى لما يقول ، وانضم إلى جماعة عمر البيطار فى جبل صهيون ، ثم مع صالح العلى فى ثورته ضد الفرنسيين بشمال سوريا (١٩٢٠ ـ ١٩٢١) حتى حُكم عليه بالإعدام فلجأ إلى حيفا فى فبراير ١٩٢٢ ، وعاش فيها مدرساً بجامع النصر ، وجامع الاستقلال ، كما أسس مدرسة ليلية لتعليم وتبصير الأميين .

وفى عام ١٩٢٦ تولى الشيخ رئاسة جمعية الشبان المسلمين بعد أن شارك فى

(١) وثائق المقاومة الفلسطينية ـ ص ٣١٨ ـ ٣٢٠ .

أعمالها فترة وعمل على توسعة علاقته بالناس ، حتى اهتدى إلى تكوين سرية وتبرع لها بكل ما يملك ، ومنذ عام ١٩٢٩ عمل مأذوناً شرعياً فاختلط أكثر بالناس وبدأ ينتقى رجاله فى كتمان شديد برع فيه ، وأخذ يُعد رجاله لحمل أمانة الجهاد ضد المعتدين المغتصبين ، فاستطاع بذلك أن يضع نواة من عرب فلسطين لتحمل مسئولية الثورة دربهم فى رحلات ليلية بعيداً عن أعين أعدائه ، ودرّبهم تدريبات روحية فاكتمل فى أصحابه العقيدة الصحيحة وحب الوطن .

قسم القسام رجاله إلى خمس لجان بتنظيم دقيق وهى : لجنة الدعوة (الإعلام)، ولجنة التدريب العسكرى ، ولجنة التوعية ، ولجنة الرصد ، ولجنة الشئون الخارجية .

ثورة القسام (الشرارة الأولى للمقاومة) :

نظراً لاقتصاد نشاط القسام على شمال فلسطين ، فقد أرسل مندوباً من طرفه إلى الحاج / أمين الحسينى فى جنوب فلسطين للاتفاق معه على توحيد الكلمة ، وإعلان الثورة فى وقت واحد ، ولكن المفتى (الحسينى) ـ كان على ما يبدو ما زال عالقاً بالحل السلمى والسياسى فردّ : بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ، وأن الجهود السياسية المبذولة تكفى لحصول عرب فلسطين على حقوقهم ، ولذلك يعتبر القسام أسبق الزعامات الفلسطينية فى خوض مجال ضد الصهاينة .

وإزاء الاستفزازات الصهيونية المستمرة كانت حركة القسام هى بداية الشرارة الأولى للثورة عندما اشتبكت دورية حكومية إنجليزية فى ١٤ من نوفمبر ١٩٣٥ مع عدد من رجال القسام فى بلدة يعبد ، ولقى أحد الجنود الإنجليز حتفه ، مما يجعل سلطات الاحتلال تسارع بإرسال قوات ضخمة إلى المنطقة للقضاء على الثوار ، وحدثت المعركة الغير متكافئة عند قرية الشيخ زايد ، استشهد فيها الشيخ القائد مع نفر من رجاله ، ضارباً للجميع المثل الأعلى فى البطولة والفداء رافضاً الاستسلام ،

ومن يومها يوم تشييع جنازته التى شاركت فيها أعداد مهولة سارت مسافة عشرة كيلو مترات شُحنت فيها نفوس رجال بواسل حملوا الراية من بعده واعتبروا استشهاده قبس أشعل نيران الثورة الفلسطينية الكبرى .

ولذلك نلاحظ أنه بعد شهور قليلة ظهرت الآثار فى ثورة استمرت من (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) كانت بدايتها قيام المتظاهرين الفلسطينيين بقتل سبعة من اليهود ، وجرح تسع وعشرين منهم ، ثم نظمت المقاومة على طريقة حرب العصابات المسلحة فى الشوارع ، قادها عدد من رجال وأتباع القسام واضطرت بريطانيا على أعقابها أن تنقل قوات إضافية من مصر إلى فلسطين ، ولولا تدخل الزعماء العرب بعد أن وجهوا نداءا إلى ثوار فلسطين لوقف عملياتهم لكان لهم شأن آخر صحيح أن العمليات استؤنفت ولكن ثبط النداء جزءاً كبيراً من عزيمة الكثيرين ، وكان ذلك فى صالح المغتصبين .

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية انتقل الثقل اليهودى من بريطانيا إلى أمريكا حيث عرف اليهود إلى أى صوب يوجهون دفة سفينتهم ، بعد أن عقدوا مؤتمراً لهم فى فندق بلتيمور بالولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة من ٩ : ١١ مايو عام ١٩٤٢ م ، وخرج المؤتمر بثمان قرارات اعتبرت البرنامج الرسمى للحركة الصهيونية ، وبات رؤساء أمريكا من يومها يستبقون فى إرضاء اليهود بالقرارات والإجراءات التى تمكن لهم ، وكذلك فعلت الهيئات السياسية الأمريكية [١] ، الأمر الذى جعل الصهاينة ينقلبون على أمهم بريطانيا بعد أن تكونت المنظمات الإرهابية

(١) كما أرسلت الهيئات الدينية الأمريكية بعثات تنصيرية عملت فى فلسطين ونشطت منذ العشرينات من القرن العشرين ، فافتتحت لها دوراً ، وأقامت كنائس فى حبرون ، وبيت جالا ، وعين كارم كان يديرها مركز للإرسالية التنصيرية فى بيت المقدس ، وهذا المركز كان يهدد البلاد المحيطة بأعماله ويحاول إرسال بعض العناصر إليها نظراً لسهولة عبور الحدود بين الدول العربية المختلفة .

ـ انظر : الوثائق الأمريكية : وثائق وزارة الخارجية : see 390f- 11630 for 1642 from jerusalem Heizer , Dated Feb 13-1928

الصهيونية مثل : الهاجانا ، وشتيرن ، وأرجون زفاى ليومى ، وقامت بعمليات إرهابية للكثير من المصالح البريطانية بعد أن اطمأنوا إلى وقوف كل الهيئات الأمريكية بجانبهم ، الأمر الذى شجع اليهود إلى اتخاذ كل التدابير لإعلان دولتهم المشئومة فى فلسطين وبالفعل تم إعلانها فى اليوم نفسه الذى أعلنت فيه بريطانيا انتهاء انتدابها على فلسطين ١٤ مايو ١٩٤٨ م (١) .



(١) انظر تفاصيل ذلك فى :
وثائق المقاومة الفلسطينية - ص ٣١٨ وما بعدها .
و : مذكرات مفتى فلسطين - جريدة أخبار اليوم المصرية - الأعداد ٥/ ١٠/ ١٩٥٧ ، ١٢/ ١٠
و : عبد الله التل - كارثة فلسطين - القاهرة - ١٩٥٩ - ص ٥٠ وما بعدها .
و : د/ إسماعيل باعى - الجذور التاريخية - ص ١٠١ وما بعدها .



الباب الثانى

وادى النيل العربى

الفصل الخامس : مصـــــر

الفصل السادس : الســـودان





الفصل الخامس

مصـــر

مصـــر

كان من الواضح بجلاء أن سليم قد سئم قتال المسلمين ، ولا سيما بعد موقعة مرج دابق فى الشام عام ١٥١٦ م ، ولذلك فقد بادر بإرسال كتابه إلى طومان باى (نائب الغيبة فى مصر) يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بالسيادة العثمانية ، ورغم موافقة طومان باى إلا أن المماليك قد قطعوا عليه الطريق ، وقتلوا الرسل مصممين بذلك على القتال ، مما عجل بتجدد الحرب ، وانطلاق سليم صوب مصر ممتشقاً الحُسام .

والتقى سليم بمقدمة الجيش المملوكى عند غزة حيث كان الأخير هدفاً سهلاً ، وتقدم سليم أيضاً إلى القاهرة فهزم المماليك فى الريدانية (يناير ١٥١٧م) بعد مقاومة عنيفة من طومان باى ورجاله تمكن العثمانيون من دخول القاهرة ، فاضطر طومان باى للتخفى عند صديقه حسن بن مرعى شيخ عربان مديرية البحرية الذى سلمه للسلطان سليم فشنقه على باب زويله (إبريل ١٥١٧) [١] ، وطويت بذلك صفحة دولة المماليك لتختفى من خريطة السياسة الدولية ، وتنتقل من مسرح التاريخ إلى كتبه .

كما ترتب على سقوط مصرفى أيدى العثمانيين نتائج مازالت تعانى منها إلى يومنا هذا ، فقد أصبحت مصر نهباً مباحاً للوالى العثمانى ، ومن معه من حامية عثمانية بالإضافة إلى عسف وجور بكوات المماليك الذين ظلوا فى صراعهم فيما بينهم ، مع العثمانيين كذلك ذاق الأهالى خلاله الأهوال وضاعت أرزاقهم التى

---

(١) ابن إياس (محمد بن احمد) - بدائع الزهور فى وقائع الدهور - ط بولاق الأولى - ج ٣ - القاهرة - ١٣١١ هـ - ص ٤٥ وما بعدها .

وبن زنبل (أحمد الرمال) آخرة المماليك - تحقيق / عبد المنعم عامر - القاهرة - ١٩٦٢ م - ص ٥ وما بعدها وانظر : د/ السيد محمد الدقن - مرجع سابق - ص ٤٥ وما بعدها .

استباحوها .

وعمد سليم إلى نقل أصحاب الصنائع المختلفة إلى استانبول الذين عاشوا فيها مدة حياته ، وتعطلت بسبب ذلك أكثر من خمسين حرفة (صنعة) توقفت فى مصر بسبب نقله الصناع المهرة ، ولكنهم عادوا بعد وفاته ـ أى أنهم ظلوا هناك ثلاث سنوات تقريباً ثم عادوا فى بداية عهد سليمان القانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) [١] .

كما أن مصر قد خضعت خضوعاً تاما للحكم العثمانى الذى فصم عرى الوحدة بين الشقيقتين مصر وبلاد الشام ، ونقل الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى إسلامبول ، وتحولت مصر من دولة مستقلة مترامية الأطراف إلى ولاية عثمانية [٢] لا يربطها بالدولة الحاكمة سوى الوشيجة الدينية ، وما تغله أرض مصر من خيرات وُزعت على كل من هب ودب من العثمانيين فضلاً عن الويركو الذى كانت تدفعه مصر سنوياً للسلطان ناهيك عن تحمل فقراء البلدين (مصر والشام) لنفقات الحامية العثمانية وأعمالها نهباً وسلباً لشعب بات أعزل ، ولا حول له ولا قوة .

ويضاف إلى ما تقدم انكماش الحركة الفكرية والتعليمية اللهم إلا ما قام به الأزهر الشامخ من جهد مستميت للحفاظ على اللغة العربية ، ومحاولة رجاله وعلمائه الزود عن الأهالى مظالم العثمانيين والمماليك مجتمعين بفضل التحام علماء الأزهر مع جماهير الشعب ، على الرغم من أن الأزهر كان يؤدى هذا الدور فى جو جد صعب للغاية .

وبرز دور علماء الأزهر فى مجالين :

الأول : أنهم قد اضطلعوا بحمل مسئولية المعارضة ضد كل ما يمس مصالح

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوى ـ الدولة العثمانية ـ دولة إسلامية مفترى عليها ـ ج ٢ ـ ص ٦٩٥ .

(٢) د/ مصطفى محمد رمضان ـ تاريخ الحركة الوطنية وجذور النضال المصرى ـ ١٩٨٥ ـ القاهرة ـ ص١

الشعب فى الديوان العثمانى الذى كانوا ممثلين فيه كأعضاء بحكم مكانتهم المرموقة لدى الشعب .

الثانى : أنهم كانوا على رأس الحركات الثورية الشعبية التى تولوا قيادتها وتنظيمها ضد الحكام العثمانيين والمماليك (١) .

وقد ظل هذا التخبط العثمانى فى مصر حتى فوجىء الجميع عثمانيون ومماليك ومصريون بزلزال الحملة الفرنسية ١٧٩٨ م التى أحس الجميع بأنهم كانوا قبلها فى سبات عميق .

الحملة الفرنسية على مصر والشام :

تُعد الحملة الفرنسية حلقة من حلقات الصراع النصرانى الأوربى مع الشرق الإسلامى ، بل هى امتداد بلا شك للحروب الصليبية فى ثوب جديد ، مع تسليمنا بالخلاف الوقتى فيما بين انجلترا وفرنسا أرادت من خلاله الأخيرة قطع مواصلات انجلترا إلى دُرّة مستعمراتها (الهند) .

إذا لم تكن الحملة وليدة يومها بل كانت امتداداً تاريخياً من قرون عديدة كان آخرها محاولات سابقة فى عهدى لويس الرابع عشر والخامس عشر لا أن الفرصة لم توات الفرنسيين إلا أثناء الحرب بين فرنسا ومعظم دول أوروبا وعلى رأسها انجلترا كان تفكير فرنسا فيها غزو انجلترا نفسها إلا أن هذا العمل كان محفوفاً بالمخاطر ، ولذلك أصبح الاتجاه الفرنسى مهاجمة المناطق الضعيفة البعيدة من ممالك انجلترا فيما وراء البحار ، والتوصل إلى ذلك بالسيطرة على بعض الولايات العثمانية فكان الغزو الفرنسى لمصر لتكون قاعدة لتنفيذ هذا الاتجاه (٢) ، وتحقيق

---

(١) انظر تفاصيل هذا الدور عند : د/ مصطفى رمضان - تاريخ الحركة الوطنية - ص ٧ وما بعدها .

(٢) د/ سعد بدير الحلوانى - العلاقات بين مصر والحجاز ونجد فى القرن ١٩ - ط ٢ - ١٩٩٥ - القاهرة - ص ١٦

- وانظر . J. Christopher Herold - Bonaparte P . 113

المكاسب التالية :

١ ـ تأسيس مستعمرة مزدهرة فى مصر واستغلال مواردها العظيمة .

٢ ـ توجيه ضربة مباشرة إلى بريطانيا بالسيطرة على أحسن الطرق إلى الهند (البحر الأحمر) .

٣ ـ ارتياد مصر القديمة والمدنية على أساس علمى [١] .

معنى هذا أنها أيضاً (فرنسا) قد أرادت بالإضافة إلى ما تقدم إيجاد محور تناظر به بريطانيا ، ولذلك فقد بادر نابليون بإرسال مجموعة من الرسائل إلى زعماء الهند عن طريق شريف مكة (الشريف غالب) عشية استقرار الفرنسيين فى مصر [٢] .

المقاومة المصرية ودور الحجازيين فيها :

كانت الحملة الفرنسية المكونة من أربعين ألفاً من الجنود بقيادة نابليون ومساعدة كليبر قد غادرت الموانىء الفرنسية فى مايو ١٧٩٧ ، ووصلت الإسكندرية فى يوليو ١٧٩٨ حيث استولت عليها ليبقى كليبر فيها على رأس حامية(خشية من وصول الأسطول الإنجليزى) ثم انطلق نابليون فى اتجاه القاهرة ، واستولى على دمنهور الرحمانية ، ورشيد [٣] ، وبعد عدة معارك فى شبراخيت ، وامبابة انسحب المماليك إلى الشام والصعيد ، تاركين المصريين يواجهون الحملة بمفردهم وهم عُزّل من السلاح .

وكانت المقاومة الشعبية فى القاهرة شديدة خاصة بعد دخول خيول الفرنسيين الأزهر ومداهمة من فيه من علماء وطلبة وما فيه من كتب ومصاحف فقاتلهم

(١) هيلين آن ريفلين ـ الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ـ ترجمة د / أحمد عبد الرحيم ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ م ـ ص ٢٤، ٢٥ .

(٢) د / عبد العزيز نوار ـ تاريخ العراق الحديث فى نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ـ دار الكتاب العربى ـ القاهرة ـ ١٣٨٨ هـ ـ ص ١٩

(٣) J.Christopher Herold - Bonaparte in Egypt - London- 1962 - P 69 - 70

القاهريون باستماتة أصدق قتال فى الشوارع ومن على المنازل [١] .

وأما القتال والمقاومة فى الصعيد فقد اتخذت أبعاداً أكثر فاعلية وشدة وشهد دماءاً عربية حجازية ومصرية فى صور بطولية أذاقوا فيها الفرنسيين ألوان العذاب ، وحقق العرب انتصارات سجلها التاريخ فى أنصع صفحاته بإمكانات متواضعة فى مقابل أسلحة أوربية حديثة لم يعرفها العرب من قبل .

فعندما وصلت أخبار الحملة إلى الحجاز شمر الحجازيون عن ساعد الجد وأعدوا عدتهم ، وأخذوا يتدربون على استعمال السلاح [٢] ، وتجلت روح النخوة الإسلامية العربية وبرزت فيما قام به الأهالى الحجازيون بعد أن خطب فيهم الخطباء أمثال الشيخ الكيلانى فبذلوا الأموال والأنفس ، وتجمعت أعداد كبيرة منهم حيث تكون منهم جيش المجاهدين الذين اتجهوا صوب ينبع فانضم إليهم الكثيرون من أهلها حتى بلغوا ألوفاً من المتطوعين ثم اتجه الجميع إلى قنا وانضموا للمقاومة المصرية الشعبية فى الصعيد [٣] .

وقد اشترك الحجازيون العرب مع إخوانهم المصريين فى معارك عديدة أذاقوا الفرنسيين فيها ويلات كان من بينها الهجوم على أسطول فرنسى مكون من اثنى عشر سفينة حربية تحمل المؤن والذخائر تتقدمها السفينة الحربية إيتاليا فى ٣ من مارس ١٧٩٩ قريباً من قرية البارود ، ولم يتركوها حتى أبادوا عدداً كبيراً من جنودها بلغ خمسمائة جندى حسب الإحصاء الفرنسى وأغرقوا السفن ، واشتركوا أيضاً فى مجموعة أخرى من المعارك فى قفط وابنود وغيرها [٤] .

(١) أمين سعيد ـ تاريخ مصر السياسى (من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ إلى انهيار المملكة ١٩٥٢م ـ مصر ـ ١٩٥٩ ـ ص ٢٦ .

(٢) أحمد بن زينى دحلان ـ خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ١٣٩٧ هـ ـ ص ٢٦٧

(٣) د/ سعد الحلوانى ـ العلاقات ـ ص ١٨ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى بك ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ـ ج ١ ـ دار المعارف ـ ط ٥ - ١٩٨١ م ـ ص ٣٦٢ وما بعدها .

ـ وانظر : عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ـ ج ٣ ـ مطبعة الأنوار المحمدية ـ القاهرة ـ ص ٦١

وتجدر الإشارة إلى أن الحجازيين كانوا من مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وجدة وينبع ، وغيرها من بلاد شبه الجزيرة العربية (١)

وقدفتّ فى عضد الفرنسيين إضافة إلى ما سبق وصول الأسطول الإنجليزى بقيادة الجنرال نلسن الذى تمكن من إغراق الأسطول الفرنسى فى أبى قير بالإسكندرية عام ١٧٩٨ كما استطاع نلسن قطع اتصالات الفرنسيين مع وطنهم فرنسا ، الأمر الذى حدا بنابليون إلى تجهيز حملة انطلق بها إلى الشام علم ١٧٩٩ م ، فاستولى على غزة ويافا ثم حاصر عكا التى استعصت عليه ولم يتمكن من فتحها ، وفى حيفا أقام نابليون مجزرة رهيبة قتل فيها نحو ثلاثة آلاف جندى عثمانى بعد استسلامهم .

وعند سماع نابليون بخبر استعداد المصريين للثورة ترك الشام وعاد ليقضى عليها ولكنه يئس من تحقيق أهدافه فى مصر ، وتحرج مركز بلاده دولياً فقرر العودة إليها سراً من الإسكندرية ، وفشلت المفاوضات التى دارت بين كليبر والعثمانيين على الجلاء لإصرار انجلترا على عدم خروج الفرنسيين إلا أسرى حرب الأمر الذى رفضه كليبر حتى قتله الشاب السورى الأزهرى سليمان الحلبى فى يونيو ١٨٠٠ فخلفه القائد مينو .

وفى مارس ١٨٠١ م تمكنت حملة إنجليزية من السيطرة على مصر بعد هزيمتها للفرنسيين الذين استسلموا فى سبتمبر ، وتلكأ الإنجليز فى الخروج من مصر إلى عام ١٨٠٣ ، وعادوا إليها فى حملة جديدة عام ١٨٠٧ بقيادة فريزر ولكنها لم تنجح فى السيطرة على مصر بسبب مقاومة الأهالى لها بضراوة شديدة خاصة فى رشيد ، مما اضطرهم للجلاء سريعاً دون تحقيق أية أهداف تذكر (٢) .

(١) د/ عبد العزيز الشناوى - الدولة العثمانية - ج ٢ - ص ٩٣٩ .

(٢) د / زاهية قدوره - تاريخ العرب الحديث - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٨٥ - ص ٣٣٤وما بعدها - وانظر J.Christopher Herold - Bonaparte -- p 312

ولاية محمد على باشا على مصر :

عادت مصر إلى حظيرة الدولة العثمانية مرة ثانية بعد خروج الفرنسيين ومن بعدهم الإنجليز منها ، وقد ازدادت الأحوال سوءاً فيها بسبب الصراع على السلطة بين المماليك والعثمانيين إضافة إلى محمد على الذى أخذ نجمه يعلو فى سماء الساحة الشعبية المصرية بعد ما تقرب منها الأمر الذى اضطر الدولة العثمانية للإستجابة إلى طلب خورشيد باشا (والى مصر) بإبعاد محمد على فصدر الفرمان سنة ١٨٠٥ م بتعيين الأخير والياً على جدة ، فتقبل محمد على الفرمان دون أن ينفذه [١] وازداد تقربه من العلماء حتى اقتنعوا به وساعدوه على تقلد منصب ولاية مصر بل نصّبوه بالفعل ثم أرسلوا للحكومة العثمانية يطلبون التصديق عليه بالموافقة مما أجبر العثمانيين إلى إرسال مندوبهم إلى الإسكندرية حاملاً أمراً بإعطاء الولاية لخورشيد أو محمد على أيهما أعز نفراً وأصلح [٢] فكانت النتيجة فى صالح محمد على ، وتم عزل خورشيد بناء على ذلك ونزولاً على رغبة العلماء والإرادة الشعبية [٣] .

وقد انتهج محمد على سياسة مختلفة عن سابقيه سواء فى داخل البلاد أم خارجها : ـ

سياسة محمد على الداخلية :

عمد محمد على إلى توطيد سلطانه واستقرار الأمر له بإبعاد كل من وجده عائقاً فى سبيل تحقيق أهدافه إما بالنفى أو القتل أو إرهابه ، كما فعل مع المماليك عندما استخدم دهائه فى تنظيم مذبحة القلعة لهم سنة ١٨١١ ، وكما فعل مع علماء

(١) عبد الرحمن الرافعى بك ـ تاريخ الحركة القومية ـ جـ ٢ ـ ص ٣٣٣ .

(٢) هنرى دوديل ـ محمد على مؤسس مصر الحديثة ـ ترجمة أحمد عبد الخالق وآخر ـ مكتب الآداب ـ القاهرة ـ ص ٢٢ .

(٣) الوثيقة رقم ١٠٠ تاريخ ـ مجموعة وثائق رفاعة الطهطاوى ورسالة علماء مصر وأعيانها إلى سلطان الدولة العثمانية (صفر ١٢١٨ هـ / مايو ١٨٠٣) ـ مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج .

الأزهر الذين نصبوه ولكن عندما وجدهم رقباء عليه استخدم معهم وسيلة القهر والنفى والتشريد ، ومع الجبرتى كان عقابه على معارضته لمحمد على قتل ولده الوحيد ، وإحراق دار المؤرخ الكبير ، ومصادرة علمه وكُتبه .

ومع ذلك فقد أخذ يعمل على إرساء نهضة ثقافية وعمرانية واسعة فى شتى المجالات حيث اهتم بأمور الزراعة ، وإنشاء المدارس ولاسيما الحربية منها واستقدم الجنود الأجانب وإرسال البعثات للاطلاع على التقدم العلمى فى بلاد أوروبا .

ومع هذا (ففى رأى) أنه ما صنع كل هذا وذاك إلا لخدمة أغراضه الشخصية وبناء جيش قوى يحقق طموحاته السياسية والعسكرية فى تكوين إمبراطورية يسيطر عليها هو وأبناؤه من بعده ، ولم يكن شىء منه لصالح المصريين قط بل عانوا من سياسته أشد المعاناة .

سياسة محمد على الخارجية :

أما عن سياسته الخارجية فقد ارتكزت على إظهار القوة والسيطرة على مناطق مترامية الأطراف مما استلزم تجهيز حملات عديدة شملت : -

١ - الحملة المصرية على الجزيرة العربية (١٨١١ - ١٨١٨)

٢ - الحملة المصرية على السودان (١٨١٩ - ١٨٢١) .

٣ - الحملة المصرية إلى اليونان (١٨٢٢ - ١٨٢٧) .

٤ - الحملة المصرية على بلاد الشام وتركيا (١٨٣١ - ١٨٤٠) .

وقد تحمل الشعب المصرى تبعات ونفقات هذه الحملات التى لم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل ، ولكنها بالفعل رفعت اسم مصر وسمعتها فى السماء (كما يحلوا للبعض أن يتشدق به) الأمر الذى جعل الدول الأوربية تتكالب على مصر فى مؤتمر لندن ١٨٤٠ . ، ألزموا محمد على بالتقهقر بقواته إلى مصر وكبحوا جماحه عنوة ، بعد ما كان قد سيطر على شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والسودان [١] ، وهدد

(١) د/ زاهية قدوره - مرجع سابق - ص ٣٤٠ .

عاصمة الدولة العثمانية نفسها ، بعد انتصار قواته عليهم فى نصيبين ١٨٣٩ واستيلائه على الأسطول العثمانى ولولا مناصرة الأوربيين للعثمانيين لتمكن محمد على من دخول العاصمة بسهولة [١] .

وقد جاء فى معاهدة لندن يوليو ١٨٤٠ ما يلى نصه :

« أن يخول محمد على وخلفاؤه حكم مصر الوراثى ، وأن يقبل إخلاء جنوده من شبه الجزيرة العربية ، وجزيرة كريت ، وإقليم أدنه ، وسائر البلاد العثمانية التى استولى عليها [٢] « عدا ولاية عكا ، وأن يعيد للدولة أسطولها » .

ومما يذكر لمحمد على فى مصر ما قام به من إدخال نظم التعليم الحديثة بإنشائه مجموعة من المدارس عملت على تطوير الفكر المصرى سريعاً كان من بينها : مدرسة الطب ، والصيدلة ، والطب البيطرى ، ومدرسة حربية ، وأخرى للهندسة ، بالإضافة إلى العديد من المدارس الأولية ، واستقدم للتدريس أساتذة أجانب ، كما أرسل البعثات لنيل مختلف العلوم إلى بلاد أوروبا ولاسيما فرنسا .

خلفاء محمد على :

وبوفاة محمد على سنة ١٨٤٩ م بعد غيبوبة استمرت عاماً ونصف العام أغلق الستار عن فصل هام من فصول التاريخ المصرى الحديث ليتولى من بعده مجموعة رجال من أسرته تقاذفتهم رياح السياسة الدولية أولهم إبراهيم باشا (ابنه) الذى ولى فى أثناء غيبوبة أبيه إبريل سنة ١٨٤٨ ولم يطل به المقام سوى سبعة أشهر حيث

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ـ الوثيقة ١٣ أصلية ـ محفظة ٦٦ عابدين ـ من محرم أغا محافظ المدينة إلى باشمعاون جناب الخديوى فى ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ هـ
ـ وانظر : الوثيقة ٢١ أصلية ـ محفظة ٢٦٦ عابدين ـ من الميرامران سليم بالجديدة إلى صاحب الدولة ـ فى ١٥ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ هـ

(٢) دار الوثائق بالقاهرة ـ الوثيقة ٧٦ أصلية ـ محفظة ٢٦٩ عابدين ـ من محمد بن عون إلى باشمعاون جناب الخديوى ـ ١٩ من رمضان سنة ١٢٥٦ هـ .

أصيب بالتهاب رئوى مفاجى أودى بحياته [١] ، ثم تبعه فى الحكم عباس الأول الذى كان موجوداً فى الحجاز حين وفاة إبراهيم فأرسلت السفينة الإنجليزية الرابضة فى ميناء السويس لتحضره من جدة فتولى فى نوفمبر ١٨٤٨ م [٢] .

ومن بعده سعيد الذى بدأت فى عهده سياسة الإسراف والتبذير ثم القروض الأجنبية تلك المصيبة التى زادت فى عهد الخديوى إسماعيل ، وفتحت الباب أمام التدخل الأجنبى فى شئون مصر الداخلية ثم احتلاله سنة ١٨٨٢ م من قبل انجلترا .

وعلى الرغم من أعمال الخديوى إسماعيل الإصلاحية العمرانية والفنية وشق الطرق إلا أن عهده قد تميز بالبذخ الشديد فى إنشاء القصور الفخمة والمؤسسات الترفيهية مثل دار الأوبرا (الوحيدة فى العالم العربى) ، كما أنه صرف أموالاً طائلة فى سبيل الحصول على فرمانات الوراثة من الدولة العثمانية ، وامتلاك وفتح مناطق إفريقية عديدة استلزم السيطرة عليها تجيش وتجهيز الجيوش العسكرية باهظة التكاليف بقادة أجانب لم يخلصوا جميعاً فى توجهاتهم وانتماءاتهم بل كانت لهم مشارب عدة .

كما كلفت عملية حفر قناة السويس [٣] الخزانة المصرية أعباءاً جسيمة مباشرة وغير مباشرة .

أثقلت كل هذه القروض المختلفة من كاهل مصر ، فقد كان الدائنون كلهم أجانب عبارة عن مصارف أجنبية ومرابين حيث تكاتف الجميع على استنزاف الموارد

---

(١) Earl of Cramer - Modern Egypt Vol I - london 1908 . p . 19 -

(٢) أمين سامى ـ تقويم النيل ـ م ١ ـ جـ٣ ـ مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٣٥٥ ـ ص ٣ .

(٣) تم الاتفاق على المشروع بين محمد سعيد والمهندس الفرنسى على إنشاء شركة تقوم بعمليات الحفر سنه ١٨٥٤ م ، وندعم المشروع باتفاق سنة ١٨٥٦ م بين الحكومتين الفرنسية والمصرية مُنحت الشركة بمقتضاه امتيازات تستمر تسعاً وتسعين عاماً ، وتم الحفر والإفتتاح فى عهد الخديوى إسماعيل سنة ١٨٦٩ م فبلغ طول القناة ١٧٣ كم ، ومتوسط عرضها ٦٠ م ، وعمقها ١٣ م من بور سعيد إلى بور توفيق لتربط البحرين المتوسط والأحمر .

المصرية بحق وبدون حق عن طريق الربا الفاحش الذى أخذ يتضاعف مُغرقاً الخزانة المصرية فى بحر لجىّ من الديون (١) ، وكان من فرسان هذه السياسة المالية الخاطئة العديد من الأجانب الذين كان على رأسهم بوغوص نوبار باشا هذه الشخصية التى لها أنصاراً فى مصر سوى الأجانب ولاسيما التجار منهم الذين اتخذوا من الإسكندرية معقلاً تجارياً حققوا من خلاله أرباحاً طائلة (٢) .

فقد كان نوبار أرمنى قد تمصر ، وكان متهماً بأنه أثرى عن طريق السمسرة على حساب الشعب الذى عانى من المحاكم التى أنشأها لصالح الأجانب (٣) .

الثورة العرابية فى مصر

انتهت الأزمة المالية المصرية إلى تولى بريطانى وزارة المالية المصرية (ويلسن) ، وفرنسى للأشغال العامة (بلنير) فى وزارة أطلق عليها الوزارة الأوربية التى أغدقت على الأجانب ، وابتعدت تماماً عن مصالح الشعب ، وسرحت الكثيرين من ضباطه بعد أن توقفت عن دفع مرتباتهم مما أشعل ثورتهم إلى حد أسر بعض أعضاء الوزارة نوبار باشا مما أثار قلق الأجانب فطالبوا بعزل الخديوى وبالفعل عزل فى يونيو ١٨٧٩م وعين توفيق خلفاً له سنة ١٨٧٩ ، وتولى رئاسة الوزارة رجل وطنى هو محمد شريف باشا بعد أن كان أغلب الوزراء من غير المصريين الذين جاءوا مصر فى عهد محمد على وخلفائه ، ولم يشعروا أبداً ، ولم يهتموا بمصالح الشعب المصرى (٤) .

اشترط محمد شريف باشا قيام حياة دستورية برلمانية ، ولكنه أخفق بسبب

---

(١) محمد عبده (الإمام) ـ تاريخ الأستاذ الإمام ـ جـ١ ـ ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(٢) Robert L . T ignor : Modernization and British Calonial Rule in Egypt 1882 - ١٩١٤ princeton 1966 - p 50 - 51

(٣) ألفردبلنت ـ التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر ـ جـ١ ـ ص ٦٥ .

(٤) Robert L . T ignor : Modernization .P . 63

تعنت الأجانب ضده وميول توفيق الاستبدادية فأسقطوا وزارته الوطنية ، وعينوا محمد رياض باشا مكانه الذى عمل على إضعاف الجيش والشعب وإذعانه للأجانب (١) مما كان سبباً فى إشعال ثورة شعبية سنة ١٨٨١ م كان على رأسها الضابط المصرى أحمد عرابى مطالباً بأن تكون مصر للمصريين ، وانضم إليه الأميرالاى على فهمى ، وعبد العال حلمى ، وكبار الضباط ، فاضطر الخديوى توفيق لإقامة الوزارة وإعادة محمد شريف مرة ثانية الذى لم يستمر بسبب ازدياد التدخل الأجنبى ، وتبعه وزارة محمود سامى البارودى التى تولى فيها عرابى وزارة الحربية .

وعندئذ اشتد الخلاف بين الوزارة الوطنية من جهة ، وكل من الخديوى والأجانب من جهة أخرى انتهت إلى التدخل البريطانى واحتلال مصر سنة ١٨٨٢ م (٢) ، وانكسار ثورة أحمد عرابى الوطنية التى تبعها ظهور وطنيين آخرين كان من بينهم مصطفى كامل الذى استطاع تأليب الشعوب الأوربية على الاحتلال أثناء دراسته للحقوق فى فرنسا حتى إذا عاد من رحلته إلى مصر سنة ١٨٩٤ م ، وأخذ يجوب الأقاليم لنشر الوعى بين مواطنيه وشرح قضية بلاده فى المجلات والصحف العديدة بلغات مختلفة أجادها (٣) .

وكانت العناصر الوطنية تعمل بكل إمكاناتها فى سبيل عدم تحول شكل الاحتلال من احتلال غير شرعى (وفق ما ذكرت بريطانيا) إلى حماية يطول أمرها تبحث لنفسها عن مظهر شرعى تبقى به فى مصر ، ولذلك فقد أخذ الوطنيون

---

(١) د/ مصطفى محمد رمضان ـ تاريخ الحركة الوطنية ـ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

(٢) انظر التفاصيل عند :

الفريد بلنت ـ التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ـ ص ١٧١ وما بعدها .

ـ وانظر : أمين سعيد ـ تاريخ مصر السياسى ـ ص ١٠٣ وما بعدها .

(٣) د/ مصطفى محمد رمضان ـ تاريخ الحركة الوطنية ـ ص ٣١٨ وما بعدها .

يتجهون إلى ورقة هى الوحيدة فى أيديهم تقريباً فاستغلوا التنافس الفرنسى البريطانى لتحريك المعارضة الفرنسية للإنجليز ، ودفعها للوجهة التى يريدها الوطنيون ، حيث لفرنسا مصالح عديدة فى مصر ، وعمل الوطنيون على الإبقاء على تبعية مصر للدولة العثمانية ، ولذلك كان عليهم شرح القضية فى محافل دولية عديدة ، وفضح ما يقوم به الإنجليز فى مصر ، وفى ممتلكاتها ، وتوابعها الأخرى من محاولات استعمارية مستمرة .

وعلى رأس الوطنيين كان ظهور مصطفى كامل رجل القانون الذى نزل إلى ميدان الصحافة والإعلام ، واتصل بالمفكرين وأصحاب الآراء التحررية ، ورجال الصحافة والنواب الفرنسيين ، ونشر فكره ورأيه فى جريدة (جازيت دى تولوز) ، وجريدة الأكلير ، وسافر إلى باريس ، وتولوز ، وفينا ، وألمانيا ، والنمسا ، والأستانة لشرح القضية المصرية فى المحافل والتجمعات الدولية العديدة [١] .

وعلى الرغم من توقف و فتور نشاط الوطنيين عدة سنوات ، إلا أنهم قاموا مرة أخرى بعد وفاة توفيق سنة ١٨٩٢ م ، وتولى عباس حلمى الثانى الذى كان له بعض الاتجاهات لصالح الوطنيين فحاول هؤلاء استغلالها ، وتدعيم موقفه أمام الإنجليز وظل مصطفى كامل ينادى بضرورة جلاء الإنجليز عن مصر ، والإصلاحات الدستورية فيها عالمياً ومحلياً ، وإصداره الصحف التى نشر فيها خطبه ومقالاته النارية المتزنة ، وظهر الحزب الوطنى كحزب سياسى منظم على يد مصطفى كامل حيث انطلقت شرارته الأولى من الإسكندرية سنة ١٩٠٧ ببرنامجه الذى اشتمل على المطالبات الوطنية بدستوره واحترامه للمعاهدات الدولية ، ونشر التعليم ، ورقى الزراعة ، والشئون الصحية ، وتقوية العلاقات بين مصر والأتراك ، والدعاية لمصر فى الخارج ، واشتمل الحزب على أعضاء مسلمين ونصارى .

---

(١) د / جلال يحيى ـ العالم العربى الحديث ـ ص ٣٤٨ وما بعدها .

استمر مصطفى كامل فى جهوده وقيادته الوطنية حت توفى سنة ١٩٠٨ م ، وخلفه فى زعامة الحزب الوطنى محمد فريد [١] ، حيث حمل الراية ضد الإنجليز ، والخديوى عباس حتى اضطهد وسجن ، ثم سافر إلى أوربا لتكملة مسيرة سلفه / مصطى كامل للدفاع عن وطنه وقضاياه المصرية حتى مسيرة سلفه / مصطفى كامل للدفاع عن وطنه وقضاياه المصرية حتى توفى فى برلين سنة ١٩١٩ م .

الحرب العالمية الأولى وأثرها على مصر :

كانت الحرب العالمية الأولى وبالاً على البلاد العربية ، ولاسيما مصر حيث اهتبلت إنجلترا فرصة دخول تركيا الحرب ضدها ، وأسرعت بإعلان الأحكام العرفية ، ثم بادر وزير الخارجية الإنجليزى بإعلان الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وفى اليوم التالى قبل حسين كامل (الإبن الثانى للخديوى إسماعيل) عرش مصر ، ولقب بالسلطان حسين كامل ، وزادت إجراءات إنجلترا ضد الشعب المصرى بالتضييق على الصحافة ، وفرض الضرائب ، وسجن الأحرار ، بل وعزل مصر عن العالم الخارجى .

وما أن وضعت الحرب العالمية أوزارها حتى بدأت القيادات الوطنية فى التحرك من جديد ، وكونت وفداً ليسافر إلى مؤتمر الصلح فى باريس من سعد زغلول ، وعلى شعراوى ، وعبد العزيزفهمى ، إلا أن السلطات الإنجليزية منعت الوفد من السفر ، مما زاد من هياج الشعب ، فاعتقلت السلطات أربعة من القيادات هم : سعد زغلول ، وإسماعيل صدقى ، ومحمد محمود ، وحمد الباسلى ، ونفتهم إلى مالطة ، مما أشعل لهيب ثورة ١٩١٩ م التى أمتد أثرها إلى البلاد العربية الأخرى فقامت ثورات مماثلة لها فى سورية ، والعراق ، فلسطين على الإنجليز ، وفى المغرب العربى على الفرنسيين ، الأمر الذى أجبر الإنجليز على إطلاق سراح

(١) أمين سعيد ـ تاريخ مصر السياسى ـ ١٥٩ .

ـ وانظر : د/ عمر عبد العزيز ـ تاريخ المشرق العربى ـ ص ٣٣٢ وما بعدها .

المعتقلين ، والسماح للوفد المصرى بالسفر إلى باريس .

ولكن جاء اعتراف الرئيس الأمريكى ويلسون بالحماية البريطانية على مصر بالأثر السيء على الشعور الوطنى المصرى ، مما أشاع السخط بين الأهالى ، وأمام وعى المصريين أخذ الإنجليز فى اتباع سياسة مطاطة ، وابتداع أساليب التهدئة « ذراً للرماد فى العيون » فدارت المفاوضات بين اللورد اللنبى ، وعبد الخالق ثروت أعلنت بريطانيا على أثرها إنهاء الحماية فى فبراير سنة ١٩٢٢ م ، وأن مصر أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة مشروطاً ذلك بتأمين إنجلترا لمواصلاتها فى مصر ، والدفاع عنها ضد أى هجوم أجنبى ، وحماية الأقليات ومصالح الأجانب .

وأعقب ذلك وضع دستور للبلاد وإقراره فى إبريل سنة ١٩٢٣ م ، وعدل سنة ١٩٢٤ م ، وإعلان فؤاد ملكاً على مصر ، ولكن مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ م أدى إلى إجراءات قمعية انتقامية من بريطانيا ، واستقالت وزارة سعد زغلول وعطل الدستور سنة ١٩٢٥ م ، وتولى الوزارة مصطفى النحاس باشا بعد أن خلف سعد زغلول فى زعامة الوفد المصرى .

وأمام الاضطرابات السياسية فى مصر واستمرارها سنوات طويلة فيما بين سنتى ١٩٢٢ م ، ١٩٣٦ م ثم تشكيل وفد بزعامة مصطفى النحاس باشا لمفاوضات الإنجليز انتهت بمعاهدة سنة ١٩٣٦ م [١] .

الحرب العالمية الثانية :

كان لموقع مصر عند أكثر نقاط البحر المتوسط أهمية استراتيجية ، واشتمالها على قناة السويس أثر كبير فى دوران عجلة الحرب العالمية الثانية على ترابها ومياهها ، وأدى ذلك أيضاً إلى حقيقة مفادها أن مصر قد أصبحت ـ منذ ذلك

(١) د / زاهية قدوره ـ تاريخ العرب ـ ص ٣٧٣ وما بعدها .

الحـين ـ محور النظام الذى حاكته بريطانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية للشرق الأوسط وشرق البحر المتوسط .

وقد حاولت مصر أن تكون بمنأى عن ويلات هذه الحرب ، إلا أن الظروف قد فرضت عليها أن تلعب دوراً أساسياً فى الحرب العالمية الثانية ،

وتمثلت هذه الظروف فى عوامل :

وجود قناة السويس ، ومرور البترول بها ، واكتشاف البترول واستخراجه من مصر كما عمدت بريطانيا إلى تحويل مصر إلى مركز للإمدادات الأمريكية فى شمال أفريقيا والبحر المتوسط بشكل عام ، ومركز كذلك لصيانة المعدات ، ولتموين قوات الحلفاء فى المنطقة (١) .

ليس هذا فحسب بل أصبحت مصر فى طليعة دول الشرق الأوسط التى تقوم بتوفير المواد الغذائية لدول البحر المتوسط الأوربية (٢) .

وقد ترتب على أحداث الحرب العالمية الثانية تغيير شامل فى الاستراتيجية الدولية ، والتوازن الدولى ، وشىء آخر مهم هو كيفيةالاحتواء الذى كان فى السابق احتواءً عسكرياً ، والجديد هو الاحتواء الاقتصادى والاجتماعى ، والتنموى، وأصبح هناك صراع بين المدرستين القديمة والجديدة .

كما ظهرت نتيجة أخرى بدأت المدرسة الامبريالية البريطانية تنظر بعين الاعتبار إلى أهمية مصر باعتبارها الطرق البترولية الجديدة اتى تمر من المتوسط لتلبية احتياجات أوروبا لتعمير ما خربته الحرب ، ولاسيما أن منطقة البحر المتوسط

---

(١) د / هيلموت مايشر ـ مصر وعالم البحر المتوسط فى الحرب العالمية الثانية ـ ترجمة د / رؤوف عباس ـ ص ١٥٥ وما بعدها ـ بحث ضمن ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ـ مكتبة نهضة الشرق ـ ج القاهرة ـ ١٩٩٦ م .

(٢) هيلموت مايشر ـ مصر وعالم البحر المتوسط ـ ص ١٦٧ .

والشرق الأوسط وعلى رأسها مصر قد ساعدت انجلترا مساعدة جادة على مواجهة هتلر .

ومن أجل ذلك عملت على حماية موانى تصدير البترول فى شرق البحر المتوسط ، وطرق نقل البترول عبر قناة السويس والبحر المتوسط ، ولذلك تركزت القوات البريطانية كقاعدة أخيرة لها على شواطىء شرق البحر المتوسط [١] .

ومع ذلك فقد أعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية محاولات وعروض عديدة على مصر كان من بينها مشروع لتحالف دول شرقى البحر المتوسط إلا أن مصر قد رفضت هذه العروض والمقترحات الخاصة بها التى أشركت فى صياغتها بريطانيا الأمر الذى أدى إلى زيادة حدة التوتر فى العلاقات بين مصر وبريطانيا ، ولاسيما بعد ما لجأ المتطوعون المصريون إلى مقاومة ومحاربة القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس مما دفعت البلاد المصرية إلى الحالة التى أعقبها استيلاء الضباط الأحرار على الحكم فى مصر فى يولية سنة ١٩٥٢ م .

واضطرت بريطانيا للموافقة على الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ م ، واستمرت مصر على رفضها دخول الأحلاف العسكرية حتى اضطرت بريطانيا إلى البحث عن بديل وجدته فى العراق كبديل لمصر ، وتم تشكيل ما سمى بحلف بغداد فى فبراير سنة ١٩٥٥ م [٢] .

أزمة السويس وتأميم القناة :

عندما عرضت مصر على الغرب وأمريكا تمويل مشروع بناء السد العالى ، وضعوا قيوداً عديدة يفقدها حرية الحركة والتعاملات الخارجية ، وعندما رفضت

(١) هيلموت مايشر ـ مصر وعالم البحر المتوسط ـ ص ١٧٥ .

(٢) د / أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ الولايات المتحدة والمشرق العربى ـ الكويت ـ ١٩٧٨ م ـ ص ١٠١ وما بعدها .

مصــر هــذه القيود ، أعلن الغرب سحــب عــرضه لتمويل المشــروع فى يوليو سنة ١٩٥٦م ، وكـان رد الفعل المصرى أن أعلن جـمال عبد الناصر فى خطابه بالإسكندرية فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ م تأميم شركة قناة السويس ليتمكن من تمويل السد العالى من موارد القناة .

ولكن الغرب لم يترك مصر فى حالها ، وتم تصعيد الموقف فى اتفاق أبرم لتوجيه ضربة عسكرية لمصر سمى باتفاق سيفر فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٥٦ م وقع عليه كل من :

ابن جوريون عن إسرائيل ، وباتريك دين عن بريطانيا ، وبينو عن فرنسا واتفق الأطراف الثلاثة على دور كل منهم فى خطة الهجوم على مصر ، وتم التنفيذ بالفعل فى ٢٩ أكتوبر بهجوم إسرائيل أولا على مصر ثم تبعتها الدولتان بريطانيا وفرنسا .

وكان موقف روسيا من البداية مؤيداً لمصر ـ طمعاً فى توطيد علاقاته بالدول العربية ـ عندما أعلن خروشوف فى استاد لينين الرياضى فى ٣١ يوليو تأييده للتأميم ولموقف مصر ، وبعد الهجوم شاركت روسيا أميركا فى توجيه إنذار شديد اللهجة للدولتين بريطانيا وفرنسا بعد رفضهما وقف الاعتداء على مصر ـ وهنا تجدر الإشارة إلى أن موقف روسيا كان أشد وأعنف بما اتخذته من إجراءات عملية فى هذا الصدد، تمثلت فى تهديدات بتدمير إسرائيل وتسويتها بالأرض ، وتهديداتها الأخرى لبريطانيا وفرنسا بوقف العدوان عن طريق التدخل العسكرى حتى تحققت الدولتان من جدية الموقف الروسى ، وتم جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن أراضى مصر فى ديسمبر سنة ١٩٥٦ م [١] .

---

(١) صلاح بسيونى ـ مصر وأزمة السويس ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٠ ـ ص ١٠٦ وما بعدها .
ـ وانظر : د/ فؤاد المرسى خاطر ـ مصر والنشاط السوفيتى فى البحر المتوسط ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧ . ندوة مصر والبحر المتوسط ـ مرجع سابق ـ ص ٢١١ وما بعدها .



الفصل السادس

الســـودان

السـودان

قامت فى السودان مجموعة من الممالك المختلفة على مر القرون الماضية وأكثر هذه الممالك استمرارية مملكة البجة (بادية كوش) الذين هم أهل ذمة وضيافة ، كانوا يعبدون الأصنام حتى اختلط بهم العرب بعد فتح مصر وكان عليهم ملك (على بابا) الذى دفع الخراج لجعفر المتوكل على الله .

وانقسم البجة إلى قبائل عديدة هى : العبابدة ، والبشاريين ، والهدندوة والأمرار ، والحلنقة (بنى عامر) ، ومن مدنهم سواكن ، عيذاب - وكان بأرضهم ذهباً ، ولاسيما بمنطقة وادى العلاقى حيث كان ملكهم على بابا يحصل على عوائد استخراج الذهب من أرضه ، ويبدو أن مناجم الذهب هذه كانت من بين أسباب هجرة العرب إلى السودان [١] ، ولذلك تعتبر السودان بلداً عربياً إسلامياً منذ صدر الإسلام .

وفى العصر المملوكى كان حرص المماليك على التواجد فى السودان يرجع إلى سببين أولهما : تأمين تجارة البحر الأحمر ، وثانيها : الحصول على الذهب من مناجم العلاقى [٢] .وقبيل وصول العثمانيين إلى منطقة الشرق العربى ظهرت مملكة الفنج فى السودان سنة ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م ، ومد مؤسسها السلطان دنقس نفوذه على زعامات شمال السودان حتى الشلال الثالث ، وامتد كذلك هذا النفوذ حتى شرق السودان .

وبعد أن استولى العثمانيون على أغلب البلاد العربية ، أخذوا فى مواجهة

---

(١) Crawford The Fung Kingdom of Sennar -Cloucester 1951-p 120-121
وانظر : د. سعد بدير الحلوانى - الحكم المصرى فى سواكن وملحقاتها - (١٨٦٥ - ١٨٨٥) م - رسالة ماجستير - كلية اللغة العربية - القاهرة - ١٩٨٧ - ص ٣، ٤ .

(٢) Grawford Op. Cit.p121.

البرتغاليين فى المياه المطلة عليها ، وفى الهند حدثت المواجهة بينهما فى معارك عديدة كان من بينها معركة قاد فيها سنان باشا السفن العثمانية التى ألحقت هزيمة منكرة بالبرتغاليين الذى كان يقود أسطولهم فيها دون جوان كاسترو فى المياه الواقعة بين مصوع وسواكن ، ومن يومها أصبحت سواحل السودان عثمانية وألحقت بإيالة الحبش التى شملت مصوع ، وسواكن وملحقاتها ، وصارت تابعة لصنجقية جدة .

إلا أن العثمانيين قد تركوا السلطة الإدارية فى سواحل السودان للوطنين ، بينما تركزت مهام المحافظ العثمانى فى تحصيل الرسوم الجمركية ، وبعض أشكال السيادة الأخرى ، وبذلك تقاسم العثمانيون والفنج جباية الأموال من هذه السواحل .

أما الدواخل السودانية فقد ظلت بعيدة عن السلطة العثمانية ، يحكمها الفنج ، وتقاسموا الأدوار حيث كان على الفنج تجميع السلع والمنتجات وإرسالها عبر الطريق من سنار إلى كسلا ، ثم سواكن لتصل إلى الساحل فى حمايتهم ، بينما يقوم العثمانيون بتسويقها وشحنها والمبادلة بها مع التجار الهنود وغيرهم من مرتادى السواحل السودانية ، كما أشرف العثمانيون كذلك على عملية ترحيل الحجاج الذين يتجمعون من الحبشة والسودان فى سواكن ثم ينطلقون إلى الموانى الحجازية (١) .

ومن الملاحظ أن التجارة السودانية مع العالم الخارجى قد لاقت رواجاً طوال القرن السادس عشر ، بينما تدهورت خلال القرن السابع عشر الميلادى ، واقتصرت فيها التجارة (تقريباً) على تجارة الرقيق ، ويبدو أن هذه كانت السمة العامة بالنسبة لموانى البحر الأحمر (العربية) ، كما أن هذا التدهور التجارى قد استمر إلى أوائل القرن التاسع عشر ، وأصبح النشاط فى السواحل السودانية قاصراً على تجارة الرقيق ، ومرور قوافل الحجاج (٢) .

---

(١) Crawfod Op Cit -p.122

وانظر : د. سعد الحلوانى - الحكم المصرى فى سواكن - ص ١١ ومابعدها .

(٢) صلاح الدين الشامى - الموانىء السودانية - مصر - ١٩٦١ - ص ١٢٥ ومابعدها .

وقد استمرت دولة الفنج متخذة من عاصمتها (سنار) تبسط سلطانها على الكثير من بلدان السودان حتى السواحل إلى أن ضعفت شوكتهم ، وأخذ نفوذهم فى التلاشى ابتداء مـن سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م إذ ظهرت مجموعات من قبيلة الهمج ، سيطرت على الوضع الداخلى لدولة الفنج ، وجاءت نهاية هذه الدولة على يد إسماعيل بن محمد على الذى تمكن عام ١٨٢١ م من الاستيلاء على عاصمتهم (سنار)حيث اضطروا للترحيب به ،و تسليمه مقاليد الأمور فى دولتهم التى استمرت أكثر من ثلاثة قرون [١] .

استيلاء محمد على باشا على السودان

بدأت علاقة محمد علي وأبنائه بالسودان منذعام ١٨٢٠ م ، بعد أن تمكن إبراهيم باشا من تحطيم الدرعية سنة ١٨١٨ م ، واستيلائه على أغلب شبه الجزيرة العربية ، حينئذ كافأه السلطان العثمانى محمود الثانى بتعيينه على باشوية جدة فى يوليو سنة ١٨٢٠ م ، وكانت تشمل سواحل السودان ، وسواحل الحبشة ، وأطلق على إبراهيم باشا لذلك متصرف جدة والحبش أو (والى إيالة الحبش ومتصرف أو ضجق جدة) [٢] .

ويغلب على الاعتقاد أن محمد على قد اتجه إلى غزو السودان تدفعه مجموعة من الأطماع أراد تحقيقها بالإضافة إلى عوامل أخرى دفعته دفعاً لذلك نستطيع أن نجملها فيما يلى : -

١ - القضاء على المماليك الذين تركز بعضهم فى دنقلة بعد فرارهم من مذابح محمد على لهم .

---

(١) محمد جمعان محمد داد الغامدى - ولاية الحبش فى العصر العثمانى - ١٨٠٥ - ١٩٠٣ - رسالة دكتوراه - كلية اللغة العربية - القاهرة - ١٩٩٥ - ص ٦٣ .

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة - وثيقة ١٦٨ - دفت ١٤ معية تركى - من إبراهيم باشا إلى مقام الصدارة - فى ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٣٨ هـ .

٢ ـ الاستيلاء على مناجم الذهب التى أشيع عن وجودها فى سنار للصرف منها على أطماعه التى لاتنتهى .

٣ ـ توسيع نطاق التجارة ، والحصول على منتجات السودان التى كان يحتاجها من عاج ورقيق وغيره .

٤ ـ اكتشاف منابع النيل لنفع الزراعة والعلم فى مصر (لتأمين مصادر المياه) .

٥ ـ وهو الأهم توسيع رقعة إمبراطوريته التى أراد لها أن تكون على أوسع وأقوى نطاق .

٦ ـ وربما أيضاً تفكيره فى التجنيد من أهالى السودان ، و بعد مذبحته للماليك ، وعدم ثقته فى المرتزقة الذين كان يعتمد عليهم ويكلفونه نفقات باهظة فى الوقت الذى لم يكن فيه محمد على يستطيع أن يفرط فى دور المصريين الزراعى ولم يشأ أن يبعدهم عن مجالهم الذى انحصروا فيه منذ الغزو العثمانى لمصر .

٧ ـ تأمين حدود مصر الجنوبية (١) .

وعلى كل فقد ظل محمد على يستعد طوال السنوات السابقة على سنة ١٨٢١ لغزو السودان من جمع للمعلومات ، وإرسال الوفود والجواسيس للتعرف على هذا البلد الشاسع الكبير فقد عرف بعض الأخبار التى قصها عليه بوركهات وملاحظاته ومشاهداته فى السودان ، كما توجد إشارة لبعض الجواسيس ذكرها كاتب الشونة فى مخطوطه ، ويذكر فيه أنه قد وصل إلى مملكة سنار سنة ١٨١٣ أول جاسوس من رجال محمد على ، وأرسل كذلك وفداً عام ١٨١٢ فى مهمة سياسية لتحريض آخر ملوك دولة الفنج (بادى السادس) على المماليك الفارين إلى مملكته ، ولكنها كانت مهمة أخرى لجمع المعلومات عن السودان وإمكانياته وخبراته ، ولاسيما موضوع

---

(١) نعوم شقير ـ تاريخ السودان ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٨١م ـ ص ١٩٣ ، ١٩٤ .
وانظر : هنرى دوديل ـ محمد على مؤسس مصر الحديثة ـ ترجمة / أحمد عبد الخالق وآخر ـ مكتبة الآداب القاهرة ـ ص ٥٧ .

الذهب الذى أشيع عنه كثيراً[(١)] .

وقد تحرك جيش محمد على فى يوليو سنة ١٨٢٠م ، واشتمل على حملتين **الأولى** : على رأسها إسماعيل بن محمد على ، وبلغ عدد رجالها أربعة آلاف مقاتل كان أغلبهم من العرب والمغاربة والألبانيين والأتراك ، ومعهم أربع وعشرون مدفعاً وحوالى ألف وخمسمائة فارس وكان معهم بعض الأجانب الأوربيين .

أما الحملة الثانية : فكان على رأسها محمد بك الدفتر دار (صهر محمد على) وتألفت من ثلاثة آلاف مقاتل تساندهم عشر مدافع لفتح كردفان .

وقد وصلت الحملة إلى وادى حلفا بصعوبة شديدة ، ثم انطلقت إلى دنقلة التى فرّ منها المماليك إلى سواكن ، وبعضهم إلى دار فور ، وغيرها .[(٢)] .

وواصل جيش محمد على زحفة حتى استولى على بربر فى ٥ مارس عام ١٨٢١ م ، ثم استولى على شندى ، وحلفاية ، وأم درمان ، وفى ١٤ يونيو عام ١٨٢١ م تمكن إسماعيل من احتلال سنار عاصمة مملكة الفنج ، كما وصلت قواته إلى فازوغلى ، ووادى مدنى . . . الخ ، حتى سيطرت جيوش محمد على على أغلب بقاع السودان .

وثمة قضية أود الإشارة إليها وهى : أنه قد حدثت تجاوزات عديدة صاحبتها أعمال سلب ونهب وقتل وتدمير وتشريد للآلاف ، وغرامات لم أشأ أن أتعرض لتفاصيلها وآثرت أنه أضرب الصفح عنها ، ولكن الذى أود التأكيد عليه بكل أساليب التأكيد هو أن ماحدث لاتتحمل تبعاته مصر ، ولا المصريين ، فهؤلاء القادة

---

(١) كاتب الشونة - مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية - تحقيق الشاطر بصيلى - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٦١ م - ص ٧٢ .

وانظر : د/ محمد جمعان الغامدى - ولاية الحبش - ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) دار الوثاق القومية - وثيقة رقم ١٩٩ - دفتر ٧ معية تركى - بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٣٦ هـ .

وانظر : Woddington : Journal Of AVisit To Some Parts Of Ethiopin London 1822. P .230 .

الذين قادوا الجيوش بأوامرهم البشعة كانوا جميعاً (بدون استثناء) غرباءعن مصر ابتداءاً من محمد على نفسه إلى أصغر جندى فى جيشه قد عانى منهم المصريين قبل أن يعانى منهم إخواننا فى شبه الجزيرة العربية [١] ، وفى السودان ، وأستطيع أن أؤكد على أنه لم يكن ضمن هؤلاء جندى واحد مصرى قد شارك فى هذه الأحداث البشعة التى آثرتُ الإشارة إليها عرضاً فقط .

هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت هذه هى طبيعة الحروب فى القديم والحديث وغالباً يحدث فيها كل ألوان القتل والتشريد ، والسلب والنهب وقانا الله شرورها .

النظام الإدارى فى السودان (عهد محمد على) :

اعتمد النظام الإدارى فى السودان على مجموعة من القيادات كان على رأسهم : -

١ - الحكمدار : الذى يشكل (الحاكم العام) وله جميع السلطات المدنية والعسكرية الكاملة ، ولكنه يتبع ديوان الداخلية بمصر ، وجعلت الخرطوم عاصمة ومقراً للحاكم العام (الحكمدار) .

٢ - المديرون : حيث تم تقسيم السودان إلى مجموعة من المديريات بلغت سبعاً هى (دنقلة - بربر - الخرطوم - كردفان - سنار - فازوغلى - التاكة) وعلى رأس كل واحدة منها مدير يساعده وكيل ومجموعة من المعاونين ، وكتبه ، وقاضى ، ومفتى ومجلس من الوطنيين للمشورة ، على طريقة(أهل مكة أدرى بشعابها) .

كما قسمت المديريات إلى أقسام يدير كل منها ناظر ، وفى كل مديرية حامية ، بينما كان يدير المدن الساحلية مثل مصوع وسواكن محافظ [٢] .

---

(١) انظر تحليلاً لذلك فى كتابنا : العلاقات بين مصر والحجاز ونجد - ص ٤٨ ومابعدها .

(٢) د/ مكى شبيكة - السودان فى قرن ص ٥٣ .

وانظر : Hill .Richard Egypt in The Sudan . 1820 ` 1881 . London .1959. P..23

كما أنشئ في كل مدينة رئيسية مجلس محلى للنظر فى المسائل الإدارية ، بينما كان هناك مجلس للحاكم يقبع فى العاصمة الخرطوم ، ويخضع للمجلس المخصوص (مجلس الوزراء) فى مصر ، أما عن النظام المالى فقد كان يعتمد قبل الحكم المصرى على نظام المقايضة (المبادلة) ، وبعد ذلك ظهر الدولار النمساوى وظهرت عملات فضية وأخرى ذهبية ، وازدادات ألوان التجارة المختلفة خارجية وداخلية وحينئذ انتشرت العملات المصرية خاصة فى المدن الكبرى (١) .

وتجدر الإشارة إلى أن السودان كان يحقق فى الغالب عجزاً فى الميزانية إذ أن المصروفات كانت تزيد عن الإيرادات .

ومما يجدر ذكره أيضاً هو أن السودان إدارياً كان يتبع عدة دواوين بمصر ، فهو من الناحية المالية كان يتبع ديوان المالية ، ومن الناحية العسكرية كان تابعاً لديون الجهادية وبقية الأمور الداخلية الأخرى ، كان يشرف عليها ديوان الداخلية فى مصر .

وقد أثبت هذا النظام فشله لأن السودان ظل ممزقاً فى معاملاته بين جهات متعددة تشعبت وتناحرت فيما بينها فتأخرت لذلك المصالح ، فاضطرت الحكومة أمام هذه المشاكل إلى توحيد كل مصالح السودان وإدارتها وتوجيهها إلى ديوان الجهادية (٢) .

تجنيد السودانيين .

ظل محمد على محافظاً على المصريين لاستغلالهم فى زراعة الأرض المصرية الخصبة وامداده باحتياجاته الزراعية والمواد الخام اللازمة للعمليات الحربية وبناء الدولة ولذلك فقد كان من بين عوامل غزوه للسودان - على مايبدو - تجنيد السودانيين

---

(١) Hill . Egypt in Th sudan P.34.

(٢) دار الوثائق القومية : وثيقة رقم ١٤٥ - دفتر ١٠ معية تركى - بتاريخ ٢٥ جمادى الأول سنة١٢٣٧هـ وانظر : وثيقة ٣٢٥ - دفتر ١٠ معية تركى - بتاريخ غرة ذى القعدة سنة ١٢٣٧هـ .

كما قدمنا .

والدليل على ذلك أنه ماإن استقرت السلطة المصرية فى السودان حتى سارع محمد على بإرسال أوامره ، وإلحاحه على قواده هناك بجمع أكبر عدد ممكن من الرجال الذين يصلحون للأعمال العسكرية والتدريبات المختلفة لتجنيدهم ضمن جيشه (١)

وتجدر الإشارة إلى أن مصادر هؤلاء الرجال كان يتم جمعه من قبل السلطات المصرية عن طريق الإغارة على البلاد السودانية وجمع عدة آلاف ترسل على وجه السرعة إلى مصر ، فى الوقت الذى منعت فيه إدارة محمد على بالسودان الجلابة من جمع الرقيق وبيعهم فى الأسواق ، وأصبحت هذه المهمة حكراً على السلطات المصرية .

وقد صاحب عملية جمع الرقيق من السودان ازدياد المطالبات الدولية الإنسانية بإلغاء الرق ، وعندما بدأت تظهر بعض الاعتراضات الانجليزية الموجهة لمحمد على لما يحدث فى السودان كان جاهزاً فى رده : بأنه قد أصدر أوامره لقواده بمنع تجار الرقيق ، إلا أن حركات العصيان التى حدثت من بعض القبائل الزنجية كانت تستلزم زحف القوات لفرض النظام ، وضم من يصلح للجندية إلى الجيوش النظامية حتى لايُعامل من انضم إليها معاملة الرقيق بل يتزوج ويرتقى فى الرتب على حسب إمكاناته (٢) .

ولذلك فقد كانت حاجة محمد على لعنصر آخر لتجنيده ملحاً لأنه لم يعد يطمئن إلى أخلاط جيشه فاقد الانتماء لمصر ، هذه الأخلاط الغريبة التى كان كل همها السلب والنهب ، والحصول على الغنائم .

---

(١) الوثيقة رقم ٤٧ ـ محفظة ١١ جهادية ـ أمر إلى ناظر الجهادية ـ فى ١٠ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ.
وانظر : د/ محمد جمعان الغامدى ـ ولاية الجبش ـ ص ١٣٥ .

(٢) د/ شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ حـ٢ ـ القهرة ـ ١٩٦٩ م ص ٤٠

اهتبل محمد على فرصة زيارة أحد القادة الأوربيين (الكولونيل سيف) الذى اعتزل الخدمة العسكرية برتبة (كابتن) وزار مصر سنة ١٨١٩ م حيث اعتنق الإسلام ونودى باسم سليمان باشا ـ فيما بعد ـ وأدى إعجابه بمحمد على إلى الانخراط فى العسكرية المصرية حيث أسند إليه مهمة إعداد جيشه الجديد من السودانيين فقد اتخذ من مدينة أسوان معقلاً ومعسكراً لتجميع الرقيق وتدريبه على يد سليمان باشا حيث توالت أعدادهم الكبيرة فى الوصول إلى هناك .

وعندما توسعت امبراطورية محمد على ، واحتاج الأمر إلى أعداد كبيرة من الجنود خاصة فى الحجاز ونجد واليمن التى كان يفقد فيها الكثير من رجاله بسبب الأوبئة ومقاومة القبائل ، وثورات العسيريين ، وغيرهم ، حينئذ لزم الأمر تجنيد آلايات كاملة من السودانيين .

ولذلك فقد تغير مكان تجميع السودانيين ، وأصبحت سواكن فى شرق السودان بدلاً من أسوان نظراً لقرب سواكن من الموانئ الحجازية ، وملائمتها لرسو السفن ، حيث تدفع بالأعداد الكبيرة من جميع أنحاء السودان لتتجمع بسواكن وتحصل على بعض التدريبات السريعة ، ولذلك تحصل على بعض الراحة كالتقاط للأنفاس ، وتستكمل معداتها ومؤنها ، ثم يستقل الجميع القوارب فى اتجاه موانئ الحجاز [١] .

وفى سنة ١٨٣٥ تم تجميع آلاى كامل أطلق عليه الآلاى ٢٤ أشرف عليه حكمدار السودان بنفسه (خورشيد باشا) [٢] ، وكانت الأوامر تصدر إلى محافظ جدة بسرعة جلب السفن إلى سواكن لنقله على أن ترسل احتياجات الآلاى من ملابس وأسلحة من نظارة الجهادية بمصر ومع كل الاحتياطات التى حاول محمد

---

(١) محمد جمعان الغامدى ـ ولاية الحبش ـ ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) د/ سعد الحلوانى ـ تجارة الحجاز ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ م ـ ص ٦٣ .

وانظر : الوثيقة رقم ٢٦٨ ـ دفتر ٦٧ معية تركى ـ من الجناب العالى إلى محافظ جدة ـ بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٢٥١ هـ والأمر رقم ٢٩٣ ـ دفتر ٦٧ معية تركى ـ من الجناب العالى إلى عسكر الأقطار الحجازية ٨ شعبان سنة ١٢٥١ هـ .

على اتخاذها إلا أن تجربة تجنيد السودانين قد أصابها الفشل الذريع ، ويرجع ذلك إلى : -

١ - موت أعداد كبيرة منهم حيث كانوا لايتحملون المرض مهما كان تافهاً .

٢ - إقدام أعداد كبيرة منهم على الانتحار ، ويبدو أن ذلك كان بسبب حالتهم النفسية المتدنية بسبب أخذهم من بين أسرهم قصراً ومن حياتهم التى اعتادوها إلى حياة ربما اعتبروها أوامر ونواهى وكبت لابد من الالتزام به وتنفيذه .

والدليل على ذلك أن أعداداً منهم كانت تصاب باختلال عقلى ، وهذا فى نظرى بسبب الحالة النفسية السيئة التى وصلوا إليها ، أضف إلى ذلك أنه ربما كان فى العجلة التى كان عليها الحالة العسكرية ، واحتياج الجيوش لأعداد كبيرة منهم قد دفعت القادة إلى تعجل تدريبهم ، والضغط عليهم بما هو فوق طاقتهم مما كان يدفعهم إما للإنتحار أوللمرض [1] .

وقد استخدم الجنود السودانيون فى أماكن عديدة كان من بينها اليمن ، ومكة ، وجدة ، وتشير الوثاق إلى أن عملية التجنيد ونقل الجنود السودانين قد استمرت حتى حوالى سنة ١٨٤٠ م ، ولذلك نشطت حركة ملاحيةللقوارب والسفن الناقلة طوال الثلاثينات من القرن التاسع عشر الميلادى ومن أمثلة ذلك :-

عندما ظهر بعض التناقض فى أعداد الجنود وبحارة السفن الراسية فى ميناء جدة ، اقترح أحمد باشا يكن سر عسكر الحجاز فى سنة ١٢٥٣ هـ/ ١٨٣٧م الإستعانة بمجموعة من السودانيين غير المدربين الذين سماهم فى رسالته (النفرات الأعجميين «الغشماء ») لتكوين بلوكين منهم حتى يمكن استخدامهم فى تلك السفن ، وأعمال الميناء المختلفة ، وتداول هذا الأمر مجلس جدة حتى تمت الموافقة

(١) الوثيقة ٥٩١ - ص ٧١ - دفتر ٥ يومية قيودات ورشة الجورنال بديوان المعاونة - غرة ذى الحجة إلى ١٧ صفر سنة ١٢٥٢هـ.

وانظر : الوثيقة ٢٧ - دفتر ١٥٦ مجلس ملكية - تقرير مجلس جدة عن محتفظ جدة رلى أمين بك وكيل ١٠٤ سرعسكر الحجاز - كم ٢١ محرم سنة ١٢٥٣ هـ إلى آخر الشهر .

عليه ، وبدأ التنفيذ فى نقل الجنود على وجه السرعة [١] .

الجوانب الإيجابية للحكم فى السودان

أجد لزاماً علىّ الإشارة إلى بعض الجوانب الإيجابية ، كما أشرت إلى الجوانب السلبية التى لم أشأ أن أتعرض لتفاصيلها حرصاً على المصلحة العامة من جهة ، ومن جهة أخرى أنها أموراً ليس لنا جميعاً فيها ناقة ولا جمل، وقد تمثلت الجوانب الإيجابية فى عدة نواحى من بينها : -

١ - المجال الزراعى : فقد بذلت جهود محمودة لدفع الأهالى إلى الإهتمام بالجانب الزراعى ، بإدخال زراعات عديدة ، ومكافحة الآفات ، وأرسلت بالفعل أعداداً من الفلاحين المصريين إلى سنار وكردفان لتدريب السودانيين على طرق الزراعة الحديثة عن طريق هؤلاء الفلاحين المهرة .

ونقلت بعض أنواع الزراعات الجديدة ، والفاكهة من مصر إلى السودان ، ومن بعض بلدان السودان إلى مثيلتها فيه كالعنب والليمون ، والتين ، كما تم تعميم زراعة النخيل من مكان إلى آخر (من دنقلة إلى الأقاليم الأخرى) ، إضافة إلى إدخال زراعةالأرز والبطيخ ، وبعض الخضروات والكتان والقطن[٢] . . الخ .

مجال التعدين

كما عملت الإدارة المصرية على استخراج خام الحديد من كردفان منذ سنة ١٨٢٨ م بطريقة حديثة بعد أن كان استخراجه يتم بطريقة بدائية وكميات قليلة ، بالإضافة إلى تقليل نفقات استخراجه [٣] .

---

(١) وثيقة رقم ١٦١ - دفتر ١٥٦ مجلس ملكية - صفحة ٢٥ ، مجلس جدة - فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٣هـ .

(٢) وثيقة ١٢١ - محفظة ١٩ بحربر - من أحمد ممتاز محافظ سواكن إلى مهردار الخديوى - فى ٩ شعبان سنة ١٢٨٦هـ . ، وكذلك وثيقة رقم ١٢٢ بتاريخ ١٠ شعبان
وانظر : وثيقة ٤٥٢ - ص ٥٨ - دفتر ١٠ عابدين - من رياض باشا إلى السكة الحديد بمصر - فى ٢٢ شوال سنة ١٢٨٨هـ و : د/ سعد الحلوانى - الحكم المصرى - ص ١٣٦ ومابعدها

(٣) Hill, Egypt in The Sudan. p.57 ` 58.

وكانت هناك جهود أخرى خاصة باستخراج معدنى الرصاص والكحل من جبل سواكن وبلغ المستخرج منه سنة ١٨٢٠ حوالى أربعة آلاف قنطار ، بينما كان المستهدف عشرة آلاف قنطار [١] .

وهناك محاولات أخرى فى مجال التجارة والمواصلات حيث نظمت عملية نقل البريد بين بربر وسواكن وغيرها ، وإنشاء مجلس تجار فى الخرطوم وسيرت السفن لنقل البضائع السودانية بين موانى السودان وكل من الحجاز والسويس ، والقصير ، والسماح للسفن الهندية بالحضور إلى هذه الموانى وتسهيل عملية مرور القوافل البرية من الداخل إلى الساحل عن طريق تشجيع القبائل على حمايتها بإقامة المراكز الداخلية التى تساعد هذه القوافل على المرور بسلام ، وتخفيض الضرائب ، وغير ذلك ، بالإضافة إلى عدد من المدارس التى أنشئت فى عهد الخديوى إسماعيل .

وثمة كلمة أردت أن أثبتها بصدق للتاريخ ، وهى أن الجهود المبذولة فى تعمير السودان ، وأغلب الإيجابيات كانت موجهة نحو الجيوش الجرارة التى كانت تنطلق إلى بلدان السودان والمناطق الأخرى ، ولخدمة السلطات العسكرية والإدارية وطلبات الولاة فى مصر التى لاتكاد تنتهى من منتجات زراعية ، ومعادن ، ورقيق ، وحيوانات للحمل والذبح ، والزينة كذلك ، ومع ذلك فقد استفاد السودانيون من بعض هذه الإيجابيات التى أوردتها لماما ، وهذا الحديث كما انطبق على مامضى فإنه ينطبق بلا شك على المجال التعليمى إذ أن المدارس التى افتتحت هناك فى السودان كانت لتخريج موظفين سودانيين لمعاونة السلطات الإدارية التابعة لولاة مصر ، بالإضافة إلى أن أغلب المدرسين الذين عملوا فى هذه المدارس كانوا منفيين ، وفى حالة نفسية سيئة ينطبق عليهم المثل " فاقد الشئ لايعطيه " وأقرب مثل على ذلك كان رفاعة الطهطاوى رائد النهضة التعليمية المصرية (ابن الأزهر الشريف) فى العصر الحديث .

---

(١) وثيقة (أمر) رقم ٣ - دفتر ٥ معية تركى - صادر إلى رستم أفندى ناظر المعادن - ١٨ محرم ١٢٣٥ هـ.
- وانظر : الأمر (الوثيقة رقم (٤) - المصدر نفسه .

الثورة المهدية فى السودان

حفل التاريخ بثورات عديدة نتجت عن القهر والظلم ، وأشكال الفساد المختلفة ، وقدر لبعضها النجاح ، وغنم البعض الآخر ذكراً حسناً حيث نال ما يستحق من التاريخ الحقيقى ، إلا الثورة المهدية انفردت بأنها لم تجد هذا الذكر ، ولم تحظ بالنجاح الذى حظيت الثورات والحركات الإصلاحية الأخرى به ، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى تكالب الظلمة عليها ، والمستعمرين حيث تكاتف الجميع ليس فى إخماد جذوتها فقط ، وإنما فى تشويه صورتها أمام العالم ولاسيما المسلمين الذين ردد علماؤهم ومؤرخوهم قبل عامتهم مايقوله المستعمرون وقبلهم الظلمة من بنى عقيدتهم .

هذه الثورة (المهدية) التى تكالب عليها المستغلون المستعمرون الإنجليز ، والترك والشراكسة ، والإيطاليين ، وزعماء وقادة مصر (الأجانب عنها) الذين أرغموا السودانيين بالسلاسل قبل المصريين بقيادة إنجليزية على وأد هذه الصحوة والحركة الإصلاحية الإسلامية .

هذه الثورة التى جمعت كل شعب السودان فى صف واحد ضد عدو واحد هو الأجنبى أياً كانت جنسيته إنجليزياً كان أم تركياً أم أوربياً تنصيرياً ، وظلمها الكتاب والمؤرخون الأوربيون بما وصموها به من صفات مشينة هى وصاحبها براء منها ، والمؤسف الأشد أسفاً مانقله بعض العرب المسلمين عن قول المستعمرين فيها بسبب سيطرة الأجانب على مقدرات الأمور فى بلاد العرب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، ناهيك عن هؤلاء الذين تربوا فكرياً وسفهاً فى أحضانهم (عن طريق البعثات والمدارس الأجنبية التى بلغ طلابها سنة ١٨٧٥م ١٨٩١٦ طالباً) ، ثم عادوا يرددون كالببغاوات الضالة الشاردة أفكارهم وألفاظهم وسلوكياتهم ، وكل منهم لايعلم أنه يساهم بلبنة أو بسهم مسموم فى تدمير وطنه ،أمته ، تاريخه ، وعقيدته ، رموزه الوطنية والدينية أى فى تدمير نفسه ، بيته ، ولده .

وشهد القرن التاسع عشر عدوان الأوربيين المستعمرين على الجزائر ، وتونس والهند والقوقاز ، وأفغانستان ، ومصر ، والخليج ، وإلى من . . الخ ، فى الوقت الذى ضعفت فيه الدولة العثمانية ، وأخذت البلدان الإسلامية تنسلخ منها الواحدة تلو الأخرى .

محمد أحمد المهدى :

هو أحد الدعاة المصلحين الذين ظهروا فى العصر الحديث كنتيجة حتمية لما أصاب العالم الإسلامى من تفكك وضعف ، وسيطرة الأجانب المستعمرين المنصرين ، وممن ساروا فى فلكهم .

وقد ولد محمد المهدى بجزيرة لبب سنة ١٨٤٤م على بعد خمسة عشر كيلو متر من دنقلة ، والبعض يعود بنسبه إلى الحسن السبط بن على (كرم الله وجهه) ، اتجه منذ حداثة سنه نحو العلوم الدينية فدرسها فى الخرطوم ، وبربر ، وظهر عليه الورع والزهد ، وحب العلم والعلماء فأنشأ فى مدينة الخرطوم مدرسة سنة ١٨٦٣م ، ثم انتقل منقطعاً للعبادة إلى جزيرة آبا فى النيل الأبيض ، ومنها بدأت دعوته للإصلاح وتنقية أمور الدين والعقيدة الإسلامية مما لحقها من أباطيل وخزعبلات ، وعزا ذلك إلى الأجانب من كل الاتجاهات ، ولذلك اشتملت دعوته وركزت على طرد هؤلاء وهؤلاء ، وترك السودان للسودانيين .

هذه الدعوة التى لاقت استجابة واسعة على مستوى السودان ككل فى سنوات قليلة سرعان ماانتشرت ، وتغلغلت فى النفوس فقد وجدت قائداً يوجهها نحو العودة إلى الدين الصحيح دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وطرد الأجانب أياً كانت انتماءاتهم فهى دعوة دينية سياسية اقتصادية كذلك .

إذا أردنا تحديداً لأسباب نشوب الثورة المهدية فلنا أن نعلم أن السودان لم يرزح فقط تحت نير العثمانيين وقادة مصر إنما كان الأجانب يتحكمون فى أموره بعد أن عين هؤلاء القادة حكاماً أجانب ، وأصبحت أغلب الإدارة السودانية منهم فكان الحاكم فى بحر الغزال هو الإنجليزى ليبتون بك بعد استقالة الإيطالى جيسى ،

وكان سلاتين النمساوى وكذلك اميليانى ، والإيطالى ميسداليا فى دارفور ، بينما حكم الدكتور شنتزر الألمانى مديرية خط منزجر شرق السودان ، وحكم السودان ككل الحكمدار (غوردون) الإنجليزى .

هذا بالإضافة إلى القادة الأجانب للجيوش التى أرسلها حكام مصر مثل الجنرال لورنج الذى عمل كرئيس لأركان حرب جيش السودان وهو أحد القادة الأمريكان ، وكذلك الضابط الأمريكى وليم داى الذى شارك فى حملة راتب باشا على الحبشة ، وأرندروب بك الدانمركى الأصل الذى قاد الجيوش فى السودان كذلك [١] .

ويضاف إلى حكم الأجانب للسودانيين ، كثرة الضرائب ، ومنع تجارة الرقيق ، واحتكار بعض الموارد الاقتصادية ، وتجنيد السودانيين قصراً ، وغير ذلك مما كان سبباً فى اشتعال الثورة وانتشارها فى كل أنحاء السودان .

والخلاصة أيضاً فى أسباب الثورة مع تسليمنا بكل الأسباب السابقة تكمن فى أن الشعوب لاتبحث عن أسباب أو عوامل تدفعها للثورة ضد المستغلين الغاصبين أياً كانت جنسياتهم وحجمهم فى استعمار البلاد ، حتى ولو كان هذا الاستعمار فى صالح المحكومين وحتى لو كانت مصر فى السودان فإنها لاتخرج عن كونها باغية مستغلة له فما بالنا ، وقد كان السودان محكوماً فى الحقيقة بخليط من الأمم المتعجرفة يتعالون على سكانه ، وأصحاب أرضه ، خليط من الموظفين المنفيين ، والأجانب الإنجليز ، والسويسريين ، والألمان ، والإيطاليين . . . الخ .

ويكفى أيضاً القول أن الثورة قد قامت فى وجه البغى والاستغلال فى كل صورة وغالباً تنتظر الشعوب من يقودها نحو انتزاع الحرية من مغتصبيها ، وقد انبرى محمد المهدى لقيادة شعبه فوفدت إليه الجموع من كل فج فى السودان يؤيدون دعوته ويناصرونه لطرد المغتصب المعتدى ، ولولا تدخل الإنجليز بكل القوة ومؤزارتهم

(١) د/ شوقى الجمل - تاريخ سودان وادى - ج٢ - ص ٣٠٦ ومابعدها .
وانظر د/ سعد الحلوانى - الحكم المصرى - ص ١٧٤ .

للإدارة المصرية المنحرفة الفاشلة (الغريبة عن مصر) ضد السودانيين لكان للسودان الشقيق شأن آخر فى أمسه ، ويومه ، وغده .

وقد بدأت ثورة المهدى بإعلان دعوته فى أغسطس سنة ١٨٨١م ، ومؤازرة عبد اللّه التعايشى زعيم البقارة لها ، فأخذ يرسل كتبه ومناشيره إلى علماء الدين السودانيين ، ومشايخ الطرق الصوفية الذين كان لهم زعامة روحيةعلى أغلب السودانيين حينئذ ، وعلى الفور أعلن البعض منهم ، ولاءه ، بينما آثر البعض الآخر الترقب لتطورات الموقف .

وعندما تواترت الأخبار عن دعوة المهدى لم يعبأ بها حكمدار السودان / محمد رؤوف باشا ، حتى ازداد نشاط الدعوة ، فأرسل الحكمدار فى طلبه ، ولكن المهدى رفض فأرسل له سفينة تحمل فصيلة من الجنود للقبض عليه ، ولكن مصيرها كان الفناء .

وتطورت الأحداث سريعاً ، تلك الأحداث التى صاحبت الثورة العرابية ، وبداية الاحتلال البريطانى لمصر ، عندما تمكن المهدى من دخول مدينة الأبيض (عاصمة مديرية النيل الأبيض) فى منطقة كردفان ديسمبر سنة ١٨٨٢م والاستيلاء عليها .

وكان هذا الانتصار للمهدى مدوياً حيث استولى على أسلحة وعتاد عضد من موقفه ، وازدادت شعبيته فتناقل الناس أخبارهم بما أضافوه من ثبات أفكارهم من خوارق ظهرت على يديه فاستغلتها خصومة الأجانب ومن سار على نهجهم بتصويره على أنه مخبول أو درويس أو أفاق ، ووصموه بكل الصفات المشينة وعندما أرادت الحكومة المصرية استعادة الأبيض أرسلت جيشاً جراراً بلغ عشرة آلاف جندى بقيادة إنجليزية هو الضابط الإنجليزى هكس (الذى كان يخدم فى الهند) يعاونه أركان حرب مكون من اثنى عشر أوربياً، وعلى مشارف الأبيض وفى ٥ من نوفمبر سنة ١٨٨٣ لقى هكس وجيشه هزيمة شنيعة أبيد فيها جيشه عن بكرة أبيه ، ويذكر فى هذا الصدد أنه قد تم اكتشاف أن عدداً من الضباط والجنود المصريين ممن كانوا فى

جيش هكس - وبعد مرور خمسة عشر عاماً - كانوا يعملون فى صفوف جيش المهدية برغبتهم وأن المدفعية التى دافعت عن مدينة أم درمان (عاصمة المهديين) سنة ١٨٩٨م كانت مصرية بأسلحتها ورجالها [١] .

وفى السودان الشرقى الذى كان عاصمته سواكن ، وبها الحامية العسكرية ، بدأت بوادر الثورة فيها بعد أن شخص عثمان دقنه (أحد الأثرياء التجار المشهورين) على رأس مجموعة من وجوه القوم فى السودان الشرقى إلى الإمام المهدى لمبايعته حيث ولاه الأمير زعامة السودان الشرقى ، وحمله بالكتب الموجهة إلى المناطق وزعماء القبائل والانقياد لأوامره [٢] .

فقد كان كما قال فيه اللورد كرومر [٣] (ايفلين بارنج) الممثل البريطانى فى مصر أن عثمان دقنة : "كان على جانب كبير من الكفاءة ، كما كان الرجل الذى اختاره القدر ليلعب دوراً رئيساً فى شرق السودان .

ووقعت معارك عديدة بين قوات عثمان دقنة ، والقوات الحكومية المرابطة فى السودان فى سنكات ، وأركويت ، وقباب ، وابنت ، والتيب الأولى ، والثانية وطماى . . . وغيرها كان النصر فيها فى الغالب للثوار الموالين للمهدى وعثمان دقنة [٤] .

كما حدثت كارثة كبيرة لحملة كان على رأسها هكس فى نوفمير ١٨٨٣م ، حيث

---

(١) د/ جلال يحيى - العالم العربى الحديث - القاهرة - ١٩٩٧م - ص ٢٣٥ .
(٢) انظر التفاصيل فى :
محافظ مجلس الوزراء - محفظة ٩/ ١/ ب - السودان - الثورة المهدية - من حكمدار عموم السودان فى ٣ أغسطس ١٨٨٣ .
- وانظر : د/ شوقى الجمل - تاريخ سودان - ح٣ - ص٣٣ ومابعدها .
و : إبراهيم فوزى (باشا) - السودان بين يدى غوردون وكتشنر - ج١ - القاهرة - ١٣١٩ هـ ص ١٧٦ ومابعدها .
(٣) اللورد كرومر - بريطانيا فى السودان - ترجمة / عبد العزيز أحمد عرابى - الشركة العربية للطباعة والنشر - ط١ - القاهرة - ١٩٦١م - ص ٤٠ .
(٤) انظر تفاصيل المعارك فى كتاب : اللورد كرومر - بريطانيا فى السودان - ص ٤١ وما بعدها .

فقد معظم جنوده فيها ، كما استسلم سلاتين باشا مدير فور ، وكذلك ولبتون مدير بحر الغزال للمهدى ، ولذلك فقد بدأت الحكومة الإنجليزية تسعى إلى إخلاء السودان ، رغم معارضة بعض القادة ، والحكومة المصرية ، وفى ٤ من يناير سنة ١٨٨٤م جاءت أوامر اللورد جرانفيل - رئيس الوزراء البريطانى إلى اللورد كرومر بضرورة تنحى كل وزير أو مسئول فى مصر لايسير وفقاً لسياسة الإخلاء (١) .

وقد وجدوا ضالتهم فى نوبار باشا الذى تقلد الوزارة المصرية على شرط إخلاء السودان (٢) .

ولم تكن سياسة الإخلاء بالأمر السهل بل كان صعباً وشيئاً مستحيلاً لانقطاع الطرق بسيطرة ثوار المهدى عليها ، واختارت بريطانيا غوردون لهذه المهمة حيث تم تعينه حكمدار على كل السودان ، وما أن وصل الخرطوم حتى تم حصارها ، وانتهى إلى أن لقى فيها حتفه فى ٢٦ من يناير سنة ١٨٨٥م وتمكن الثوار من اقتحام العاصمة والسيطرة عليها (٣) .

وأتفق مع الدكتور / جلال يحيى فى أنه قد كانت هناك صلات وثيقة بين ثوار وثورة الشمال (مصر العرابية) ، وثوار وثورة الجنوب (السودان المهدى) فى وادى النيل ، كما أتفق مع من قال بنوايا المهدى وسعيه فى القبض على غوردون باشا حكمدار السودان ، وعدم قتله حتى يبادل به أحمد عرابى ، وينقذه من محاكمة الإنجليز له .

وعلى كل فقد ثوار المهدى غوردون ، وأقامت انجلترا الدنيا ولم تقعدها تهيئة للرأى العام ، وللثأر كمبرر لإرسال جنودها إلى الخرطوم ، والاستيلاء على السودان فيكون ذلك من فعل يديها ، حتى يطيب لها استعماره (٤) .

---

(١) رئاسة مجلس الوزراء - السودان المطبعة الأميرية - القاهرة ١٩٥٣م - ص٢ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى - مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال - ط ١ - ١٩٤٢م .
(٣) سعد الحلوانى - الحكم المصرى - ص٢١٣
(٤) د/ جلال يحيى - العالم العربى - ص ٢٣٨ .

استعادة السودان:

بعد أن تمكن المهدى من دخول الخرطوم اتخذها عاصمة لبلاده ، وبدأ فى إجراءات الحماية التى تكفل له صد اعتداءات الإنجليز والأتراك المتربصين به ، ومع ذلك فلم تمهله المنية حيث لقى ربه فى سنة ١٨٨٥م موصيا بالخلافة من بعده لرفيقه عبد الله التعايشى الذى كان قد أطلق عليه أبا بكر .

وقد صادف خليفته عبد الله مشاكل وأخطار عديدة بعضها داخلية ، والبعض الآخر خارجية حيث دخل فى صراع عسكرى مع الحبشة تمكن فيه من هزيمة الأحباش عدة مرات استولى فى إحداها على عاصمتهم غاوندا كما قتل امبرطور الحبشة فى مارس ستة ١٨٨٩م على يدى قوات المهدية .

وجاءته الأخطار أيضاً من جانب الإيطاليين الذين استولوا على أجزاء كبيرة من شرق السودان حتى أنهم تمكنوا من دخول كسلا فى سنة ١٨٩٤م ، ولكن حالفته الأقدار إذ قام الأحباش بكسر شوكة الطليان والقضاء على قدر كبير من قواتهم فى معركة عدوة سنة ١٨٩٦م .

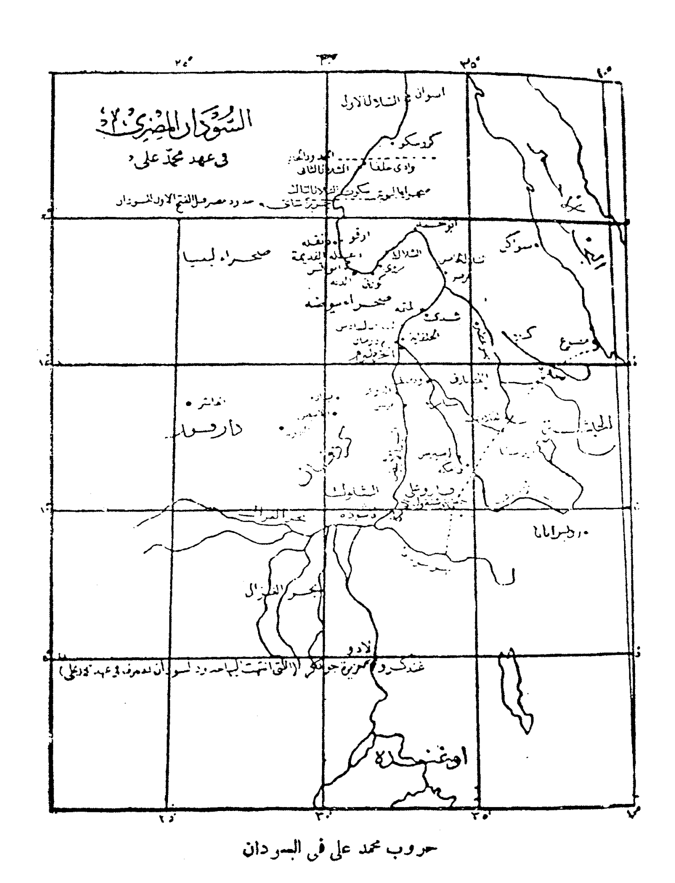
وفى العام نفسه تم تجهيز حملة إنجليزية باسم مصر بقيادة القائد العام السردار كتشنر الذى تمكن بعد معركة شرسة مع قوات المهدية حول أم درهان من دخولها وهزيمة المهديين ليقضى بذلك على إحدى الدعوات الثورية الدينية التى كانت إحدى صور مقاومة الاستعمار فى العالم العربى الإسلامى .

وقدتمت استعادة السودان فى سنة ١٨٩٩م بمشاركة مصرية إنجليزية وقام على أثر ذلك الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى مع ماصاحبه من نزاع مستمر بين الإنجليز والحكومات المصرية كان فيه الإنجليز الأقوى نفوذاً وسلطة ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى قتل حاكم السودان سنة ١٩٢٤م حينئذ اضطر الجيش المصرى للإنسحاب من السودان ، ولكنه عاد مرة أخرى بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦م .

وفى سنة ١٩٤٤م تألف أول مجلس استشارى حكم شمال السودان، وظهرت أول جمعية تشريعية سنة ١٩٤٨م كمقدمة لاستقلال السودان ، وبعد استفتاء أقيم بين الشعب السودانى على الاستقلال أو الوحدة مع مصر تم بعده إعلان السودان جمهورية مستقلة فى يناير سنة ١٩٥٦م بعد موافقة مجلس الأمة المصرى ، وبعدها انضم السودان إلى جامعة الدول العربية ، وأصبح كذلك عضوا فى هيئة الأمم المتحدة ، وتوج السودانيون هذه المكاسب بقيام حركة شعبية تمكنت من إقصاء العسكريين عن الحكم وإقامة حكومة مدنية برئاسة سر الختم خليفة ابتداء من أكتوبر سنة ١٩٦٤م [1] .

• • •

(١) د/ زاهية قدوره - تاريخ العرب - ص ٤٠٤ ومابعدها .



حروب محمد على فى السودان

الباب الثالث

شبه الجزيرة العربية

الفصل السابع: السعودية

الفصل الثامن: اليمن

الفصل التاسع: الخليج العربى





الفصل السابع
السعودية

السـعودية

أولاً: الحجاز :

ظلت المدينة المنورة عاصمة للحجاز وللأمة الإسلامية حتى عهد على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - عندما انتقلت الخلافة إلى الكوفة ، وتبعها الحجاز ، ثم فى العصر الأموى انتقلت إلى دمشق ، وفى العصر العباسى اتخذت بغداد حاضرة للعالم الإسلامى بما فيه الحجاز (١) .

ومنذ أن استولى الفاطميون على مصر (٣٥٨هـ) ٩٦٩م ، واتخاذها حاضرة لهم ضموا إليها الحجاز الذى ظل منذ ذلك الحين يتبع الدولة الكبرى التى تسيطر على مصر ، مثل الأيوبيين ، فالمماليك فالعثمانيين (١) .

فلقد ترتب على دخول العثمانيين مصر أن دخل الحجاز سلمياً فى فلك الحكم العثمانى عندما بادر الشريف بركات فأرسل ابنه أبانمى إلى القاهرة حاملاً مفاتيح الحرمين الشريفين معلناً الولاء للعثمانيين حينئذ أكرمه السلطان سليم ، وحمّلة تفويضاً لأبيه فى حكم الحجاز تحت السيادة العثمانية ، تمثلت هذه السيادة فى تعيين عدد من الولاة العثمانيين على المدن الحجازية الهامة كالمدينة وينبع وجدة ، ودعم العثمانيون وجودهم بحاكم عثمانى مع حامية عسكرية مركزها جدة ، وأضيفت إليه وظيفة مشيخة الحرمين للإشراف على التعمير فيها .

وقد أقرت الدولة العثمانية نظام تبعية الحجاز واليمن وباشوية الحبش إدارياً لولاية مصر حتى أن الحملات العسكرية كان لابد من مرورها بمصر أولاً ، وقد لقب والى مصر بألقاب عديدة منها : الوزير المعظم ، كافل المملكة الشريفة الإسلامية

---

(١) أحمد بن زينى دحلان - خلاصة الكلام فى بيان أمراء البيت الحرام - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ١٣٩٧هـ - ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك عند : د/ سعد بدير الحلوانى - العلاقات بين مصر والحجاز - ص٢ومابعدها .

بالديار المصرية ، والثغور المحمية ، والأقطار الحجازية كما أطلق عليه حافظ الديار المصرية والأقطار الحجازية (١) .

كما أخذ الارتباط يزداد بين مصر ومنطقة الحجاز فى المجال الدينى والاقتصادى بعد أن أصدر السلطان العثمانى سليمان المشرع أوامره بتعيين وتخصيص بعض القرى المصرية ووقف إيراداتها على مصالح الحرمين الشريفين ، وخاصة الكسوة الشريفة التى ترسل وأصبح والى مصر يضطلع بأمر قافلة الحج ، ومخصصات الحرمين ، والمحمل والكسوة . . . . . الخ (٢) .

أما الأشراف فقد خضع لهم الحجاز منذ القرن الرابع الهجرى عندما تولى أبو محمد جعفر الموسوى مؤسس الأسرة الشريفة الأولى حكم مكة ، وظل يُختار للإمارة بناءاً على موافقة كبار الأشراف عليه ، ثم يُطلب من سلطان مصر أو السلطان العثمانى تثبيته فى منصبه وكان منصب الشرافة يجلب العديد من المكاسب المادية والمعنوية على من يتولى هذا المنصب ، مما أدى إلى الصراع عليه ، وزاد الصراع تدخل الولاة والقادة الأتراك فى الوقيعة بين الأشراف للتمكن من السيطرة عليهم ، وبعد أن دب الضعف في عظام الدولة العثمانية لم يعد السلطان يعتنى سوى بإرسال المحامل الثلاثة من العراق والشام ومصر ، ولم يعد فى الحجاز موظفون أتراك (فى المناصب الرئيسية) سوى القاضى والمحتسب ، وصنجق جدة .

ويبدو أن قوتهم فى الحجاز كانت تتذبذب بين الضعف والقوة إذ نفهم من تدخل على بك الكبير فى الصراع الدائر بين الأشراف مدى الضعف الذى أصاب العثمانيين

---

(١) القطبى (قطب الدين النهروالى) - الإعلام بأعلام بيت الله الحرام - مكتبة الكليات الأزهرية - مصر - ١٣٠٥ هـ / ص١٩١ ومابعدها .

وانظر : د/ سعد الحلوانى - العلاقات بين مصر والحجاز ونجد - ص٥ .

(٢) المصدر السابق ، وانظر : د/ مصطفى محمد رمضان - وثائق مخصصات الحرمين الشريفين فى مصر إبان العصر العثمانى وأهميتها فى تاريخ الجزيرة العربية - ندوة تاريخ الجزيرة - الرياض - ١٣٩٧هـ - ص١٥ .

و : د/ السيد محمد الدقن - كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ - ط ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م - ص٩٥ .

فى الحجاز .

فعندما نشب الخلاف سنة ١٧٦٨م بين الشريف مساعد بن سعيد (من ذوى زيد) ، وعبد الله بن حسين من آل البركات شخص الأخير إلى مصر مستنجداً بعلى بيك الكبير الذى اهتبل الفرصة للتمكين لنفسه ، ولأنه يُعدّ العدةُ للانفصال بمصر عن الدولة ، وأرسل محمد بك أبا الذهب كأمير للحج مصاحباً للبركاتى لمساعدته على تولى الإمارة والشرافة ، ولكنه لم يستطع سنة ١٧٦٩م فعاود الكرّة فى العام التالى بجيش كبير ، وتمكن من تنصيب البركاتى ، وترك حامية كبيرة ليظل الحجاز تابعاً له فى تنفيذ مأربه [١] .

وبالنسبة لصنجق جدة فقد اهتمت الدولة بتدعيم القوة العسكرية التى تحت إمرته دفاعاً عن البحر الأحمر ، وعن الميناء ، وحماية أيضاً لحدود مصر الجنوبية ، وبعد أن وصل سلطان العثمانيين إلى سواكن ومصوع على الساحل الغربى للبحر الأحمر أطلقوا على هذا الجزء الجديد الذى ألحق بصنجق جدة اسم : « ولاية الحبش » لأنها بمثابة المخرج الوحيد البحرى لبلاد الحبش ، وبعد فترة صار صنجق جدة فى القرن التاسع عشر صاحب السلطة الرئيسية فيما يخص الحجاز وولاية الحبش معاً [٢] .

وتغير مسمى ولاية الحبش بعد فترة إلى ولاية جدة حتى الثمانينات من القرن الثالث عشر الهجرى ثم أطلق عليها ولاية الحجاز ، وتحولت جدة سنة ١٨٧١م من ولاية إلى متصرفية وبعد سنة واحدة عادت ولاية مرة أخرى [٣] .

ومع ذلك فقد ظل الحجاز تحت سيادة العثمانيين وحكم الأشراف غير آمن

---

(١) الجبرتى - عجائب الآثار - ج١ - ص ٤٥٥ ومابعدها .
و : د/ سعد الحلوانى - العلاقات - ص ٨ ومابعدها

(٢) محمد جمعان الغامدى - مدينة جدة فى عهد الملك عبد العزيز ١٩٢٥ - ١٩٥٣ - رسالة ماجستير - كلية اللغة العربية ج الأزهر - ١٩٩١م - ص ٣٦ .

(٣) إسماعيل حقى أوزون جارشلى - أمراء مكة فى العهد العثمانى - ترجمة د/ خليل مراد - ١٤٠٦هـ - ص ٤٣ .

بالنسبة للحجاج حيث استمرت القبائل فى تهديد أمن وسلامة الحجاج على الرغم من تحصنهم بقوافل تتقدمها حاميات عسكرية ، لكن الأشراف كانوا يُشغلون هذه الحاميات فى صراعهم على الشرافة مثلما حدث فى الصراع المتقدم ذكره بين مساعد ابن سعيد ، وعبد اللّه البركاتى ، ومثال آخر فى الصراع الذى دار سنة ١٧٧٣ بين سرور بن مساعد الذى استنجد بأمير الحج المصرى إسماعيل بك الدفتر دار ضد أحمد بن سعيد الثائر عليه فأمده بفريق من الخيالة المصريين المعينين لحراسة قافلة الحج (١).

كذلك الاعتداءات التى حدثت على قافلة الحج المصرى سنة ١٧٧٦ ، ولما قبض أميرها على بعض من المعتدين وأمر بكيّهم بالنار اجتمعت القبائل على القافلة وأعملوا فيها السيف ، واستولوا على المحمل ولم يخلصه منهم إلا الشريف سرور الذى اضطر إلى دفع فدية مقدارها أربعمائة ريال فرانسى (٢) ، وصاحبه فى عودته إلى مصر (٣) .

ثانياً : نجد

تعدمنطقة نجد من مناطق الاستقرار البشرى القديم التى سكنتها قبائل طسم وجديس وكانت قاعدتها مدينة حجر ، وإقليمها : اليمامة .

وفى اليمامة سكنت قبيلة (عنزة) حيث بقايا قصور ونخيل طسم ، ثم جاءت قبائل حنيفة من عالية نجد وأطراف الحجاز فاستولت على حجر ، فاجتمعت عنزة وحنيفة قبل ظهور الإسلام بقرنين من الزمان ، واحتفظ الخلفاء الراشدون وبنو أمية

---

(١) مخطوطة حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج - ورقة ٨٥ - مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج - رقم ٨٢ تاريخ .

(٢) الريال الفرانسة كان متداولاً فى القرن التاسع عشر ، وقيمته كانت تدور حول عشرين قرشاً تقريباً .
- انظر : دار الوثاق القومية - الوثيقة ٧٢ - دفتر ١٥٦ - مجلس ملكى محفظة ٦ الحجاز - قرار صادر من مجلس جدة - فى ١٢ صفر سنة ١٢٥٣هـ .

(٣) الجبرتى - عجائب الآثار - ح٢ - ص١٩٧ .

بمدينة حجر قاعدة الإقليم اليمامة (نجد) الذى كان امتداده من حدود البحرين شرقاً ، والعراق فى الشمال الشرقى ، ويضم القصيم شمالاً ، والأفلاج جنوباً ، كما يمتد إلى الربع الخالى ، وتشرف حدوده على أقاليم الحجاز (١) .

وفى حوالى سنة ٩٠١م أصابت اليمامة بعض الكوارث حملت أهلها للرحيل والهجرة إلى مصر فى آلاف عديدة حيث سكنوا بين القلزم والنيل ، وابتنوا مساكن لهم كذلك فى منطقة أسوان والعلاقى ، وبعضهم هاجر إلى البصرة (٢) .

وفى العصر الحديث عُرفت حجر بأسماء القرى التى انقسمت إليها من بينها : مقرن ومعكال ، حتى ظهر اسم : الرياض فى القرن الثامن عشر بعد انحسار اسم حجر وسميت بالرياض لأنها أرض منخفضة تنساب إليها مياه السيول فتتحول إلى أرض خضراء ، ويبدو أن هذا التحول قد صاحب فترة ظهور الدعوة السلفية فى نجد فبدأت المنطقة تأخذ أطوار جديدة سواء فى الرياض بسورها الذى بنى سنة ١٧٥٠م ، وقصر الإمارة فيها الذى بنى قبله بثلاث سنوات (سنة ١٧٤٧م) ، وكذلك مدينة الدرعية التى تقع على بعد ١٨ كم من الأولى ، تلك المدينة التى احتضنت الدولة السعودية الأولى (٣) .

ويبدو أن الكوارث الطبيعية كانت للرياض بالمرصاد فى القرن الثامن عشر إذ تلاحقت عليها المحن فى هذا القرن ، ففى سنة ١٧٤٩م ، أصيبت بموجة من الصقيع والبرد الشديد الذى ذهب بالمحاصيل وأتلفها ، وانتهت الرياض إلى سنة عجفاء وفى سنتى ١٧٦٢ ، ١٧٦٣ ، أصيب نجد كلها بوباء شديد تلته موجات وأسراب عديدةمن الجراد غزت البلاد ، كما حدثت مجاعة شديدة فى ١٧٧٣م أدت وفاة الكثيرين (٤) .

---

(١) حمد الجاسر - مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ - دار اليمامة الرياض - ١٩٦٦ - ص ١٥ ومابعدها .
(٢) ابن حوقل - صورة الأرض - مكتبة الحياة - بيروت - ص ٣٨ .
(٣) Phillby - Saudi Arabia -London-1955- p.43-67.
- وانظر : Rugh; William A-Riyadh - History and Cuide1969-p.10-11
(٤) philly - Saudia Arabia- p.62-63.

كما شهد القرن التاسع عشر قلاقل وحروب عديدة - كما سنرى - انعكست على سكان نجد ، ولا سيما عاصمته الرياض وتخريب إبراهيم باشا بن محمد على للدرعية سنة ١٨١٨ ، وتغيير السلطة فى الرياض مرات ، ثم أخيراً الخلافات العديدة التى تبعت وفاة فيصل بن تركى بين ذريته ابتداءاً من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٧٦ ، والتى انتهت بضياع ملك آل سعود وتسلط آل الرشيد على قاعدة نجد ، (الرياض) حيث هدموا أسوارها ، وكثيراً من مساكنها وقصورها ، وأصابها دمار شديد (١) .

وقد زار الرياض وليم بلجريف W.C.Palagraveسنة ١٨٦١م ، ورسم لها خريطة كروكية ، ووصفها كشاهد عيان بأسواقها وبائعيها بحيواناتهم ، كما وصف قصورها ومنازلها ، ومساجدها . . الخ (٢)

ومن ناحية أخرى فقد أصاب نجد ماأصاب شبه الجزيرة العربية (بعد مرور أحد عشر قرناً على ظهور الدعوة الإسلامية) من اضمحلال وضياع لكثير من القيم والمفاهيم الإسلامية الأصيلة ، فانقلبت البلاد إلى أجزاء متفرقة متناحرة فيما بينها ، مع عصبيات قبلية ظلت تمزق المجتمع وتفتته ، مع إحلال الضلالات والأساطير والخرفات والبدع محل هذه التعاليم المنيرة الإسلامية فى نفوس العامة ، والخاصة على السواء ، وأصبح الغزو والسلب والنهب مصدراً للارتزاق فى صحراء شبه الجزيرة العربية ، وفى اعتقادى أن للصوفية التى انحرفت بالمفاهيم الإسلامية دور كبير فيما وصل إليه حال المسلمين من عنايتهم بالقبور والأضرحة ، والموتى من الأولياء والصالحين أكثر من عنايتهم بخالقهم جل شأنه (والعياذ بالله) .

وقد كثر الاعتقاد فى القبور ، وزاد الاعتناء بالبناء عليها ، واهتم الناس ببعض الأشجار والأحجار ، بل والاستعانة بالجن ، والذبح لهم ، والاعتقاد فى شفاء

Philly - Saudia Arabia- p. 226-235. (١)
Rugh - Riyadh-p.15-18.(٢)

المرض وقضاء الحاجات من كل هذه الخزعبلات .

آل سعود ودعوة ابن عبد الوهاب الإصلاحية

كان الوضع على ماشرحناه فى نجد ، والحجاز ، وعسير بل وأغلب بلاد العالم الإسلامى ، فى مصر ، فى السودان ، فى المغرب العربى . . . الخ وأسوء منه كان بالبلاد الأفريقية الغير عربية .

والذى نحن بصدده مايخص شبه الجزيرة ، وعلى وجه الخصوص منطقة نجدالتى ظهر فيها مصلح زمانه والزمان الذى تلاه الشيخ :-

محمد بن عبد الوهاب

لقدظهرت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مجموعة من دعوات الإصلاح والعودة إلى الدين الصحيح ، ونبذ الترهات والأباطيل التى جرّت المسلمين بعيداً عن عقيدتهم الصحيحة ، وأغرقتهم فى ظلمات الجاهلية الأولى .

ولكن هذه الدعوات الإصلاحية لم يقدر لها البقاء أو الاستمرار فترات طويلة اللهم إلا دعوة محمد بن عبد الوهاب .

وقد ولد محمد سنة ١٧٠٣م فى بلدة العُيينة إحدى قرى وادى حنيفة بنجد ، وربّاه والده (القاضى / عبد الوهاب بن محمد التميمى) على القرآن والأحاديث النبوية الشريفة وكذلك الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، فاستظهر القرآن فى سن العاشرة ، وزوجه أبوه فى سن الثانية عشر بعد بلوغه مبلغ الرجال ، وبعد سنوات قليلة رحل إلى الحجاز (مكة ، المدينة) ، واختلط علمياً ببعض علماء الفقه ، كما رحل إلى الإحساء والبصرة مرات عديدة وقف فيها على حالة المسلمين الفكرية والدينية ومآلوا إليه من خلاف واختلاف ، وركود بعيداً عن التعاليم الإسلامية الصحيحة .

حينئذ جهر بدعوته للعودة إلى نقاء الإسلام وصحيحه فى البصرة ثم فى العيينُة (مسقط رأسه) التى تسربت منها دعوته إلى المناطق القريبة من بينها الدرعية التى

انتقل إليها الشيخ فآمن منها نفر أشاعوا أمره وأمر دعوته حتى بلغت مسامع أمير الدرعية (محمد بن سعود) وزوجته (موضى بنت أبى وطبان) تلك المرأة التى امتازت بحصافة الرأى فأشارت على زوجها أن يكرم وفادته وأن يغتنم ماخصه الله به ليدافع عنه ويجاهد من أجله .

وبالفعل تم الاتفاق بين الشيخ والأمير سنة ١٧٤٠م/ ١١٥٨هـ ، فقضى الشيخ حياته فى الدرعية يحيط الأنصار ، والأمير محمد بن سعود وذريته من بعده ينصرونه وينصرون دعوته رغم معارضة بعض القبائل ، وبعض المناطق كأمير الرياض دهّام بن دواس وقبائل الوشم وسدير ، وغيرهم [١].

وتجدر الإشارة إلى أن آل سعود ترجع أصولهم إلى قبائل ربيعة إحدى القبائل العربية الكبيرة التى تتفرع فى نجد والعراق وسوريا بل تعد كذلك من أكبر القبائل عشيرة وعدداً ، ومن بين عشائر ربيعة (آل سعود) انتقل حدهم مانع بن المسيب (المريدى) من بلدة الدروع التابعة للقطيف حيث تصاهر مع عشائر حجر واليمامة والجرعة فى سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م فقد انتقل مانع مع أهله إليهم بعد مراسلات حيث رحب به رئيس تلك العشائر وأقطعه أرض الملبيد وعُيينة قريباً من الدرعية فاستقر فى هذه الأرض ، واتخذها سكناً له ولأسرته .

وبدأت الأسرة تنمو وتتسع ديارها حتى كونت إمارة صغيرة لها كيان مستقل حتى تولى أمرها الأمير / مقرن بن مرخان الذى اتخذ من مدينة الدرعية عاصمة لبلاده ابتداءاً من سنة ١١٠٠ هـ/ ١٦٨٢م ، واستمرت كذلك فى عهد ابنه سعود حتى ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب الإصلاحية ، وأخذت تنتشر فى عهد محمد بن سعود الذى تحالف مع الشيخ وبذل أقصى الجهود فى سبيل حمايته ونشر دعوته بين القبائل [٢] ـ صعبة المراس والانقياد .

---

(١) أحمد عسه ـ معجزة فوق الرمال ـ ص١٢ ومابعدها .

(٢) د/ مديحة أحمد درويش ـ تاريخ الدولة السعودية ـ ص١٩ ، ٢٠ .

فقد كانت شبة الجزيرة العربية حينئذ مشتتة بين تجمعات قبلية أو مايشبه المقاطعات الصغيرة المتناحرة فيما بينها على الكلأ والعشب ، ومصادر المياه ، ولذلك فقد عانى السعوديون وبذلوا الجهود والدماء فى سبيل توحيد هذه الأمة التى كونت فى النهاية : المملكة العربية السعودية فى رحلة شاقة استغرقت قرنين إلا قليلاً من الزمان ، كما أن الأسرة السعودية التى قادت هذه المسيرة قد عانت من الخطوب العديدة التى ألّمت بها طوال العقود التى شهدت محاولات التوحيد ، وشهدت هذه الفترة ثلاث دول سعودية تجلدت جميعها حتى بلغت مرامها السامى فى التوحيد ونشر العقيدة الصحيحة التى طالب ابن عبد الوهاب بالعودة إليها وسنتناول فى العجالة التالية بعض ملامح الدولة السعودية الثلاث : -

الدولة السعودية الأولى

عمل قادة الدولة السعودية الأولى طوال أربعين عاماً تقريباً على توحيد نجد خاضوا خلالها حروباً مستمرة مع المدن والقرى بعد أن علا شأن الدرعية وخشيت كثير من المقاطعات والتجمعات اتساع نفوذه إمارة آل سعود فدخلت معها فى حروب دارت رحاها فى منطقة نجد ، فى حين عمل البعض الآخر على خطب ودها ، واتباع شيخها ودعوته الإصلاحية .

ومن بين المعارضين كان أمير العيينة (عثمان معمر) الذى أعلن خضوعه وإذعانه للسعوديين علناً وشارك فى حروبهم إلا أن ولاءه كان مشكوكاً فيه لأنه - على مايبدو - أبرم اتفاقاً سرياً مع أمير ثرمداء ، وأمير الرياض دهّام بن دواس حتى اكتشف أهل بلده عدم صدق ولائه للدولة السعودية فقاموا بقتله ، وعين السعوديون ولده مشارى بن معمر خلفاً له حيث استمر أميراً على العيينة عشر سنوات ولكنه عُزل لثبوت عدم إخلاصه هو الآخر [1] ، وتم التخلص من بيت معمر بذلك وتعيين سلطان

(١) حسين بن غنام - تاريخ نجد - تحقيق د/ ناصر الدين الأسد - القاهرة - ١٣٨١هـ - ص ٦٤ وما بعدها .
- وانظر : Philly . Saudi Arabia - Op,Cit,P.g.

ابن محسن مكانه .

وتأتى بلدة حريملاء فى المرتبة الثانية من بلدان العارض التى عارضت حكم آل سعود ، فقد كانت من أولى البلدان التى خضعت لهم ، إلا أن قاضيها سليمان بن عبد الوهاب (شقيق الشيخ) كان معارضاً لدعوة أخيه ، ودعا أهل حريملاء إلى نقض العهد وطرد كل من يُبقى عليه ، فخرج المطرودون إلى الدرعية ، وانتهى الأمر إلى تمكن جيش الأمير محمد بن سعود بقيادة ابنه عبد العزيز من الاستيلاء على حريملاء ، وإعادتها إلى التبعية والخضوع للدرعية ، وتعيين مبارك بن علوان حاكماً عليها من قبل آل سعود .

ولكن ابن علوان ثار عدة مرات على الحكم السعودى وجمع أهل المجمعة وسدير ، والوشم ، وثرمدا ، واستطاع السعوديون الانتصار عليهم وطرد ابن علوان حتى توفى سنة ١٧٦٠م .

وكان من بين المعارضين أيضاً أهالى منفوحة والعمارية والقويعية والحوطة وثادق وغيرها ، حيث كان الجميع يترددون فى الولاء أو الانضمام إلى المناوئين للحكم السعودى [١] .

أما بالنسبة للرياض فقد استمر الصراع دائرة رحاه معها فترة طويلة طوال عهد دهّام بن دواس فيها ، نظراً لما له من نفوذ وسلطان استخدمه فى معارضة الدرعية خوفاً على مكانته فى نجد ، ولم يكن يشغله - على مايبدو - أمر موافقة الدعوة السلفية أو معارضتها بل كان همه الحفاظ على سلطانه ونفوذه ، ولذلك لم تخل سنة من سنوات حكم الأمير / محمد بن سعود إلا وحدثت بها غزوات لجيوشه على الرياض تخلل ذلك اعتناق الكثيرين من أهل الرياض للدعوة السلفية وهجرتهم إلى الدرعية أو غيرها ، واستمر هذا الصراع سبعاً وعشرين عاماً .

---

(١) حسين بن غنام - تاريخ نجد - ص١٠٤

- وانظر : د/ مديحة درويش - تاريخ الدولة السعودية - ص٢٧ ، ٢٨ .

وبعد وفاة الأمير / محمد بن سعود تمكن ولده الأمير عبد العزيز (الذى خلفه فى الحكم) من غزو الرياض مرتين (١١٨٧ هـ، سنة ١٧٧٣م) ، وهدم قلعتها ، مما اضطر دهّام إلى الفرار من الرياض وتخلص السعوديون بذلك من حجر عثرة كان يقف فى طريقهم نحو توحيد نجد .

كما ثارت منطقة الخرج ، واشتركت مع توابعها فى مقاومة الحكم السعودى إلا أن جيش الدرعية تمكن من هزيمتهم وعزل أميرهم زايد بن زامل (الذى قتل بعد ذلك وخلفه ابنه براك) وتعيين إبراهيم بن عصفيان أميراً عليهم سنة ١٧٧٦م / ١١٩٠هـ كما تمكن الأمير / عبد العزيز من السيطرة على الديلم ووادى الدواسر حوالى سنة ١٢٠٠ هـ/ ١٧٨٥م [١] .

وكان على الدرعية أن تكمل مسيرتها نحو بلدان القصيم ، وجبل شمر حتى تستقيم أمور نجد وتخلص لهم نهائياً ، وقد تحمل عبء هذه الغزوات الأمير / سعودى فى عهد أبيه عبد العزيز بن محمد سعود حيث تمكن من إخضاع مدن الرس وبريدة وتنومه وغيرها وبذلك دانت لهم منطقة القصيم

ولاستقرار أمر القصيم والخرج عمد آل سعود إلى جبل شمر لما لهذه المنطقة من أهمية اقتصادية لتوفر العيون المائية بها وخصوبة تربتها إضافة إلى علاقاتها التجارية مع مدن العراق ، وقد تمكن عاملهم حجيلان من إخضاع هذه المنطقة وأهلها للدرعة سنة ١٢٠٧ هـ/ ١٧٩٢م [٢] .

وبذلك أصبح إقليم نجد كله خاضعاً للحكم السعودى فى عهد الأمير / عبد العزيز بن محمد بن سعود ويمثل وحدة سياسة واحدة يتم تعيين الأمراء والقضاة والعمال من الدرعية مباشرة ، ويشارك أهل الإقليم كذلك فى الغزوات التالية بما

---

(١) حسين بن غنام - تاريخ نجد - ص ١٣٩ ومابعدها .

- وانظر : د/ مديحة درويش - تاريخ الدولة السعودية - ص ٢٩ ومابعدها .

(٢) د/ عبد الرحيم عبد الرحمن - الدولة السعودية الأولى - ٧١

- ٠ د/ مديحة درويش - تاريخ الدولة السعودية - ص ٣١ ، ٣٢ .

يملكون من رجال وعتاد .

وقد ساعد السعوديون على توحيد إقليم نجد مجموعة من العوامل كان على رأسها : -

١ - عزيمة السعوديين التى استمدوها من تعاليم الإسلام الصحيحة ، ونبل غايتهم التى كان يشير بها الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فكانوا بذلك يحاربون عن عقيدة واقتناع .

٢ - عدم اتحاد المعارضين بشكل يمثل خطورة على السعوديين الذين كونوا جبهة قوية فى مقابل معارضيهم المتفرقين بمشارب شتى .

٣ - هجرة أعداد كبيرة من أفراد القبائل إلى العراق ، والمناطق الأخرى ، مما أضعف من شوكة المعارضين .

٤ - عدم وجود قوى كبرى لها أطماع فى نجد أتاح الفرصة للسعوديين أن يرتبوا البيت النجدى بالشكل والحالة التى تروق لهم لاستخدامه كرأس حربة تنتقل منه إلى آفاق أرحب وأوسع بعد اكتمال النمو والنضج السياسى .

وعلى كل فقد استمر الأمير / عبد العزيزبن محمد سعودفى غزواته، وتطلع للاستيلاء على الاحساء التى تقع فى المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، وهو إقليم يجمع بين مميزات عديدة منها إطلاله على ساحل الخليج ، ووجود الآبار بغزارة مياهها ومراعيها الوفيرة بالإضافة إلى الحركة التجارية بها والمصايد ، وبها من القبائل بنو خالد ، والعجمان ، وبنو هاجر ، وبعض العناصر الأخرى من آل مرة ، وكان يحكم المنطقة بنو خالد الذين يعترفون بولائهم للدولة العثمانية .

فى البداية كان السعوديون يتحملون صد هجمات بنى خالد عليهم دون توجيه أى هجوم عليهم لقوة بنى خالد ، إلا هؤلاء قد دب فيهم الضعف ولاسيما بعد موت أميرهم : عريعر بن وجين ، والنزاع الذى نشب أظفاره بين الأمراء على السلطة من بعده ولذلك فقد غير السعوديون مبدأ الدفاع إلى الهجوم بالنسبة لمنطقة الاحساء

استمر عدة سنوات خاصة فى سنة ١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨م عندما غزت القوات السعودية أهل القرى والهفوف والفضول ، وحققت القوات مكاسب عديدة فى هذه البقاع ، وفى سنة ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م وصلت تلك القوات إلى ماء اللصافة وهزمت قوات براك بن عبد المحسن فى معركة الشيط شرقى اللصافة ، وبذلك استطاع السعوديون الاستيلاء على الأحساء بعد خضوع أميرها لهم ، واعتناق الدعوة السلفية .

وعلى الرغم من ثورة أهل الأحساء أكثر من مرة إلا أنهم خضعوا فى النهاية للحكم السعودى خاصة بعد أن طلب بعض أهل الأحساء النجدة من سليمان باشا والي بغداد وألحوا عليه للإفراج عن أمير المنتفق ثوينى بن عبد الله ليتولى قتال آل سعود ، وبالفعل أفرج عنه إلا أنه سرعان ماقتل ، ولم يستطع جيشه الاستمرار فى القتال .

وتمكن القائد السعودى : إبراهيم بن عسيفان من الاستيلاء على منطقة القطيف كذلك ، مما أضاف قوة جديدة للسعوديين بضم الاحساء والقطيف، ولكن المواجهة صارت قائمة مع الدولة العثمانية عن طريق واليها فى العراق [1] ، إلا أن سيطرة السعوديين على هذين المنفذين الهامين قد جعلهم يتطلعون بأنظارهم إلى ماجاورهم من بلدان الخليج .

ضم السعوديين أقاليم الخليج:

أدى استيلاء الأمير / عبد العزيز بن محمد بن سعود على إقليم الإحساء إلى ازدياد قوته ونفوذه فى شبه الجزيرة الأمر الذى دفعه ورجاله إلى الاتجاه صوب الخليج لتأكيد وتوطيد المركز التجارى والاقتصادى ، ونشرنفوذه ودعوة ابن عبد الوهاب فى تلك البلدان ، وكانت البداية توجيه الأنظار إلى قطر ذات الأهمية التجارية والزراعية التى يسكنها قبائل آل مسلم ، وآل أبى الحسن ، وغيرهم وهم من قبائل

---

(١) د/ عبد الرحيم عبد الرحمن ـ الدولة السعودية ـ ص ٨٢ ومابعدها .
ـ وانظر : د/ مديحة درويش ـ تاريخ الدولة السعودية ـ ص ٣٤ ومابعدها

ربيعة حيث تمكن القائد السعودى على الاحساء (إبراهيم بن عفيصان) من الإستيلاء على معظم قرى قطر ، سنة ۱۷۹۲م ، كما استولى على قلعة الزبارة فاضطر أهلها للفرار إلى البحرين .

واستطاع إبراهيم أيضاً الاستيلاء على البحرين سنة ۱۸۰۸م بعد استنجاد آل خليفة به ولكنه اضطر لتركها بعد فترة قصيرة ، كما كانت هناك محاولات عديدة انتهت سنة ۱۸۰٤م للاستيلاء على الكويت ، لكن الدولة السعودية لم تستطع إخضاعها لسلطانها ، فاتجهت القوات السعودية صوب عمان ، وتمكنت من إخضاع بعض البلاد العثمانية مثل : الصير ، وسكان البريمى ، وقبائل الغفارية الذين هم من أهل السنة واعتنقوا المذهب السلفى ، وانتهى الأمر إلى قبول عمان دفع الزكاة لحكومة الدرعية ، وإقامة وكيل سعودى فى مسقط ليتولى الإشراف على جمعها ، وترتيب التعامل بين الجهتين ، ورغم قيام الحروب بين الطرفين إلا أنها انتهت بموقعة خوزفكان الفاصلة حيث دانت أقاليم عمان من بعدها للحكم السعودى [1] .

وبذلك امتدت حدود الدولة السعودية الأولى فى عهد الأمير عبد العزيز فى اتجاه الخليج ، حتى باتت تضم البحرين ، عمان ، وقبائل القواسم فى رأس الخيمة كما وصلت قواته إلى مدينة كربلاء بالعراق ، والنجف كذلك ، وظل الأمير / عبد العزيز يحمل الراية السعودية السلفية تسعة وثلاثين عاماً ، وبعدها خلد إلى الراحة حيث تقدمت به السن ، وأخذ البيعة فى أيام حياته لابنه سعود حتى كانت سنة ۱۸۰۳م عندما تعرض لهجوم غادر من أحد الشيعة وهو داخل ليصلى العصر فى مسجد الرياض فلقى ربه بعد هذه الجهود التى بذلها فى سبيل التوحيد ورفعة شأن أمته [1] .

---

(۱) مؤلف مجهول - لمع الشهاب - ص ۷٦ ومابعدها .
- وانظر : حسين بن غنام - تاريخ نجد - ص ۱۸۰
- و : د/ عبد الرحيم عبد الرحمن - الدولة السعودية - ۹۸ومابعدها .
- و د/ مديحة درويش - تاريخ الدولة السعودية - ص ۳۸ ومابعدها .
(۲) أحمد عسه - معجزة فوق الرمال - ص۱۷ .

وقد ترتب على استيلاء السعوديين على بعض إمارات الخليج أن بدأت اتصالاتهم مع الإنجليز بناء على احتكاكات نجمت عن تحالف القواسم (برأس الخيمة)مع السعوديين حيث مد هذا التحالف القواسم بقوة معنوية استغلوها فى الهجوم على السفن الإنجليزية باعتبارها سفناً معادية ، كما هاجموا السفن العمانية الموالية للإنجليز .

ولكن الإنجليز قد آثروا عدم الدخول فى معارك برية مع القوات السعودية حيث كانت الأوامر للعسكريين الإنجليز فى الخليج أن لاتتعدى أعمالهم الساحل وأن لايتورطوا فى أعمال برية فى دواخل شبه الجزيرة العربية ، كما التزمت انجلترا أيضاً أسلوب الحياد عندما نشب صدام بين السعوديين وآل الصباح فى الكويت ، ولكن الإنجليز عمدوا إلى زيادة قوة مركزهم فى الكويت مما دفع السعوديين إلى إدراك الوضع ، والاتجاه إلى المناطق الأخرى بالخليج .

أدى هذا الاتصال الغير مباشر بين السعوديين والإنجليز إلى عناية الإنجليز بتوطيد نفوذهم السياسى فى سواحل الخليج ولاسيما بعد سقوط الدولة السعودية الأولى ، وعملت جاهدة على السماح لأية قوة سياسية كبيرة بالظهور أو السيطرة على الخليج اللهم إلا أشكال التبعية المحلية التى كانت تظهر بناءاً على ظروف المنطقة القبلية أو اعتناق العديد من المناطق للدعوة السلفية ولزوم دفع الزكاة منها للسعوديين . . . الخ

الصراع بين الأشراف والسعوديين

يغلب على الاعتقاد أن الصراع بين الأشراف ، وأهل نجد كان قديماً ، إلا أن الثابت هو امتداد نفوذ الأشراف إلى منطقة نجد فى عهد الشريف أبى نمى، فقد وصل إليها ابنه الشريف حسن بعد عمليات عسكرية ، ولكن بعد فترة ضعفت غزوات الأشراف على نجد عندما انشغلوا بينهم بالصراع على السلطة فى القرن الثانى عشر الهجرى ، فى الفترة التى صاحبت بروز قوة آل سعود على مسرح شبة الجزيرة العربية .

وأدى ظهور وسيطرة آل سعود على بقاع نجد والاحساء ، وامتدادها للخليج إلى عداوة الأشراف لهم ، ولاسيما بعد أن تسربت الدعوة السلفية التى يحمل لواءها السعوديون إلى الحجاز ، ولذلك فقد اعتبر الأشراف تلك الدعوة وأصحابها خصوماً لهم حينئذ اتخذ الشريف / مساعد بن سعيد شريف مكة تدابير مضادة لمنع انتشار الدعوة فى الحجاز ، كما أنه منع أهل نجد من تأدية فريضة الحج فى عهد الأمير / محمد بن سعود ، والشيخ / محمد بن عبد الوهاب .

ورغم ذلك ظهرت مبادرة من الأشراف لم تسفر عن نتيجة تذكر عندما طلب الشريف مساعد من الدرعية إرسال بعض علماء الدعوة السلفية لمناظرة علماء مكة ، فأجيب إلى طلبه ، وتمت المناظرة دون جدوى .

وتجددت مرة أخرى فى عهدالشريف أحمد بن سعيد الذى بعث إلى الأمير / عبد العزيز بن محمد بن سعود ، والشيخ ابن عبد الوهاب يطلب تكرار المحاولة ، فاجتمع العلماء من الطرفين بمكة فى مناظرات وجدال طويل احتكموا خلالها إلى كتب الحنابلة إلا أن المحاولة باءت بالفشل هى الأخرى [١].

وتعددت المواقع العسكرية بعد ذلك بين الطرفين فى عهد الشريف غالب من جهة ، وعهد الأمير / عبد العزيز بن محمد بن سعود من جهة أخرى ، ولكنها تمخضت عن نشر الدعوة السلفية فى بقاع تابعة للحجاز أعلنت تبعيتها للدرعية ، وبفشل محاولات الشريف غالب العسكرية بادر بطلب الصلح مع السعوديين سنة ١٧٩٩م ، وتعيين الحدود الفاصلة بينهم، وتعيين القبائل التابعة لكل فريق ، وبالفعل وافق الأمير / عبد العزيز بشرط عدم ممانعة حجيجهم الذى أدى فريضة الحج فى العام نفسه .

ويبدو أن الشريف غالب قد انقلب فجأة من العداء السافر إلى طلب الصلح بسبب الخطر الماثل بين يديه من جراء الحملة الفرنسية على مصر وخشيته من وصولها

(١) د/ سعد الحلوانى ـ العلاقات بين مصر والحجاز ونجد ـ ص٧ .

ـ وانظر : صلاح الدين المختار ـ تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها ـ ج١ ـ ص٤٢ .

إلى الحجاز فكان عليه أن يستعد للخطر الجديد .

وبالفعل ساءت العلاقات بين السعوديين والأشراف - بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر - وازدادت بعد الخلاف بين الشريف غالب مع وزيره / عثمان المضايفى الذى خرج من مكة لمبايعة السعوديين ، وعاد بجمع غفير نازل بهم الشريف غالب فى مواقع عديدة [١] .

واضطر السعوديون إلى وضع حد للعلاقات المتردية مع الأشراف ولاسيما أن الشريف استمر فى استعداء العثمانيين عليهم ، وقاد ابن سعود جيشاً دخل به مكة ١٢١٨ هـ/ ١٨٠٣م رغم محاولة الشريف غالب إقناع قافلتى الحج المصرية والشامية بمؤازرته ، وتوريطهم فى هذا الصراع الإقليمى ، ولما فشل ترك مكة ، واتجه إلى جدة حيث تحصن بها ، وفيها دارت المعارك بين الطرفين إلا أنها لم تسفر عن نتيجة ، وانتهى الأمر بصلح فى صفر سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م ، على أن يبقى الشريف غالب تابعاً للدرعية منفذاً لأوامرها [٢] .

ويبدو أيضاً أن الشريف قد اضطر إلى معاودة الصلح مع السعوديين بعد أن يئس من استجابة حكام اسلامبول لطلبه النجدة منهم ، ومع ذلك فقد كان تصرفاً وقتياًمن الشريف غالب إذ أنه قد أرسل جماعة من علماء مكة ، وأشرافها إلى مصر للإنتقال منها إلى إسلامبول للاستنجاد بها مرة ثانية [٣] .

وفى سنة ١٨٠٦اعترض السعوديون فى الحجاز على نظام المحامل المصرية والشامية ومايصاحبها من طبل وزمر خارج عن آداب الإسلام وقدسية الحرمين وحذروا من عودتهما مرة ثانية على هذه الحالة المنافية للدين ، وإلا كسروه ، ومر الحج بسلام فى هذا العام وفى العام التالى جاءت القافلتان على الهيئة نفسها بمحاملهما ، وبادر أمير الحج الشامى بإعلان قدومه قبل وصوله فأعاد السعوديون

(١) د/ سعد الحلوانى - العلاقات - ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) ابن زينى دحلان - خلاصة الكلام - ص ٢٧٦ ومابعدها .
(٣) الجبرتى - عجائب الآثار - ص ٢٣٥ .

رسلة بعدم دخول مكة على هذا الحال فرجع دون أن يحج إلى الشام ، أما المصرى فقد واصل سيره متجاهلاً تحذيرات السعوديين الذين لم يترددوا فى الهجوم على المحمل وإحراقه ، وتركوا القافلة تؤدى مناسك الحج منذرين إياهم بعدم تكرار الصورة المنهى عنها .

وأعتقد بما لايدع مجالاً للشك أن السعوديين على صواب فى تصرفهم تجاه المحامل ، وبذلك انقطع مجئ الحجاج من الجهتين عدة سنوات من سنة ١٨٠٧م إلى سنة ١٨١٣م ، وأمر الأمير / سعود بن عبد العزيز بن محمد بطرد القاضيين العثمانيين سنة ١٨٠٧ م وعين بدلها من علماء الحجاز ، كما أبطل الدعاء للسلطان العثمانى على المنابر فى خطبة الجمعة ، وأنكر أية سلطة روحية له على الحرمين .

وقد اتهم عبد الله بن سعود الشريف غالب بمحاولة تأليب العالم الإسلامى على السعوديين بل وتزوير الرسائل على أنها من سعود مهرها بختم اصطنعه محملاً الرسائل ماليس فيها لدفع العثمانيين إلى المضى قدماً فى مساعدته لإجلاء السعوديين عن الحجاز [1] .

حملة محمد على فى شبه الجزيرة العربية

كان محمد على (الألبانى) قد صدر له الفرمان العثمانى بتوليته على مصر نزولاً على رغبة علماء الأزهر ، والشعب بعد عزل خورشيد باشا [2] حيث استطاع محمد على التقرب لهم وخداعهم حتى نادوا به والياً على مصر .

فى الوقت نفسه كانت الدولة العثماينة قد أرسلت أوامر إلى والى العراق سليمان باشا ، ووالى الشام يوسف باشا المعدنى بضرورة إرسال الجيوش إلى الحجاز لإخراج السعوديين منه وإعادته إلى السيطرة العثمانية حيث كان العثمانيون يستمدون من الحجاز نفوذهم الروحى وسيطرتهم على العالم الإسلامى ، واقتصر

---

(١) دار الوثاق القومية - الوثيقة ١٢٤ - محفظة ١٦ بحربر - من عبد الله بن سعود إلى الدولة العلية .
- وانظر : وثيقة ٣٣ - محفظة ٤ بحربر - من عبد الله بن سعود إلى محمد على - د - ت .

(٢) الوثيقة رقم ١٠٠ تاريخ - مجموعة وثائق رفاعة الطهطاوى ورسالة علماء مصر وأعيانها إلى سلطان الدولةالعثمانية (صفر ١٢١٨هـ / مايو ١٨٠٣) مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج .

دور محمد على فى تجهيز ستة آلاف أردب من الغلال لإرسالها إلى الشام لمعاونة العساكر الشامية المتوجهة إلى الحجاز لإجلاء السعوديين عنه كما يذكر الجبرتى [١] .

ولما فشل والى الشام ووالى العراق ، صدرت الأوامر إلى محمد على فى نهاية سنة ١٨٠٧م لتجهيز قواته والاستعداد لهذا العمل ، وظلت المراسيم والأوامر تصدر لمحمد على بذلك وهو يماطلهم بحجة عدم اكتمال استعداداته ، واحتياجه للأخشاب اللازمة لبناء السفن ، وطلب كذلك من العثمانيين المدافع والمهمات الحربية الأخرى [٢] ولكنه فى الوقت نفسه جدد ترسانة صناعة السفن ببولاق ، لتقوم الإبل بنقل ماتصنعه إلى ميناء السويس ، مع باقى العتاد والعُدة .

وفى ٤ من صفر سنة ١٢٢٦هـ / ٢٨ من فبرايرسنة ١٨١١ م تم تقليد طوسون بن محمد على رئاسة الحملة التى بلغت ثمانية آلاف جندى ليس فيهم جندى مصرى واحد يحمل السلاح فقد تكون الجيش من عثمانيين وألبانيين ، وخيالة عراقيين ، ومقاتلين سودانيين ، ومغاربة ، وشراكسة وبعض المرتزقة الأوربيين [٣] واشترك مع الحملة بعض الرجال من قبائل حرب ، وجهينة ، والحويطات ، وبلى ، وغيرها [٤]

وقد سافر المشاه ورجال المدفعية الخمسة آلاف من مصر إلى الحجاز عن طريق البحر الأحمر ، بينما سافر الثلاثة آلالف الباقية براً حيث كانوا يمثلون فرقة الفرسان [٥] .

ورغم تمكن الحملة من السيطرة على المويلح وينبع بسهولة إلا أنها قد لقيت هزيمة

---

(١) الجبرتى - عجائب الآثار - ج٤ - ص ٢٧ .

(٢) دار الوثائق القومية بالقهرة - وثيقة رقم ٣٣ - دفتر ١ معية تركى - من محمد على إلى الباب العالى (١٢٢٤هـ) (١٨٠٩م) .

(٣) انظر تفاصيل تجهيز الحملة وجنودها فى كتابنا - العلاقات بين مصر والحجاز ونجد - نهاية الفصل الأول .

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة - وثيقة ٧٨ - دفتر ١ معية تركى - من محمد على إلى الباب العالى - ٥ من ذى القعدة ١٢٢٦هـ / ٢١ نوفمبر ١٨١١م .

(٥) وثيقة رقم ٧٠ - دفتر ١ معية تركى - من محمد على إلى الباب العالى - ٩ شعبان ١٢٢٦ هـ

منكرة فى واقعة ممر الصفراء (وهم فى طريقهم إلى المدينة المنورة) حيث فاجأهم السعوديون من جبل صخرى عال ، وتمكنوا من إبادة العدد الأكبر من أفراد الحملة حيث لم يعد منهم إلى ينبع سوى ثلاثة آلاف فقط فى حالة يُرثى لها .

وبعد وصول الإمدادات من مصر ، والمراسلات بين طوسون والشريف غالب الذى سهل اقتحام جيش محمد على بلدان الحجاز براً وبحراً ، باتت مكة قاب قوسين [1] .

وبمساعدة الشريف أيضاً والبدو استطاعت القوات دخول مكة دون قتال نظراً لأن السعوديين قد أخلوها ، ويبدو أنهم قد أرادوا استدراج القوات الغازية ناحية نجد حيث وعورة الطريق ، والولاء الأكثر للدعوة السلفية .

ومالبث أن تحرج موقف القرات الآتية من مصر بعد هزيمتها عند مدينة تربة ، واضطرار الحامية الموجودة فى الحناكية إلى الاستسلام ، وظهور الأوبئة ، وشدة الحر ، وقلة المؤن ، مما اضطر طوسون إلى طلب النجدات والتوقف فى مدن الحجاز .

حينئذ قرر محمد على الشخوص بنفسه إلى الحجاز لتولى قيادة الجيوش مع المدد الذى جاء به [2] ولاسيما بعد أن حوصر طوسون بقواته فى مدينة الطائف [3] .

فور وصول محمد على إلى الحجاز قام بالقبض على الشريف غالب ونفاه إلى مصر ثم إلى سالونيك إلى أن توفى بها سنة ١٨١٦ م ، وولى مكانه الشريف يحيى ابن مسرور بن مساعد الذى استمر من سنة ١٨١٣م إلى حوالى سنة ١٨٢٦م عندما اختلف مع عمال محمد على بالحجاز (أحمد باشا محافظ مكة) فاضطر أحمد باشا إلى عزله وتعيين الشريف عبد المطلب بن غالب مكانه [4] .

---

(١) دار الوثائق القومية - وثيقة ٨١ - محفظة ٣ بحربر - من طوسون إلى محمد على (١٢ محرم ١٢٢٨هـ / ١٥ يناير ١٨١٣م .

(٢) الوثيقة ٨٢ - دفتر بحربر - من محمد على إلى رؤساء الجند - ١١ محرم ١٢٢٧هـ .

(٣) د/ عبد الجواد صابر إسماعيل - دور مصر فى الحرب العثمانية اليونانية (١٨٢١ - ١٨٢٣) - ط١ - القاهرة - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م - ص٩ .

(٤) دارة الملك عبد العزيز - الوثيقة ٢/ ٢ك - ١٢٢ - من المعية السنية إلى الشريف عبد المطلب - ٦ ربيع الثانى سنة ١٢٤٣هـ .

وعلى كل فقد وضع محمد على خطة عسكرية للزحف على نجد من المدينة المنورة ، وخطة أخرى من قوات الطائف إلى تربة ، وثالثة لتغزو قواته القنفذة .

وبعد محاولات عديدة عسكرية ومناورات بين الفريقين استغرقت خمس سنوات من سنة ١٨١٣ إلى سنة ١٨١٨ م تم فيها تغيير القائد العام طوسون واستبداله بأخيه إبراهيم باشا ، عانى فيها جيشه أشد المعاناة إلى أن تمكن فى النهاية من اقتحام الدرعية وهدمها سنة ١٨١٨م [١] .

وقد أدى سقوط الدرعية فى يد إبراهيم باشا إلى وقف مسيرة الدولة السعودية الأولى بعد أن ملأت فراغاً سياسياًفى شبه الجزيرة العربية ، ولاسيما فى منطقة الخليج التى جعلت بريطانيا تهتبل الفرصة لتملأ الفراغ الذى تركته الدولة السعودية وابتداءاً من سنة ١٨٢٠ م جلبت بريطانيا قوات كبيرة للسيطرة على بلاد الخليج ونشر نفوذها فى المنطقة بالشروط التى أخذت تمليها على مشايخ الإمارات العربية لتحقيق مصالحها الذاتية .

الدولة السعودية الثانية

على الرغم من انتهاء الكيان السياسى للدولة السعودية الأولى بعد تحطيم الدرعية سنة ١٨١٨م إلا أن الدعوة السلفية ظلت فى أذهان وقلوب الناس الذين استمر ولاؤهم للأسرة السعودية .

ولذلك فقد تمكن الأمير تركى بن عبد العزيز من دخول الدرعية سنة ١٨٢٠م رغم وجود القوات التركية فى نجد ، واضطر الأمير / تركى أن يعترف بسيادة الدولة العثمانية اعترافاً اسمياً مما أتاح له الفرصة للسيطرة على نجد ، ومد نفوذ أسرته مرة أخرى على الخليج فاستولى على الإحساء والقطيف ، ولكنه لقى ربه بعد أن قضى اثنى عشرة سنة فى الحكم .

---

(١) أحمد عسه ـ معجزة فوق الرمال ـ ص ٢٥ ومابعدها .

وتولى بعده ابنه الأمير فيصل سنة ١٨٣٤م / ١٢٥٠هـ الذى نعتبره - مع البعض الآخر - هو المؤسس الحقيقى للدولة الثانية لأنه شارك بجهود عظيمة فى حياة والده ثم تولى الحكم مرتين استطاع فيهما أن ينظم أمر الدولة السعودية ويُعلى من شأنها فى كل المجالات ، واستغرقت الفترة الثانية من حكمه اثنين وعشرين عاماً .

وفى عهد فيصل بن تركى (الفترة الأولى) (أربع سنوات) تجددت المعارك بين قوات محمد على والسعوديين انتهت باستسلام فيصل وإرساله إلى مصر حيث ظل بها فترة ، وتم تنصيب / خالد بن سعود الكبير ليحكمها باسم / حكومة محمد على ، ولكنه لم يطل به المقام إذ خلعه أهل نجد بعد عامين فقط [١] .

وفى مصر جاء اجتماع مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ كالصاعقة على محمد على إذ أرسل إليه تحذير شديد اللهجة مُفعم بالتهديد ليقوم بسحب قواته من الشام وشبه الجزيرة العربية واضطر فى النهاية إلى أن يرضخ لأوامر الدول الكبرى التى أقرت ذلك وهى : روسيا وانجلترا وبروسيا ، والنمسا ، والدولة العثمانية ، وأصدر محمد على إلى قواته بشبه الجزيرة بتنظيم عملية انسحابها بمساعدة الشريف محمد بن عبد المعين بن عون [٢] .

أما بالنسبة للأمير / فيصل بن تركى فقد تمكن من الهرب سنة ١٨٤٣م بمساعدة الحكومة المصرية نفسها سواء كان ذلك بأوامر من محمد على نفسه أو بإيعاز منه كيداً في الحكومة العثمانية ودليلى على ذلك ما أجده فى إحدى الوثائق وهى عبارة عن

---

(١) د/ مديحة درويش - تاريخ الدولة السعودية - ص ٥٦ وما بعدها .

(٢) انظر تفاصيل عمليات الجلاء فى : وثيقة رقم ٣٥ حمراء - محفظة ٢٦٩ عابدين - من أحمد شكرى سر عسكر الحجاز إلى الجانب العالى - ٧ محرم سنة ١٢٥٦م .

- وانظر : وثيقة ٧ أصلية - محفظة ٢٦٩ عابدين - من إبراهيم توفيق إلي صاحب الدولة (٢٤ محرم ١٢٥٦هـ)

- : وثيقة ٧٠ أصلية - محفظة ٢٦٩ عابدين - من الشريف محمد بن عون إلى باشمعاون الخديوى ١١ رمضان ١٢٥٦هـ .

- وانظر : التفاصيل فى كتابنا : العلاقات بين مصر والحجاز ونجد - ص ٥٥ وما بعدها .

رسالة من الخديوى إسماعيل باشا سنة ١٩٦٣ إلى فيصل يذكر له فيها :

« ومن القديم مؤكد ومثبوت انتسابكم لمحبه الجهة المصرية » مما يدل على سابق الود من أيام سجنه مصر [١] .

وكان فيصل قد أمضى قرابة الخمس سنوات فى منفاه بمصر بين سنتى ١٨٣٨ ، ١٨٤٣ م وتمكن بعد عودته من إعادة ملك آبائه فى نجد وما حولها ، كما بعثت عسير بولائها إليه كيداً فى الأشراف ، ومحمد على ، والدولة العثمانية مجتمعين .

واستطاع فيصل أن يعزز الأمن لبلاده ، وينشر العدل بين الرعية وانطلق من نجد ليعيد شتات الجزيرة العربية ، وعادت أغلب إمارات الخليج إلي التبعية الفعلية أو الإسمية بدفع الزكاة [٢] .

وبموت الإمام / فيصل بن تركى سنة ١٨٦٥ م عادت الفرقة مرة ثانية واختلف أبناؤه من بعده على الانفراد بالسلطة مما أدى في النهاية إلى ضياع جهود أبيهم في توحيد الأمة الأمر الذى جلب عليهم أطماع معادية فى ملكهم وانتهت بذلك الدولة السعودية الثانية في حوالى سنة ١٨٩١ م ، بعد أن جاء محمد بن الرشيد ، وانتزع ملك السعود يين من بين أيديهم ، مما حمل الأمير / عبد الرحمن بن فيصل آل سعود إلى الرحيل من الرياض صوب الربع الخالى ثم الانتقال مع عائلته وفى مقدمتهم ابنه عبد العزيز الذى يتجاوز الحادية عشر عاماً من عمره إلى قطر ثم البحرين ومنها إلي الكويت حيث بقى فيها زهاء عشر سنوات .

الدولة السعودية الثالثة :

ظل الأمير / عبد الرحمن آل سعود بالكويت يراقب الخليج وشبه الجزيرة عن

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ـ وثيقة ٤١ ـ صفحة ٨١ أوامر عربى ـ دفتر ١٩٠٧ ـ أمر إلى الأمير / فيصل أمير ولايات نجد ـ ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٠ هـ .

ـ وانظر :- R. Boyly Winder - Saudia Arabia in the Ninteenth Century, New york 1965 - p.179 - 180.

(٢) أحمد عسه ـ معجزة فوق الرمال ـ ص ٤٠ ، ٤١ .

كثب ، ومعه ابنه عبد العزيز لم يتجاوز العشرين من عمره فى بداية القرن العشرين فى الوقت الذى كان فيه الشاب يحمل هموم أسرته وملكه المفقود ، ويفكر فى كيفية استرداده إلا أن الظروف المحيطة لم تكن مواتية قط لأي عمل يمكن القيام به ، ولذلك انتهى به تفكيره إلي عملية جزئية يندر أن يقوم بها إنسان على مر التاريخ ـ فيما أعلم ـ استطاع بها بفضل من الله وعونه أن يقتحم الرياض عاصمة نجد ومعه نفر قليل ربما أربعون رجلاً تقريباً أو ستون ، ويقضى على عامل الرشيد (عجلان) ، ويعلن على الملأ فى صبحية يوم ٥ من شوال سنة ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م الحكم لله ثم لعبد العزيز ويخرج إليه الناس مستبشرين فرحين ليبدأ معهم صفحة جديدة لدولة كبيرة أراد الله لها الخير والأمان والوحدة والسلام .

وعلى الفور أرسل فى طلب والده لحكم وإدارة الرياض ليتفرغ هو لحماية أرضه وإعادة ما فقده آباؤه من مجد وأرض ونفوذ حيث نجح في إعادة السيطرة على مقاطعات الوشم ، والسدير والعقيم ثم الخرج والحوطه ووادى الدواسر وغيرها حتى اجتمعت بلاد نجد تحت سيطرته ، إلا أن الشوكة التى ظلت فى جنب الدولة السعودية الجديدة كانت تتمثل فى ابن الرشيد الذى آذرته الدولة العثمانية وظل سنوات عديدة فى هذا العداء حتى ظفر به [1] عبد العزيز فى موقعة روضة المهنا سنة ١٩٠٦ التى قتل فيها ابن الرشيد (عبد العزيز بن متعب) .

وفى سنة ١٩١١ م استطاع عبد العزيز أن يرسل قواته التى تمكنت من تحرير الاحساء من حكم العثمانيين لها ،و أصبحت الأحساء بذلك مورداً هاماً وموقعاً استراتيجياً على الخليج ساعد الدولة السعودية على أن تقف على قدميها ويحسب لها حساباً فى السياسة الدولية الأمر الذى دفع العثمانيين الأتراك إلي الاعتراف بعبد العزيز سلطاناً على نجد والاحساء والعقيم ،ومنحته رتبه الباشوية .

أما بريطانيا وعلاقتها بعبد العزيز فقد استطاع الأمير أن يخفف من توتر علاقته

---

(١) د/ مديحه درويش ـ تاريخ الدولة السعودية ـ ص ٧٤ وما بعدها .

بها وأن يكون مرناً إلى حد كبير حتى يستطيع أن يوظف بريطانيا لتحقيق مصالحه أو على الأقل ليأمن شرها ، وفى الوقت نفسه عملت بريطانيا على استمالة عبد العزيز إلى صفها ولاسيما بعد نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م حتى لا يقف بجانب الدولة العثمانية ، وحاولت دفعه لمحاربتها ولكنه لم يفعل ، وظل على الحياد وحتى لا يعرقل عبد العزيز ثورة الشريف حسين المرتقبة سعت بريطانيا إلي عقد اتفاقية مع عبد العزيز فأرسلت مندوباً لمعتمدها البريطانى فى الخليج شكسبير W.H.T.Shakcespeer سنة ١٩١٣ م الذى استقبل بترحاب من جهة عبد العزيز وتم التمهيد للاتفاقية السعودية البريطانية سنة ١٩١٥ م التى عرفت بمعاهدة دارين أو القطيف أو معاهدة العقير ، وقام بتوقيعها مع السلطان / عبد العزيز السير برسى كوكس (المقيم البريطانى فى الخليج) على أن لا يناوئ عبد العزيز المصالح البريطانية أو المشيخات التابعة لبريطانيا ، وكذلك إمارات الخليج كالكويت والبحرين وقطر وسواحل عمان ، وفى المقابل عززت المعاهدة من مركز عبد العزيز الدولى ، وخلصته من محاولات السيطرة العثمانية ، وضمنت له المساعدة فى القضاء على غريمة ابن الرشيد فى جبل شمر [١].

النزاع الهاشمى السعودى وضم الحجاز

عمدت بريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى إلى سياسة ازدواجية فى التعامل مع السلطان / عبد العزيز فى نجد ، والشريف الحسين فى الحجاز رغم الصراع بينهما .

فالأول : تعهد بعدم انضمامه للأتراك فى الحرب ، ومحاولة ابن الرشيد حليفهم ، وعدم الهجوم على حلفاء بريطانيا فى شبه الجزيرة ، بينما أدت المفاوضات مع الثانى إلى إعلانه الثورة العربية والحرب على تركيا سنة ١٩١٦ م ، وبذلك انتفعت بريطانيا من الجانبين .

وبإعلان الشريف حسين نفسه ملكاً على العرب ، ومعاملة الآخرين من

---

(١) Hurwitg J.G Deplamacy in the Near and Middle East , Vol 11p17

الأمراء، على أنهم تابعون له فتح بذلك النار على نفسه ، واستطاع عبد العزيز بصبر وأناة بل وجلد أن يدير دفة الأحداث - بفضل الله - لصالحه حتى تمكن من هزيمة قوات الحسين عدة مرات خاصة فى سنة ١٩١٩ م عند الحزمة وتشتيت شمل الجيوش التى أرسلها بعد مقتل خمسة آلاف منهم فى المعركة التى كانت مقدمة لفتح الحجاز سنة ١٩٢٤ م ودخول مكة [١] ، ثم الإستيلاء على جدة فى سنة ١٩٢٥ ، وخروج الأشراف منهما ، فى الوقت الذى كان فيه لكل طرف منهما مُدافع ومؤيد فى دولاب الحكومة البريطانية ، فبينما كان لورنس يدافع عن وجهة النظر الهاشمية كان جون فيلبى [٢] يسعى لدى الحكومة البريطانية لإقناعها بأن المستقبل فى شبه الجزيرة لعبد العزيز ، كما أن حكومة الهند كانت تؤيد كثير من المراحل موقف السلطان / عبد العزيز [٣] .

وقد حدث هذا النجاح الخارق باستيلاء السلطان عبد العزيز على الحجاز على الرغم من تأكيد الوثائق الأمريكية فى تقارير القناصل سنة ١٩٢٣ بأن موقف الحسين العسكرى كان قوياً فى تلك الفترة ، وأنه تملك قوة عسكرية كبيرة يستطيع بها أن يدعم ابنه / عبد الله أمير الأردن ضد الثورة الأردنية ، ويستطيع أن يرسل معونات

---

(١) ذكر السلطان عبد العزيز أن الحسين قد خُلع ثم تبعه ابنه فاراً بنفسه ليلاً دون أن يعلم به أحد ، ثم أسرع أهالى مكة بدعوة جند السلطان المسلمين للقدوم إلى مكة فدخلوها محرمين .

- انظر : دارة الملك عبد العزيز - وثيقة ٢٧ / ١٣٤٤ - من الملك عبد العزيز إلى الوالدالشيخ عيسى ا ابن على آل خليفة بتاريخ ٦ أكتوبر ١٩٢٥ م - الرقم العام١٧٨٦ .

(٢) كان فيلبى قد تقلد مناصب عديدة فى دولاب الحكومة الإنجليزية بالمنطقة العربية كان من بينها : المندوب السامى فى عمان ، والأردن ، وكان مندوباً سياسياً فى بغداد ، ثم مستشاراً للسلطان / عبد العزيز ، ورجل أعمال ووكيل شركة فورد للعربات

انظر : الوثائق الأمريكية وزارة الخارجية: See 890 ,F,00/10,11630 for 1642 form jerusalem: Hizer Americam Cansul,may,27,1928

(٣) Traeller,G:The Birth of Saudi Arabia London 1958 .p. 132-147

وانظر : أحمد عسه - معجزة فوق الرمال - ص ٧٢ ومابعدها .

لابنه ومساعدات كما أن أبنه الأمير فى المقابل على استعداد لعمل ما يستطيعه فى مساعدة أبيه [١].

ولكن ظهرت عوامل مساعدة فى الحجاز كانت فى صالح السعوديين ، وهى الحالة الاقتصادية المتردية قبيل فتح عبد العزيز لملكه حيث تذكر تقارير القناصيل أيضاً الانخفاض الملحوظ فى عدد الحجاج ، مما أوقع الحجاز فى ضائقة مالية بسبب اعتماد الأهالى والتجار ، وأصحاب الأعمال الأخرى المصاحبة للحج على ما ينفقه الحجاج إضافة إلى ما ذكرته تلك التقارير من أوصاف وسلوكيات كان يأتيها أولى الأمر فى الحجاز من ظلم وجشع واحتكار تجارة بعض أنواع السلع وفرض عشوائى للضرائب . . . الخ مما أدى إلى فرار الكثيرين من التجار إلى أماكن أخرى [٢].

محاولة الأشراف الاعتماد على أمريكا

وثمة قضية أردت طرحها على بساط البحث أزعم أننى لم أقرأ لأحد قد تعرض لها قط ، وربما أنها من القضايا التى لم تكشف حتى كتابة هذه السطور .

والقضية هى : محاولتين قام بهما الأشراف فى عهد الملك على بن الملك / الحسين حين تواجده فى جدة ، وبعد دخول السعوديين مكة سنة ١٩٢٤م للاستعانة بالولايات المتحدة الأمريكية فى محاولة مستميتة لتوريطها فى الصراع المحلى الدائر بينهم ، وبين السعوديين بزعامة السلطان / عبد العزيز آل سعود ، وهاتان المخاولتان جاء توقيتها فى الوقت الذى كان فيه حكم الأشراف بالحجاز يلفظ أنفاسه الأخيرة .

---

(١)الوثائق الأمريكية See 890 ,F, 00/2 form American Cansul in charge je rusa-
وثائق وزارة الخارجية lem: ,Palestine November, 9,1923

(٢) الوثائق الأمريكية وثائق وزارة الخارجية

See 890 .F.404by cecil M.P. Crass American Consul
A Dem Arafia June:16.1922
-انظر : 890 ,F, 00/1 by Raymond Davis Americam Cansul,
November, 1923

وكانت المحاولة الأولى لدفع الولايات المتحدة للتدخل قد قام بها الأمير / حبيب لطف الله ممثل الهاشميين فى إيطاليا الذى أجرى اتصالات مع رئيس قسم شئون الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية ، وعرض فيها لطف الله طلب الأشراف مساعدتهم على إقصاء وإبعاد السلطان / عبد العزيز عن الحجاز بأى شكل من أشكال التدخل تراه الولايات المتحدة ابتداءاً من الحل السلمى والودى ، كما شملت المفاوضات طلب قرض قيمته مليون (جنيه)[١] .

والمحاولة الثانية قام بها شخص يُدعى إسكندرف ، تراد بيه الذى كان يُعد الممثل المالى فى الإسكندرية (بمصر) الملك حسين وأولاده ، والذى قام بعمل اتصالات بناءاً على تكاليف من السيد / عبد الملك الخطيب الممثل الدبلوماسى للأشراف فى القاهرة بـ ستيورات جونسون القائم بالأعمال الأمريكى بالنيابة حيث إن الوزير الأمريكى المفوض دكتور / هاول فى مصر كان يقضى إجازة خارجها .

وقد عرض تراد بيه على القائم بالأعمال الأمريكى (جونسون) أن تقوم الولايات المتحدة بالتدخل فى الصراع الدائر ، مع قرض المليون جنيه ، فى مقابل منح الأشراف امتيازات واسعة فى الحجاز تشمل كل الثروة المعدنية ، ومن بينها البترول - على حد زعمه - ، واستطرد ترادبيه قائلاً : أن ابن سعود لا يملك مصلحة للجمارك فى حين أن الملك / على يسيطر على مصلحة الجمارك فى جده ، ولذلك يتعهد الملك / على بتخصيص عوائد الجمارك من مبالغ مالية للولايات المتحدة من أجل تسديد قيمة القرض والغريب فى الأمر أن ترادبيه (مندوب الأشراف) كان يتحدث فى عرضه على أمريكا هو والممثل الدبلوماسى باسم الملك حسين (المنفى) ، والملك على الموجود فى جدة حينئذ والأغرب من ذلك : هو أن ترادبيه كان يعلم أن التدخل الأمريكى فى مثل هذه الأمور سوف يغضب انجلترا ، فقد سأله جونسون (بعد إشارته إلى أن البلدين بينهما علاقات ودية) عما إذا كان الإنجليز

---

(١) الوثائق الأمزيكية وزارة الخاريجية See 890 F.00/4,to Stewart Jahnson Cairo August,21.1925.

سيعتبرون هذا التدخل من قبل الولايات المتحدة عملا غير ودى أم لافأجاب ترادبيه بصراحة إنهم سيعتبرونه فعلاً عملاً غير ودى .

وقد باءت المحاولتان بالفشل إذ أن الجانبين الأمريكيين اللذان اشتركا فى الاتصالات قد كانت وجهة نظرهما واحدة تقريباً فى عدم جدوى المضى قدماً فى مجرد الحديث أو بحث نظرهما واحدة تقريباً فى عدم جدوى المضى قدماً فى مجرد الحديث أو بحث هذا العرض الذى جاء به الأشراف وعندماأبرق الاثنان كل منهما إلى وزير الخارجية الأمريكى وجاء الرد مطابقاً لرأيهما بصرف النظر عن هذه الأفكار قليلة الجدوى [١] .

ويبدو لى أن الحكومة الأمريكية قد رفضت المضى قدماً فى هذا الأمر لسببين رئيسين :

أولهما : أن التقارير التى كانت ترسل باستمرار إلى وزارة الخارجية الأمريكية بلا شك كانت تؤكدأن الأشراف يعيشون أيامهم الأخيرة فى الحجازومن غير المعقول أن يلعب الأمريكان على الجواد الخاسر .

ثانيها : أن الخارجية الأمريكية لم تكن لتفعل دور بريطانيا فى المنطقة ، وإهمالها للأشراف بعد أن كانت تؤيدهم ، فلم يض الأمريكان القيام بعمل من شأنه أن يعكر صفو العلاقات الودية المتبادلة بين البلدين .

ولذلك عندما وجد الملك / على بن الحسين أن بريطانيا قد تخلت عن أبيه وعنه ، ولم يجد أذنا صاغية له عند الولايات المتحدة الأمريكية ، كما أن أخاه / عبد الله ، ولا فيصل لم يحركا ساكناً من أجل إنقاذ عرشه كما أنه قد فشل فى جنى ثمار إعاقته للحج وقوافلة [٢] ، بادر بناءاً على نصيحة كبار موظفيه بطلب الوساطة من

---

(١) الوثائق الأمريكية See 890 F.00/4 of cit Form Stewart Janson to Secretary of state, August.10.1925.

(٢) الوثائق الأمريكية
See 890 F.00/5 Form J. Loder Paric,pAden,Aralia,July.8,1925

المعتمد البريطانى / مستر غوردون الذى توسط اتفاق مع السلطان / عبد العزيز لخروج الملك / على سالماً من جده إلى البصرة ثم بغداد لتنتقل بعده دولة الأشراف (التى دامت قروناً عديدة) من على مسرح التاريخ إلى كتبه .

دخل السلطان / عبد العزيز جدة فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ م فأعمل فيها التسامح والعدل ، وباتصالات مع قناصل الدول بها ، وبايعه أهل الحجاز ملكاً عليهم فى الوقت الذى تباينت فيه مواقف الشعوب الإسلامية وردود أفعالها بين المؤيد ، والمعارض ، والمترقب لما تفر عنه الأحداث ، فقد انقسم الهند بين مؤيد ومعارض ، والأخير أقل ، بينما خشى الشيعة من دخول السلفيين على الحجاز ، ومن الطبيعى معارضة زعامات العراق والأردن ، أما مصر فقد كان موقفها الترقب والحذر ، وغير متعاطف مع الأشراف ، ووقف الملك فؤاد على الجياد من الصراع .

ونظراً لهذا القلق الذى انتاب بعض الشعوب الإسلامية فقد وجه الملك / عبد العزيز نداءاً إليهم لإرسال مندوبيهم إلى مكة لعقد مؤتمر إسلامى ينظر فى مستقبل الحجاز .

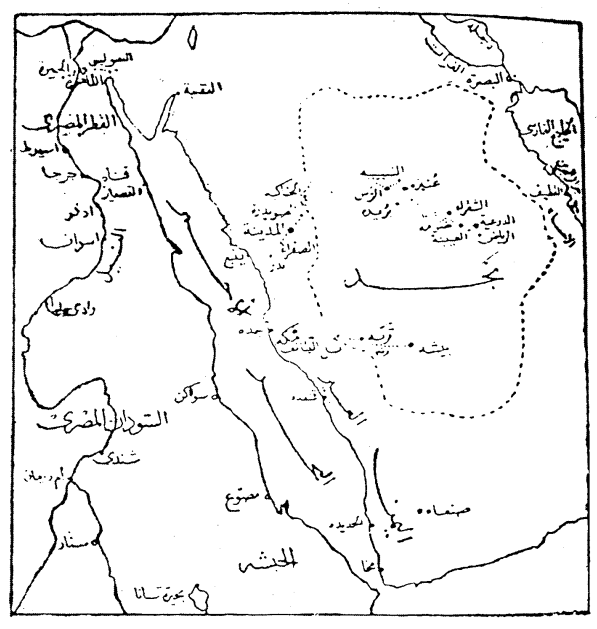
وعلى الرغم من ظهور بعض الدعوات التى نادت بتدويل الحجاز إسلامياً ، إلا أن الحجازيين رفضوا أن تتقاذفهم السياسة الدولية ، إضافة إلى عدم استجابة البلاد الإسلامية للمؤتمر الذى دعا إليه الملك / عبد العزيز لظروف الاحتلال الذى كانت ترزح تحت نيره.

ولذلك فقد وافق الملك / عبد العزيز على بيعة أهل الحجاز له ، وأغلق باباً كان من الممكن أن يفتح على المسلمين شراً مستطيراً ، وبذلك أصبح عبد العزيز / ملكاً للحجاز وسلطاناً لنجد وملحقاتها [(١)] ، ابتداءاً من سنة ١٩٢٦ م .

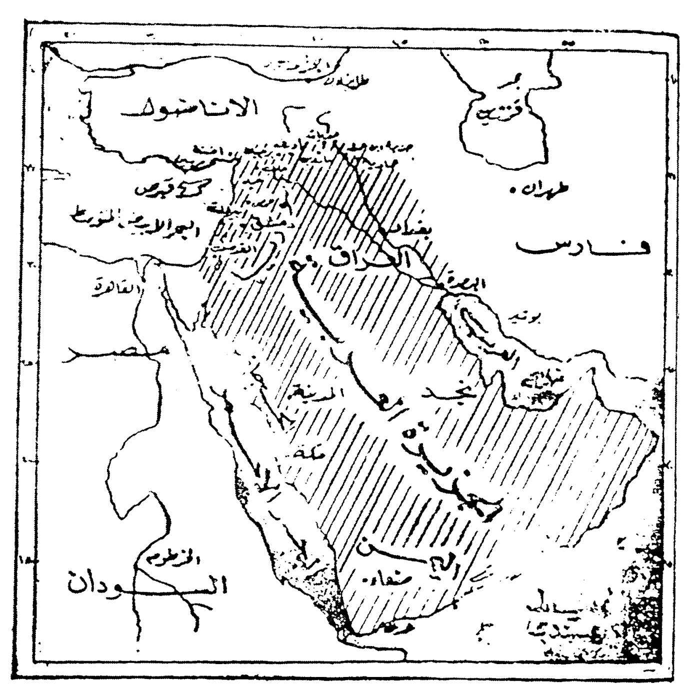
وفى سنة ١٩٣٢ م تم توحيد جميع بلدان الدولة التى جاهد عبد العزيز فى سبيل لم شملها وأطلق عليها : المملكة العربية السعودية .

---

(١) د/ مديحة درويش ـ تاريخ الدولة السعودية ـ ص ١٢٩ ومابعدها .



الحروب السلفية
في الجزيرة العربية



القسم الشرقى من العالم العربى والذى طالب باستقلاله الشريف حسين بن على



الفصل الثامن

اليمـــن

اليــمن

اتخذ دخول اليمن تحت السيادة العثمانية طابعاً سلمياً فى بداية الأمر عندما أرسل السلطان سليم أمراً سلطانياً إلى إسكندر الجركسى (المملوكى) بأن يظل والياً على اليمن تحت الحكم العثمانى ، وعلى الفور أطاع إسكندر الأمر ، وارتدى ملابس الأتراك وحول الخطبة باسم السلطان سليم ، وبذلك تولى منصبه فى العهدين المملوكى والعثمانى ولذلك أطلق عليه اسكندر المخضرم .

كانت الحالة فى اليمن مضطربة للغاية بسبب السياسة الجائرة للمماليك والصراع بين قادتهم الذين قتلوا اسكندر وعينوا مكانه كمال الرومى الذى قتل وتولى مكانه اسكندر بك القرمانى ، حتى أرسل العثمانيون الريس سلمان من مصر إلى جدة واصطحب معه صنجقها الأمير حسين الرومى على رأس حملة لتوطيد دعائم الحكم العثمانى فى اليمن وإقرار السلام ، والدفاع عن المراكب والسواحل الإسلامية التى كانت تتعرض لضربات البرتغاليين ، إلا أن القرمانى رفض الخضوع لهما فحارباه وتمكنوا من دخول زبيد (اليمنية) سنة ١٥٢٣ م .

ومالبث أن شب الخلاف بين سلمان والرومى مما اضطر سلمان للجوء إلى مصر موغراً صدر واليها ضد الرومى حتى وافق الوالى بإرسال سلمان على رأس حملة للعمل على استقرار الأحوال فى اليمن ، ومع ذلك فقد ازداد الحال سوءاً إذ أنه بوصول الريس سلمان إلى اليمن وجد أن حسين الرومى قد مات وخلفه مصطفى الرومى فقامت المعارك بين الأخير وسلمان انتهت بهزيمة الرومى سنة ١٥٢٧م ، وقتل سلمان على يد رجال خير الدين (أحد المماليك) فقال أحد أتباع الريس سلمان بالانتقام وقتل خير الدين .

هذه السنوات المريرة وهذا التخبط العثمانى مع بقايا المماليك فى اليمن ابتداءاً من دخول العثمانيين إلى الشرق الإسلامى إلى سنة ١٥٣٨ وهو التاريخ الذى قامت فيه أول حملة رئيسية إلى اليمن بقيادة سلمان باشا الخادم ليدعونا بلاشك إلى أن نعيد

النظر فيما يذكره غالبية المؤرخين من اضطلاع العثمانيين بمسئوليتهم تجاه السواحل الإسلامية العربية على البحر وحمايته من البرتغاليين حرصاً منهم على المقدسات الإسلامية المطلة على هذا البحر ، ففى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون يخترقونه ويهددون سواحله كان العثمانيون مشغولين بأمور أقل أهمية ، ولو كانوا جادين طوال هذه السنوات العشرين - المشار إليها - فى تجهيز السفن وتجييش الجيوش لتحقيق تلك الأهداف (التى سطرها المؤرخون من بناة) أفكارهم لفعلوا الكثير قبل استفحال أمر القوى الأوربية وتهديدهم وسيطرتهم على السواحل الإسلامية العربية فى الخليج العربى والبحر الأحمر .

وحتى حملة سليمان الخادم سنة ١٥٣٨ م التى تأخرت عشرين عاماً فعلى الرغم من ضخامة حجمها (ثمانين سفينة تم بناؤها فى مصر) ومع ذلك يذكر المؤرخون أن قائدها سليمان كان قد تخطى الثمانين عاماً ووصفوه بأنه كان سفاكاً للدماء ضعيف العقل عديم الرأى .

والذى يؤكد هذا الوصف ما صنعه عند وصوله عدن التى كانت فى حوزة عامر ابن داود الطاهرى الذى لم يتأخر فى فتح أبواب عدن أمام العثمانيين مرحباً بهم فما كان من الجند إلا أنهم استباحوا المدينة نهباً وسلباً ثم اختتموا عملهم الشنيع بأشنع منه عندما قتلوا مضيفهم عامر الطاهرى غدراً وخيانة بعد أن عاهدوه بالأمان [١] .

وربما تفسر لنا هذه الأحداث ما انطوى عليه الحكم العثمانى فى اليمن طوال السنوات التالية وما قاساه العثمانيون من ويلات الثورات اليمنية التى ما هدأت حتى أخرجت العثمانيين من أغلب بقاع اليمن عدة مرات ولم يهنأ العثمانيون بحكمهم لليمن يوماً واحداً حيث إنهم قد فقدوا الثقة منذ الأحداث الأولى كما سنرى وفقدوها أيضاً عند الهنود الذين انصرفوا عنهم بسبب أحداث الغدر هذه وأصبحت سمعتهم فى غاية السوء .

ونلاحظ نشوب الثورات بين الحين والأخر فقد تبع موت سليمان القانونى

(١) د/ محمد أنيس - مرجع سابق - ص ١٣١ ، ١٣٢ .

سنة ١٥٦٦م ، وتولى مراد الثالث أن خطت الدولة العثمانية خطوات واسعة نحو الضعف والهزال ، وظهر تمرد للحاميات العثمانية فى عهد الوالى بهرام باشا (١٥٧٠ ـ ١٥٧٥) وكان دفتر دار اليمن يساعد على إشعال جذوة هذا التمرد .

وفى أوائل الثلث الأخير من القرن السادس عشر ازداد تمرد اليمنيين حتى كادت الثورة تنشب على العثمانيين لولا وفاة المطهر ، وانشغال أبنائه فى منازعاتهم ، إلا أنه قد تم تقسيم المنطقة الشمالية (التى كان يسيطر عليها المطهر) بين أبنائه وأعوانه كل على مقاطعة منها ، مما أضعف هذه الجبهة فى مواجهة الدولة العثمانية وساعد على استقرار الحكم العثمانى نسبياً فى اليمن .

وبعد بهرام جاء مراد باشا (١٥٧٦ ـ ١٥٨٠) الذى اتبع سياسة التسامح فى اليمن وأعلن عفوه عمن اقترف أخطاءاً سابقة ، ولن يحاسب إلا ما يقترف من جديد وأدت هذه السياسة إلى تثبيت أقدام العثمانيين ، وكذلك فعل الوالى حسين باشا (١٥٨٠ ـ ١٦٠٥) الذى استخدم اللين فى غير ضعف ، وعمل على استمالة اليمنيين بالهدايا ، والمرتبات لكبار مشايخ القبائل ، وقضائه على الثورات فى مهدها

ومع ما تقدم فقد طرأت عوامل عديدة فى أواخر القرن السادس عشر جعلت اليمن يعود إلى الثورات منها ضعف قبضة العثمانيين عليه ، وعدم تمكنهم من مساندة ولاتهم ، بالإضافة إلى طبيعة اليمنيين وطبيعة بلادهم الجبلية الوعرة وضعف إمكاناتهم الإقتصادية .

كما كان لظهور الإمام القاسم بن محمد (١٥٩٧ ـ ١٦٢٠) أثر وأى أثر على الحكم العثمانى ، فقد دعا القاسم إلى إمامته فى بداية القرن السابع عشر ، وفرض سيطرته ونفوذه على أغلب الأقاليم الشمالية فيما بين صعدة وصنعاء ، ورغم وصول الإمدادات العثمانية إلا أنها لم تتمكن من الإمام الذى ظل يقاوم العثمانيين قرابة الثمانية عشر عاماً ، اضطر العثمانيون فى نهايتها إلى عقد الصلح سنة ١٦١٩ م مع الإمام القاسم على الاعتراف بما تحت يده من بلاد ، فتوطدت بذلك دولة القاسمية الزيدية فى اليمن التى استمرت حتى قيام الجمهورية سنة ١٩٦٢ م .

وبوفاة القاسم سنة ١٦٢٠م بايع الأهالى ابنه محمد إماماً ، وتلقب بالإمام المؤيد محمد بن القاسم (١٦٢٠ ـ ١٦٤٥) الذى استطاع أن يجمع الشمال والجنوب فى مواجهة العثمانيين وإخراجهم من المدن اليمنية الواحدة تلو الأخرى ، وأعلن أمير عدن انضمامه إلى الإمام ، وأصبح موقف العثمانيين فى حرج بالغ ، انتهى إلى أن اضطرت الحكومة العثمانية إنهاء وجودها فى اليمن ، وإجلاء قواتها منه ، وأصبحت أول ولاية عثمانية تنسحب من السيطرة العثمانية .

وظل اليمن مستقلاً ما يربو على مائتى عام تحت سيطرة وحكم الأئمة الزيديين حتى عاد العثمانيون إليه مرة ثانية سنة ١٨٧٢ م[1] .

ومن الأمور التى يجب الإشارة لها : أن محمد على باشا قد أعاد للسيادة العثمانية العديد من بلدان اليمن ابتداءاً من سنة ١٨١٨ هـ ، حيث صاحب استيلاء ابنه إبراهيم باشا على أجزاء كبيرة من شبة الجزيرة العربية وما تلاها أن استولت جيوش محمد على على الكثير من بلدان اليمن مثل مخا ، وتعز ، وصنعاء ، والقنفذة والحديدة ، وغيرها ، وظلت جيوش محمد على تحكم البلاد اليمنية حتى سنة ١٨٤٠ م عندما اتفقت كلمة المؤتمرين فى لندن بإرغام محمد على على سحب قواته من الجزيرة العربية ، فاضطر فى النهاية إلى الإذعان لهذه الاتفاقات الأوربية ، وأمر فى أوائل سنة ١٢٥٦ هـ/ ١٨٤٠ م قواته المتمركزة فى بلاد اليمن بالتجمع فى مدينة القنفذة ، والحديدة والانطلاق منهما إلى جدة حيث السفن المصرية رابضة فيها ليتم نقلهم وعتادهم إلى مصر ، وبذلك خرج محمد على والسيادة العثمانية من بلاد اليمن[2] .

---

(١) د/ جلال يحيي ـ العالم العربي ـ ص ٢٠٠ وما بعدها .

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة ـ الوثيقة رقم ٧ أصلية ـ محفظة ٢٦٩ عابدين ـ من إبراهيم توفيق إلي صاحب الدولة ـ ٢٤ محرم ١٢٥٦ هـ .

وانظر : الوثيقة ١٢ أصلية ـ محفظة ٢٦٩ عابدين ـ من أحمد شكري إلي صاحب الدولة ـ ٥ ربيع أول سنة ١٢٥٦ هـ . =

وفى عام ١٨٤٩ نشب خلاف عنيف بين حكام تهامة اليمن ، واستنجد أحدهم بالسلطان عبد المجيد الذى انتهز الفرصة وأصدر أوامره إلى نائبه بجدة بأن يقوم بمصاحبة الشريف محمد بن عون على رأس قوة بحرية كبيرة إلى ميناء الحديدة باليمن وبالفعل تمكنت القوات العثمانية من الإستيلاء على الحديدة بسهولة ، والتوغل منها إلى أن دخلت صنعاء بدعوة الإمام محمد بن يحيى ، الأمر الذى أثار أهلها ، وتمكنوا بمساعدة القبائل المجاورة من طرد العثمانيين من صنعاء ، فلجأوا إلى السواحل التى ظل نفوذهم قاصراً عليها ، حتى عادوا إلى صنعاء سنة ١٨٧٢م بقيادة أحمد مختار باشا قائد القوات العثمانية فى عسير [١] .

وقد واجه الإمامين محمد بن يحيى ، وابنه يحيى الملقب بالمتوكل العثمانيين فى صراع ومعارك عديدة ابتداء من سنة ١٨٧٢م حتى تمكن الإمام يحيى من دخول صنعاء فى ٢١ من إبرايل سنة ١٩٠٥ م

ومع ذلك عاد الصراع بين الطرفين فى العام نفسه الذى استمر مع ما صاحبه من مفاوضات للصلح انتهت إلى عقد صلح « دعان » فى سنة ١٩١١م ، وبذلك هدأت الأحوال فى اليمن بين الجانبين .

الحرب العالمية الأولى وأثرها على اليمن

كانت هناك عوامل عديدة منعت اليمن من الانضمام إلى بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى كان على رأسها : موقف الإمام يحيى ، ومركزه الدينى جعله يحجم عن الانضمام إلى القوى غير الإسلامية ضد الدولة العثمانية ، كما أن صلح دعان سنة ١٩١١م معها قد شكل قيداً منعه من محاربتهم ، هذا بالإضافة إلى الوضع الجغرافى للمناطق التى كان يحكمها الإمام يحيى التى كانت عبارة عن هضبة داخلية

= و : الوثيقة ٨٧ محفظة سايره ـ من الجناب العالي إلي الشريف محمد بن عبد المعين ـ ١٢ ربيع أول سنة ١٢٥٦هـ

و : الوثيقة ٧ أصلية ـ محفظة ٢٦٩ عابدين ـ من الشريف محمد إلي باشمعاون الخديوي ـ ١١ من رمضان سنة ١٢٥٦ هـ .

(١) د/ عبد الرحيم عبد الرحمن ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر ـ ص ٣٥٣ .

بعيدة عن البحر ، ويصعب اتصالها بالساحل ، واتصاله بالإنجليز والطليان .

هذا فى الوقت الذى أمكن للبريطانيين فيه الاتفاق مع الإدريسى الذى كان يحكم منطقة عسير ، وله إمكانيات جغرافية بإشرافه على الساحل الذى أمكن من خلاله الاتصال بالإيطاليين والبريطانيين ، كما أنه يمتلك موقعاً استراتيجياً يمكنه من إثارة المتاعب فى وجه الأتراك ، وعرقلة مواصلاتهم بين الحجاز واليمن .

ولذلك فقد نجح الجنرال شو Show المقيم البريطانى فى عدن عندما عقد معاهدة فى إبريل سنة ١٩١٥م مع الإدريس الذى تعهد بمهاجمة الأتراك وزعزعة استقرارهم ومحاولة إخراجهم من اليمن .

وعلى الرغم من عدم حدوث أية معارك عسكرية بين الإدريسى والترك إلا أنه استفاد من فتح موانيه على البحر الأحمر فاستمرت علاقاته التجارية والاقتصادية ، بينما حوصرت المناطق اليمنية ، وتوقفت تعاملاتها التجارية [١] .

والخلاصة أن بريطانيا نجحت فى شغل أكبر قدر ممكن من القوات التركية فى منطقة اليمن حرمتها من المشاركة فى مناطق أخرى إبان الحرب ، واستمرت بعض العمليات العسكرية ، والمناورات ، وبعض المناوشات بين الطرفين حتى إعلان الهدنة سنة ١٩١٨م حيث توقفت هذه العمليات .

ومع ذلك فقد كان الوضع بين الإمام يحيى ، والأتراك هادئاً ، مما مكن للإمام الاستمرار فى حكم بلاده حتى قامت الثورة فى وجهه ، ونجح الثائرون بالفعل فى اغتياله بزعامة عبد الله بن الوزير (صهره) فى فبراير سنة ١٩٤٨ هـ .

وحاول ابن الوزير الانفراد بالسلطة والإمامة إلا أن أحمد بن الإمام يحيى لم يتركه يهنأ بها أكثر من شهر واحد ، وتمكن من الإستيلاء عليها ، وظل يحكم اليمن حتى قيام الجمهورية اليمنية فى سبتمبر سنة ١٩٦٢ م [٢] .

---

(١) Hureweitz : Diplomacy , op . cit , vol II . p 12 - 13 .

و : د/ محمود منسى ـ تاريخ الشرق ـ ص ٣٢٨ وما بعدها .

(٢) د/ عبد الرحمن ـ تاريخ العرب ـ ص ٣٥٤ وما بعدها .

الفصل التاسع

الخليج العربى

أولاً : عمان

ثانياً : قطر

ثالثاً : البحرين

رابعاً : الإمارات العربية المتحدة

خامساً : الكويت

سادساً : العراق

الخليج العربى

حقق البرتغاليون نجاحاً ساحقاً بعد أن حولوا التجارة الشرقية بعيداً عن طريقيها القديمين (الخليج ، ومصر) إلى طريق رأس الرجاء الصالح وصولاً إلى بلاد أوربا ، وفقدت بذلك البلاد الإسلامية أغلب المكاسب الاقتصادية بسبب الغزو البرتغالى للبحار الشرقية الإسلامية فيما عرف بالأسر النقلى Transport Capture [1]

وقد عنى السلطان سليم أثناء إقامته بمصر بوضع خطة لمكافحة الأخطبوط البرتغالى فى البحر المتوسط والمحيط الهندى ، وفى سبيل ذلك أمر عند عودته إلى بلاده ببناء أسطول بحرى مكون من مائة وخمسين سفينة فى ميناء السويس ، وإمداده بالرجال والعتاد من مدافع ونحوه لمنازلة البرتغاليين .

إلا أن سليماً قد عاجلته المنية فى سنة ١٥٢٠م قبل اكتمال هذه التجهيزات فتم إعدادها فى عهد ابنه سليمان المشرع (١٥٢٠ - ١٥٦٦) م[2] .

وكان البرتغاليون قد زحفوا إلى الهند بقيادة فاسكودا جاما حيث تلته قيادات برتغالية أخرى على رأس حملات عسكرية أشهرها حملة كبرال ، وحملة دالميدا ، وحملة ألبوكيرك ، وقامت سياستهم فى المحيط الهندى على احتكار الملاحة والتجارة فيه بإنشاء مراكز تجارية مسلحة على طول الساحل الغربى للهند ، وجزر المحيط كذلك .

وتمكن ألبوكيرك فى سنة ١٥٠٦ من الإستيلاء على جزيرة سوقطره الاستراتيجية فى مدخل البحر الأحمر عند باب المندب ، وجعلها بعد تحصينها مركزاً بحرياً متقدماً ثم اتجه نحو الخليج العربى ، فأعمل فى مدنه الواقعة على الساحل الشرقى الجنوبى

---

(١) جريدة الأهرام المصرية - العدد ٣٢٢٦٤ - السبت ١٢ من ابريل سنة ١٩٧٥ - ص ٧ - مقال للدكتور / جمال حمدان ، بعنوان : التحدي الذي يواجه قناه السويس .

(٢) د / محمود صالح منسى - تاريخ الشرق العربي الحديث - القاهرة - ١٩٩٠ - ص ٤٩ ، ٥٠ .

لشبه الجزيرة العربية حتى مسقط الحرق والتدمير .

وفى مدينة (مشيخة) مسقط التابعة لمملكة هرمز استطاع أن يحرق المدينة بعد أن لقى مقاومة عنيفة من أهلها ، وأذاق الأسرى منهم ألوان التعذيب ثم انتقل منها إلى جزيرة هرمز التى كانت تخضع إسمياً لإيران فى دفع الجزية ، ولما قطعها ألبوكيرك عن إيران أرسلت مبعوثين للمفاوضة فى تقسيم النفوذ فيما بينهما ، وانتهت بتوقيع معاهدة سنة ١٥٤٥م سلمت فيها إيران بوضع البرتغال فى هرمز بينما تساعد البرتغال الإيرانيين فى الحصول على البحرين ، فيما يعد محالفة بين الطرفين [١] .

ورغم أن العثمانيين قد أخفقوا فى مجابهة العثمانيين وكبح جماحهم فى سواحل الهند ، إلا أنهم حاولوا الإبقاء على سواحل البلاد الإسلامية العربية (خاصة على شاطىء البحر الأحمر) سليمة دون أن يعبث بها البرتغاليون .

فقد تقدم أسطول برتغالى بقيادة عما نويل داجاما لتحطيم قوة العثمانيين فى السويس سنة ١٥٤٠م إلا أن يقظة أمير سواكن الذى أرسل تحذيراً للعثمانيين قد فوت الفرصة على الأسطول البرتغالى ، مما دفع البرتغاليين إلى العودة إلى سواكن وإحراقها مع تدمير مصادر المياه فيها [٢] .

أما فى الخليج فقد عجز العثمانيون - على ما يبدو - عن استئصال شأفة البرتغاليين منه ، إذأنهم لم يتمكنوا من تثبت أقدامهم فى البصرة بعد أن خضعت لهم سنة ١٥٤٦م وأرادوا اتخاذها قاعدة لهم (كرأس جسر) يتقدمون منه صوب الخليج للسيطرة على أقطاره وحمايتها ، ويكونون بذلك فى مواجهة الخطرين الأوربى والفارسى ، ولكنهم عجزوا عن مقاومة العشائر العربية فى البصرة وما حولها ، ولذلك ظل موقفهم ضعيفاً حتى بعد أن أنشأوا قاعدة لهم فيها وكان صد البرتغاليين قد جاء من باب آخر إذ أنهم لم يهنأوا كثيراً بسيطرتهم على البحار الشرقية فسرعان ما

---

(١) د/ محمد أنيس - الدولة العثمانية - ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) د/ محمود صالح منسى - تاريخ الشرق العربي الحديث ص ٥١ .

أرغمهم الأسبان على الخضوع ، وظل البرتغاليون فى أسر الاحتلال أكثر من ستين عاماً بين سنة ١٥٨٠ ، ١٦٤٠ ، مما أضعف من إمكاناتهم العسكرية ، وأضاع هيبتهم وعانت منه البرتغال أشد المعاناة[١] ـ بالإضافة إلى ظهور منافسين جُدد ولا سيما الإنجليز الذين تقدموا بخطوات ثابتة للسيطرة على البحار فى العصر الحديث ، وبعض المعاصر .

وعلى كل فقد بادرت كل من القطيف والإحساء بإعلان ولائهما للعثمانيين ، الذين أقاموا عليهما إيالة عثمانية سنة ١٥٥٠ هى إيالة الإحساء ، كما أعلنت البحرين سنة ١٥٥٤م ولاءهـا هى الأخرى لـهم ، كما استولوا على سـواكن ، ومصوع (مخارج الحبش) على البحر الأحمر لقطع أيه اتصالات بين البرتغاليين والأحباش ومنع إقامة تعاون بينهما[٢] ، حاول البرتغاليون استعادة القطيف ، ولكنهمُ فشلوا رغم قلة حاميتها فضربوها بمدافعهم ثم رحلوا عنها ، ورداً على ذلك بعث السلطان سليمان المشرع بأسطول مكون من ثلاثين سفينة بقيادة بيرى الريس (قبطان الأسطول العثمانى فى السويس) الذى تحرك فى سنة ١٥٥١م ماراً بعمان ، ثم استولى على مسقط ، وتغلب على الأسطول البرتغالى ، ثم حاصر هرمز ، ولكنه انسحب منها لحصانتها ، وتبعه مجموعة من القادة البحريين إلا أنهم قد فشلوا أمام التفوق البرتغالى فى القرن السادس عشر الميلادى[٣] كان من بينهم بيبريك ، والريس مراد وكذلك على بيك اللذين كانوا على شاكلة المغامرين ، فكانت أعمالهم سريعة

---

(١) لوريمر ج ـ ج ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخى ـ جـ ١ ـ ترجمة / مكتب أمير قطر الشيخ خليفة ـ بدون تاريخ ـ ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) فقد كانت هناك اتصالات مبكرة حيث جاءت إلى الحبشة بعثة برتغالية بزعامة دورن روديجو دي ليما تحمل بنادق لإقامة تعاون بينهما ولكن البعثة خاب أملها عندما وجدت الحبشة ممزقة ومهلهلة

انظر : نيقولاي إيفانوف ـ الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦ ـ ١٥٧٤) ـ ترجمة يوسف عطا الله ـ ١٩٨٨ م ـ ص ١٥١ .

وانظر : د/ سعد بدير الحلواني ـ الاتصالات الأوربية الحبشية وأثرها علي العالم العربي ـ ندوة التوسع الأوربي الأول باتحاد المؤرخين العرب ـ ١٩٩٥ ص ٩ .

(٣) د/ محمود صالح منسى ـ تاريخ الشرق العربي الحديث ـ ص ٥١ ، ٥٢ .

وخاطفة .

وفى بداية القرن السابع عشر عجز البرتغاليون عن إرسال تعزيزات إلى مراكزهم التجارية فى البحار الشرقية ، وضعفت شوكتهم مما أدى إلى تراخى سيطرتهم على الخليج العربى ، وزادت عداوة الشعوب الشرقية (إفريقية وآسيوية) لسياستهم الجائرة ، بالإضافة إلى إسهام الشاه عباس (شاه فارس (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) فى إضعاف مركز البرتغاليين فى الخليج وتلاقى مصالحه مع المصالح الإنجليزية اللذان تعاونا فى تصفية الوجود البرتغالى فيه ، وانتهى الأمر بتغلب واستمرارية الإنجليز والهولنديين والفرس والعرب فى الخليج ، وفقد البرتغاليون بذلك هرمز سنة ١٦٢٢ [١] ، ومسقط سنة ١٦٥٠م ، واختفى استعمارهم الحربى من المنطقة مع بقاء أعمالهم التجارية فقط هناك حيث إنهم اشتهروا بإغراق أسواق البصرة وغيرها بالبضائع المنافسة لبضائع غيرهم .

وشهدت منطقة الخليج صراعاً عنيفاً بين الدول الاستعمارية الكبرى ، هولندا ، فرنسا ـ انجلترا ، وروسيا على دعم نفوذ كل منها ، ولكن النفوذ والسيطرة فى النهاية قد تركز على الانجليز والفرنسيين اللذين تصارعا على التجارة ، وامتلاك القواعد العسكرية [٢] .

أما الفرس وعلاقتهم بالخليج فقد بلغوا أوج قوتهم فيه فى عهد الشاه عباس عندما تحالفوا مع الإنجليز فى حرب البرتغاليين وإخراجهم من هرمز سنة ١٦٢٢ ، ثم بادر الشاه ببناء قرية صغيرة فى مواجهة هرمز أطلق عليها بندر عباس ، اعتنى به وفتحه للتجارة الأوربية ، وبعد عدة سنوات غدت القرية واحدة من أهم المناطق التى اكتسبت شهرة عظيمة فى المجال التجارى ، وفى المقابل حقق الشاه هذه المكاسب بعد أن دفع الثمن غالياً حيث جلب الامتيازات الأوربية هولندية وإنجليزية ليس إلى بلاده

---

(١) تم ذلك باتحاد بين قوات الفرس والإنجليز وتقاسما النفوذ والغنائم بعد الإطاحة بالبرتغاليين منها .

(٢) د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ـ ص ٧٥٧ .

فحسب ، بل وإلى بقية بلاد الخليج .

فقد عمدت الدول الإستعمارية إلى الزج بشركاتها التجارية وأمدتها بكل أسباب القوة التى مكنتها من إعلان الحرب وعقد المعاهدات مع الآسيويين والإفريقيين على السواء ولذلك فقد تأسست شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، بعد شركة الهند الشرقية الهولندية بست سنوات فقط حيث كانت الهولندية سنة ١٥٩٤م ، وكانت الإنجليزية قد قامت سنة ١٦٠٠ [١] وقد دخلت فرنسا الحلبة ، والمشاركة فى العملية التجارية ، وعقد الاتفاقات فى المنطقة بعد أن خفتت الأنشطة الهولندية [٢] فحلت الفرنسية محلها ، وكان ذلك ابتداءاً من سنة ١٧٠٨م عندما بدأت الاتصالات الفارسية ، وتلاها بعد عدة سنوات (١٧١٧م) ما تقرر من إنشاء قنصلية فرنسية فى شيراز ولكن الأمر لم يتم وفى القرن الثامن عشر دعم الفرنسيون مركزهم فى المحيط الهندى بإقامة مستعمرة لهم فى جزيرة موريشيوس ، وجزيرة ريونيون ، ولم ينته القرن الثامن عشر حتى كانت التجارة والمصالح قد راجت بينهما وبين سواحل عمان [٣] .

ظهور القوى العربية فى الخليج

ظل النظام المستند على التشكيل القبلى فى الخليج قائماً حتى نهاية القرن السادس عشر ، وبعدها بدأت تظهر تكوينات سياسية لم تتخل عن التشكيل القبلى ولكنها تحولت إلى مفهوم جغرافى إقليمى بحدود ربما تكون غير دقيقة فى بعض

---

(١) د/ صلاح العقاد ـ التيارات السياسية في الخليج العربي من بداية العصور الحديثة حتي أزمة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١م ـ الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٩١م ـ ص ٢٠ وما بعدها .

(٢) ضعف مركز هولندا في الخليج العربي بعد الحروب التي خاضتها في أوربا ضد انجلترا من سنة ١٦٥٢ ـ ١٦٦٧ فانسحبوا من البصرة ١٧٥٢ ، وبوشهر عام ١٧٥٣ ، وبندر عباس ١٧٥٨ ، وفي سنة ١٧٦٦م اختفي نفوذهم وتجارتهم من الخليج .

انظر : د/ عبدالعزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ٧٥٧ .

(٣) د/ محمد أنيس ـ الدولة العثمانية ـ ص ١٩٣ م .

ود/ صلاح العقاد ـ التيارات السياسية ـ ص ٣٨ ، ٣٩ .

الأحيان ولكنها بدأت تأخذ هذا الشكل التنظيمى فى السنوات التالية (طوال قرنين) وتأخر بعضها إلى منتصف القرن التاسع عشر ـ كما سنرى فى آخر الدراسة التالية :

أولا : عمان

عمـــان

تعد عمان من أولى التكوينات التى ظهرت عليها أمارات القوة فى العصر الحديث ، وساعدها على ذلك ظهور الإمامة فيها مبكراً[١] ، واشتراكها فى مدافعة البرتغاليين وطردهم ، وبروز قوتها وازديادها إبان حكم اليعاربة (١٦٢٤ ـ ١٧٣٨)

وقد شجعهم على خوض غمار الحرب ضد البرتغاليين تمكن الحملة البريطانية الفارسية المشتركة من إخراج البرتغاليين من هرمز (المعقل الحصين) سنة ١٦٢٢ ، فقام العمانيون بمتابعة تحرير بلادهم فى عهد ناصر بن مرشد اليعربى (١٦٢٤ - ١٦٤٩) بمهاجمة الحاميات البرتغالية الأمر الذى مكن العمانيين من استعادة الشحر سنة ١٦٤٣م ، ومسقط سنة ١٦٥٠م ، وبعد عدة سنوات تم طردهم من بقية الأراضى والسواحل العمانية .

وعلى إثر ذلك انتشرت انتصارات العمانيين عبر المحيط الهندى إلى المدن العربية بالساحل الشرقى الإفريقى التى يسيطر عليها البرتغاليون ، فأسرع الأفارقة يطلبون النجدة من الإمام سلطان بن سيف[٢] فأرسل لهم أسطولاً ساعدهم على طرد البرتغاليين من بعض القلاع هناك ، وبعدها تم حصار قلعة يسوع فى همبشه أكثر من مرة حتى تم للعمانيين الإستيلاء عليها فى ديسمبر ١٦٩٨م فى عهد سيف بن سلطان بعد أن أرسل مجموعة من السفن الكبيرة تحمل كل واحدة منها ما يربو على الثمانين مدفعاً ، ناهيك عن مئات السفن الصغيرة التى كان يمتلك أغلبها أفراد القبائل من

---

(١) اعتنق العمانيون المذهب الأباضي ، وكونوا دولة مستقلة في أواخر الدولة الأموية (١٢٩ هـ) انظر : د / زاهية قدورة ـ تاريخ العرب الحديث ـ ص ٧٠ ، ٧١ .

(٢) Bodgar , G.p. History of the Lmams and Seyyids of Oman by Saleh bin Razik from 66I to 1856 - London , 1871 . p . 92 .

Coupland R. East Africa andits invoders from the Earlist times to the Death od Seyyid Said in 1850 , ox Form . 1938 . pp 65 - 66 .

سكان الموانئ ، ، وكانت عاصمة بلادهم فى الداخل رغم نشاطهم البحرى اتقاء للغزوات المفاجئة من البحر - على ما يبدو - فاتخذ سلطان بن سيف مدينة نزوى عاصمة له ، بينما اتخذ سيف بن سلطان الرستاق عاصمة لبلاده [١] .

ويبدو أن الأخير (سيف بن سلطان) كان هو آخر الأئمة الأقوياء إذ أن من جاء بعده سلطان بن سيف الثانى لم يعمر طويلاً وانقسمت البلاد بعده بين المتنافسين من أهله ومن غيرهم ، وفى أثناء هذا الصراع على من يتولى الحكم وقع انقسام آخر أشد خطورة بين القواسم وبنى إياس ، وهو فى الوقت نفسه انقسام بين القيسية واليمنية :

ظهور القواسم وبنى ياس

فقد كان تحرير اليعاربة لعمان من الكابوس البرتغالى (أوائل القرن السابع عشر) سبباً فى ظهور تغييرات عديدة على حالة القبائل العربية وحركة تنقلات جديدة فى شرقى الجزيرة العربية كلها ، فقد ساد الأمن ، وتحركت القبائل من الداخل فى اتجاه الساحل ، وبدأت تسترد نشاطها الملاحى والتجارى ، والغوص وراء اللؤلؤ ، فتحركت جماعة العتوب نجد إلى البحرين والكويت حيث استقر آل الصباح منهم فى الكويت بينما استقر آل خليفة والجلاهمة فى الزيارة والبحرين ، أما فى عمان فقد ظهرت قوتان صاحبتا ظهور دولة البوسعيد (١٧٤١) كان لهما استقلال عن هذه الدولة وهما :

القواسم ومقرهم فى رأس الخيمة حيث يمتد نفوذهم على الساحل حتى الشارقة وقوتهم بحرية ، وبنى ياس وهم قوة برية يتزعمهم آل نهيان يعيشون فى الظفرة ومدينة أبو ظبى ونفوذهم يبدأ من دبى حتى حدود قطر [٢] .

---

(١) السالمى (نور الدين عبد الحميد) - تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان - جـ ٢ - القاهرة - ١٣٥٠ هـ - ص ٩٨

(٢) د/ محمد مرسي عبد الله - إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولي ١٧٩٣ - ١٨١٨ - جـ١ المكتب المصري الحديث - القاهرة - ١٩٧٨م - ص ٨٩ ، ٩٠ .

أولاً : القواسم :

وهم الغافرية الذين ينتسبون إلى العرب الشماليين (العدنانيين) الذين جاءوا من نجد ، وكانوا يتخذون العلم الأبيض شعاراً لهم ، وهم فى الغالب من أهل السنة الذين اعتنقوا السلفية بعد أن ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب الإصلاحية فى نجد وظهرت قوتهم فى النصف الأول من القرن الثامن عشر عندما شاركوا قبائل عمان فى طرد الفرس من بلادهم (١٧٣٧ ـ ١٧٣٩) ، ولكن أحمد بن سعيد الذى تولى السلطة عقب هذه الأحداث قد اعتمد فى بداية حكمه على الهناوية الذين منهم بنى ياس المنافسين للغافرية الذين خرج منهم القواسم ، ولذلك فقد احتدم العداء بين القواسم وأحمد بن سعيد فترة حتى تم الصلح بينهما ، مما أتاح الفرصة لقوة القواسم أن تزداد ، ويتسع نفوذهم الذى شمل ساحل عمان من الشارقة حتى روس الجبال ، وأم القوين ، والعجمان وبلغ أسطولهم أكثر من ثلاثة وستين مركباً كبيراً ، وأكثر من ثمانمائة مركباً متوسطاً وصغيراً ، فى حين وصل عدد البحارة عندهم ما يربو على التسعة عشر ألفاً من الرجال المدربين [١] .

وقد أطلق الأوربيون على الساحل الذى تسيطر عليه القواسم اسم (ساحل القرصنة) ، والصحيح أن تسمى ساحل الجهاد فقد أوجع القاسميون بضرباتهم الخاطفة البحرية الأوربية ولا سيما الإنجليزية منها حيث انطلقوا من مراكزهم فى رأس الخيمة والشارقة ، ساعدهم عليها انتماؤهم وتبعيتهم للدولة السعودية الأولى واعتناقهم روح الجهاد التى استمروا عليها سنوات حتى تحالف الإنجليز مع العمانيين وأخذت الأساطيل البريطانية تتبعهم فى مواقع عديدة أهمها حملة ١٨٠٩ ، وأكبرها حملة ١٨١٩ تحت قيادة وليم جرانت كير التى وجهت ضربة قاسمة للقواسم

---

(١) د/ محمد أنيس ـ الدولة العثمانية ـ ص ١٩٧ .
ود/ محمد مرسي عبد الله ـ إمارات الساحل وعمان ـ ص ٩٣ ومابعدها .

اضطرتهم بعدها إلى عقد سلسلة من الاتفاقات ثم حولوا اسم الساحل إلى (الساحل المهادن)[١] .

ثانيا : بنى ياس :

وهم الهنادوية الذين ينتسبون إلى العرب الجنوبيين أو القحطانية ، وكانوا يتخذون العلم الأحمر تميزاً لهم عن غيرهم ، وهم يتبعون المذاهب الأباضى ، وتتكون قبيلة بنى ياس من مجموعة من العشائر منها البوفلاح الذين منهم آل نهيان حكام أبوظبى الآن ، ومنهم البوفلاسا الذين رحل أغلبهم إلى دبى سنة ١٨٣٣ ، ومنهم آل مكتوم حكام إمارة دبى .

وترجع فترة ظهورهم إلى سنة ١٧٦١ عندما هاجر أفراد من قبيلتهم نحو الساحل واستقروا فى مدينة أبوظبى يحكمهم آل نهيان من واحة ليوا بالداخل إلى أن اتخذ الشيخ شخبوط بن دياب من أبوظبى عاصمة له سنة ١٧٩٣ ، واستمر فى زعامته لهم حتى سنة ١٨١٦م عندما استولى على الحكم ابنه محمد بن شخبوط ، ولكن أخوة طحنون تمكن بمساعدة والده وزعماء القبائل من إقصائه عن الحكم والإستيلاء عليه سنة ١٨٣٣م[٢] .

انتقال السلطة من اليعاربة إلى البوسعيد .

وأمام الانقسامات التى نشبت أظفارها فى عمان اضطر سيف بن سلطان الثانى الذى التف حوله العمانيون وبايعوه بالإمامة سنة ١٧٢٨ إلى ارتكاب خطأ فادح عندما استنجد بالفرس مرتين ضد منافسيه بلعرب بن حمير ، وسلطان بن مرشد فجاءوا فى عهد نادر شاه سنة ١٧٣٩ إلى عمان لتحقيق أطماعهم فيه ، واستولوا على مسقط فى الوقت الذى مات فيه سيف بن سلطان ، وقتل منافسه سلطان بن مرشد فى الحرب ضد الفرس ، وخلا الميدان لرجل آخر هو أحمد بن سعيد آل

---

(١) د/ محمد أنيس ـ الدولة العثمانية ـ ص ١٩٧ .

(٢) د/ محمد مرسى عبد الله ـ إمارات الساحل ـ ص ٩٨ وما بعدها .

بوسعيد الذى كان حاكماً على مدينة صحار من قبل اليعاربة .

تعاون أحمد بن سعيد مع العمانيين فى طرد الفرس بحيلة نصبها لهم مما رفع أسهمه وتم اختياره إماماً سنة ١٧٤١ ، فانتقلت بذلك السلطة والإمامة من أسرة اليعاربة إلى أسرة البوسعيد .

وفى عهد هذه الأسرة وقعت عمان معاهدة سياسية مع بريطانيا فى سنة ١٧٩٨ وازدادت العلاقات بينهما فى مجالات عديدة حتى عدت أسرة البوسعيد تحت حماية انجلترا من تمرد وثورة إخوانهم فى المنطقة عليهم [١] .

هذا بالإضافة إلى محاولات انجلترا المستمرة لإبعاد فرنسا عن عمان حيث كانت هناك شواهد تدل على رغبة فرنسا اتخاذ عمان وكراً للفرنسيين للتجسس على الهند البريطانية ، ولا سيما أن هناك علاقات تجارية بين بحارة عمان ، ومستعمرتى موريشيوس وبوربون الفرنسيين فى المحيط الهندى ، ولذلك فقد كانت بريطانيا بالمرصاد لأية محاولات فرنسية تؤدى إلى التقرب من مسقط ، وخاصة تلك العلاقات التجارية السابقة بين فرنسا ومسقط وهذه العلاقات هى التى شجعت بونابرت عندما دخل مصر على إرسال رسائلة إلى كل من إمام مسقط ، والسلطان حيدتيبو فى الهند عن طريق شريف مكة الشريف غالب سنة ١٧٩٩ م [٢] .

ويذهب البعض بعيداً إذ يذكر [٣] : أن سلطان بن أحمد قد أرسل إلى الفرنسيين سنة ١٨٠٣ يطلب منهم وضع مسقط تحت الحماية الفرنسية ، وأنه قد أرسل مجموعة من الهدايا لنابليون بونابرت ، وفى اعتقادى أن هذا الأمر يعدو محاولة من سلطان لتحفيز انجلترا على تحقيق مطالبه العسكرية لمجابهة السعوديين ، هذا فى الوقت الذى اتضحت فيه التجزئة بين شطرين الأول : عندما أحدث سلطان بن أحمد بن سعيد

---

(١) د/ زاهية قدورة ـ مرجع سابق ـ ص ٧٢ .

(٢) د/ سعد بدير الحلواني ـ العلاقات ـ ص ٢٦ وانظر : Coupland R.east Africa - p , 87

(٣) Coupland - R . East Africa . p . 102 .

ماسمى بسلطنة مسقط بعد اغتصابه السلطة من عمه حمد ، واستيلائه على قلاع مسقط ومطرح وبركا وساحل الباطنة ، ولقب نفسه السيد سلطان هذا فيما يخص الساحل .

أما الداخل وهو الشطر المهم فقد ظل مستمراً على المذهب الأباضى الذى عارض أتباعه التعامل والتقرب للأجانب ، بالإضافة إلى أن وعورة مسالكهم الجبلية وعدم اهتمام الانجليز بتلك المناطق الداخلية التى ليس لهم فيها مصلحة جعل هؤلاء العمانيين بعيدين عن النفوذ البريطانى .

وتعد أسرة البوسعيد أيضاً أول من فتح الباب للمعاهدات مع الدول الأخرى ، ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث عقدت معها معاهدة اقتصادية سنة ١٨٣٣م [١] .

أما أهم حدث فى عصر هذه الدولة (البوسعيد) فقد وقع فى عهد السيد / سعيد بن سلطان الذى يعده المؤرخون أعظم سلاطينهم ، ولذلك سنفرد له هذه العجالة :

السيد سعيد بن سلطان

تولى حكم عمان سنة ١٨٠٦ فى وقت كان الصراع الفرنسى البريطانى يشتد أواره ، ولذلك فقد حاول أن يستغل هذه الظروف السياسية الحربية لمصلحة بلاده ومصلحته الشخصية التجارية (حيث عرف عنه أنه كان تاجراً أكثر من كونه حاكماً) والمتتبع لتاريخه مع الأوربيين يلاحظ أنه قد وعى لعبة التوازن الدولى التى وجدها رابحة عند الإنجليز ففتح لهم عقله محققاً ما أرادوا من المحالفة والتعاون ضد المجاهدين من القواسم ، ثم تعاونه خطوة بخطوة فى عملية القضاء على تجارة الرقيق كل ذلك للحصول على بغيته ومساعدة ورضاء الإنجليز عليه حتى إذا قصروا فى حقه نراه اتجه بخفى جنين إلى فرنسا مما يضطر الإنجليز إلى الهرولة نحوه وتلبية طلباته خاصة محاولاته المستميتة فرض سيطرته ونفوذه على الشرق الأفريقى .

---

(١) د/ زاهية قدورة ـ مرجع سابق ـ ص ٧٢ ، ٧٣ .

فقد سبق أن أشرنا إلى أن العمانيين قد تمكنوا من طرد البرتغاليين من بلادهم فى أوائل القرن السابع عشر ثم انتقلوا يتتبعونهم على سواحل شرق أفريقيا حتى طردوهم منه ، ومنذ ذلك الحين بات لهم نفوذ على المنطقة وطمع فى الوقت نفسه حتى إذا كان عهد السيد سعيد حينئذ رغب فى ضم هذه البلاد إلى سلطانه ولا سيما أن أغلب تجارته الشخصية مرتبطة بهذا الساحل الإفريقى ، فى الوقت الذى فقد فيه أرباحاً طائلة من جراء وقف تجارة الرقيق ، ولذلك أراد تعويضاً لذلك وهو : حكم شرق أفريقية خاصة ممبسة وزنجبار ولما كان حاكمها سالم المزروعى يرفض التنازل فقد أبحر بنفسه فى سنة ١٨٢٧م على رأس أسطول مكون من إحدى عشرة سفينة وعلى متنها ألف ومائتى رجل قذفت ممبسة بنار حامية اضطرتها للتسليم وأبرم المزروعيون معه معاهدة يعترفون بسيادة عمان عليهم ، وأن يدفعو نصف دخل ممبسة الجمركى ورفع العلم العمانى على أن يبقى سالم المزروعى والياً عليها ، ومع ذلك لم تستقر الأمور عندما تعرض حكم السيد سعيد للسقوط فعملت انجلترا على مساعدته بسفنها الحربية حفاظاً عليه وعلى مصالحها ، كما ساعدوه فى استقرار ملكه فى زنجبار وعلى طول الساحل الشرقى الأفريقى مما دفعه إلى نقل عاصمة بلاده إلى زنجباز سنة ١٨٣٢ بعد تشييد قصر منيف له ، ومن حين لآخر كان ينتقل إلى بلاده (مسقط) لإدارة شئونها ، ولكن ظلت زنجبار قاعدة لنشاطه [١] ومع ذلك فقد ظلت بحريته تجارية (غير عسكرية) رغم ضخامتها ، ويؤخذ من وثيقة [٢] عبارة عن رسالة من السيد / سعيد إلى محمد على بمصر سنة ١٨٤٠ يطلب فيها مدفعى لأن الوحيد عنده توفى يؤخذ من ذلك افتقاده إلى عسكريين مدربين وعدم عنايته بذلك .

إلا أن اتساع الدولة كان رهناً بفترة حياته ، ولم يستمر بعد وفاته حيث إنه وضع

(١) د / السيد رجب حراز - أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوربي - النهضة العربية - القاهرة - ١٩٦٨ - ص ٩٥ وما بعدها .

وانظر : Coupland R . op . cit . p 261 - 295

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة : وثيقة رقم ٣٨ أصلية - محافظ عابدين - محفظة رقم ٢٦٩ - بتاريخ ذو القعدة سنة ١٢٥٥ هـ .

بوادر الفرقة بين الجهتين (مسقط ، زنجبار) فى حياته عندما أقدم على فصل إدارة الممتلكات العربية عن الممتلكات الأفريقية من السلطنة ، وجعل على كل قسم منها واحداً من أبنائه ، وعندما توفى سعيد فى سنة ١٨٥٦م كان ابنه ماجد تدير (بحكم) زنجبار منذ بضعة أعوام ، بينما ثوينى بحكم مسقط منذ اثنى عشر عاماً ، وقد ظل الأخير محافظاً على وحدة السلطة (التى عمل على ازدهارها أبوه) ، وأفرط فى ادعائه بأحقيته فى الزعامة الشاملة على المنطقتين كليهما باعتباره يحكم العاصمة التاريخية الأولى .

بينما رأى ماجد حاكم زنجبار بأن منطقته أكثر دخلاً وموارداً عن مسقط ولذلك فقد اكتفى بالإعلان عن استعداده دفع مبلغ سنوى لمسقط تعويضاً عن الفرق فى الموارد ولكن ثوينى اعتبر ذلك دليلاً على تبعية زنجبار له فبادر ما جد بقطعها مما عجل بالحرب بين الأخوين ، والجهتين .

وبالفعل جرد ثوينى حملة عسكرية فى أكتوبر سنة ١٨٥٩ م للهجوم والسيطرة على زنجبار ولكنه اصطدم بأسطول بريطانى جاء على وجه السرعة من الهند ، الأمر الذى أوقفه عن مواصلة سيره ، وقبل مرغماً بالتحكيم البريطانى فى مستقبل السلطنة .

واهتبلت بريطانيا الفرصة لتمكن لنفسها ونفوذها فى المنطقتين فأرسلت بعثة لتقصى الحقائق انتهت فى تقريرها سنة ١٨٦١ إلى ضرورة تقسيم السلطنة دون أن يتدخل أحدهما فى شئون الآخر على أن يدفع ماجد لثوينى عشرة ألف جنيه[١] سنوياً ، وعشرين ألف جنيه عن العامين السابقين دون أن يعد ذلك تبعية من أحدهما للآخر .

وفى منتصف القرن التاسع عشر نشبت الصراعات بين أفراد أسرة البوسعيد مما جعلهم يعودون للإمامة فاختاروا سنة ١٨٦٨ م إماماً لهم هو عزان بن قيس بن أحمد

---

(١) د/ صلاح العقاد ـ التيارات السياسية ـ ص ١٢٨ وما بعدها .

ابن سعيد ، خلفه تركى بن سعيد من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٨٨م حيث خضعت البلاد فى عهده تماماً لبريطانيا ، واختفت فى عهده أيضاً الإمامة حتى سنة ١٩١٣م عندما اختار الشعب العمانى إماماً لهم هو سالم بن راشد الخروصى ، الذى حاول استعادة مسقط فقامت الحروب من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٠م بين الداخل والساحل كان من نتيجتها اعتراف بريطانيا باستقلال إمامة عمان الداخلية .

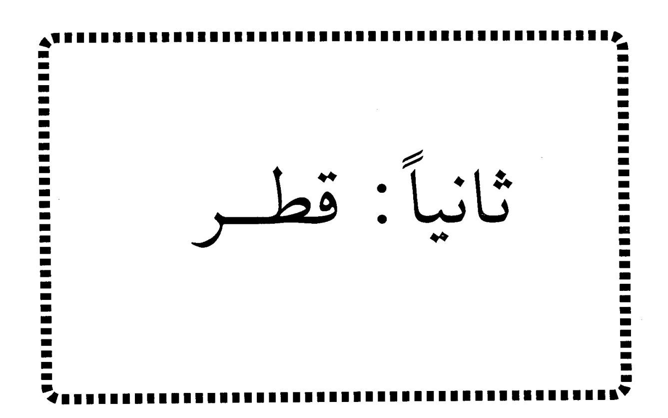
وبعد الحرب العالمية الأولى ظهرت هناك حكومتان : الأولى إمامة عمان بالداخل ، والثانية : حكومة مسقط فى الساحل لكل منهما حكومة شبه صورية وحدود وهمية [١] .

وفى سنة ١٩٥٥ تمكن سعيد بن تيمور بمؤازرة بريطانيا من الإستيلاء على الداخل العمانى وبذلك وحد الجهتين الساحلية والداخلية مسقط ، إمامة عمان تحت قيادة إمارة واحدة ظل هو الحاكم الفعلى لها ، واستمرت كذلك تحت قيادته حتى سنة ١٩٧٠ عندما تنازل عن الحكم لابنه الوحيد السلطان قابوس بن سعيد الذى استهل عهده بالعمل على إصلاح شئون البلاد التى كانت ذات مهابة وإعادة بنائها ، والعمل على التعاون العربى فى شتى المجالات [٢] .

---

(١) د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب الحديث ـ ص ٧٥ .



ثانياً : قطـــر

قطــر

تعد إمارة قطر من أشباه الجزر الهامة إذ أنها تقع وسط الخليج العربى ، تحيط بها المياه من جهات ثلاث هى : الشمال والمشرق والغرب ، أما الجنوب فتقع المملكة العربية السعودية ، وإمارة أبو ظبى ، وكانوا البرتغاليون قد استولوا عليها حتى أرسل عليهم السلطان العثمانى سليمان القانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) أسطولاً حربياً تمكن من طردهم من المنامة ومن قطر ، والقطيف سنة ١٥٥٥ م

وعندما قامت الدعوة الإصلاحية فى نجد على يد محمد بن عبد الوهاب دخلت قبائل قطر فيمن تقبل الدعوة بعد أن أعلن محمد ابن ثان مبايعته لآل سعود فقد كان لقطر حينئذ مكانة تجارية وزراعية كبيرة ، ولذلك فما أن انتهى السعوديون من توحيد نجـــد ، وضـــم الإحساء حتى انطلـق أحـــد قادتهم وهـــو إبراهيم بن عفيصان بالجيش السعودى سنة ١٧٩٢م واستولى على أغلب قرى قطر من بينها فريحة ، والحـــويلة ، واليوسفية والرويضة ، ولكنه وجـــد صعـــوبة فى الإستيلاء على الزيارة ، وبعد لأى تمكن من الاستيلاء على قلعتها ، وفر أهل الزيارة متجهين إلى البحرين [١] .

ومنذ ذلك بدأ ظهور آل ثان فى قطر ، وهم من بنى تميم وموطنهم الأصلى بلاد نجد من مقاطعة الوشم ، نزحوا منها إلى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة قطر فى واحة جبرين ثم استقروا فى الزيارة التى ولد فيها جد العائلة ثان ثم ابنه محمد الذى استقر فى الدوحة ، وحدثت معارك بينه وبين آل خليفة لولا تدخل العثمانيين سنة ١٨٨٢ ، وتمكن ابنه قاسم من تأسيس إمارة مستقرة ومستقلة تحت السيادة العثمانية

---

(١) مؤلف مجهول ـ لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ـ ٧٨ .
وانظر : د/ مديحة درويش ـ تاريخ الدولة السعودية في الربع الأول من القرن العشرين ـ دار الشروق ـ ط ١٩٨٠م جدة ـ ص ٣٨ ، ٣٩ .

بعد توحيده لقطر ، واستمر حتى سنة ١٩١٣م يدفع عنها الإنجليز والعثمانيين [١] ، ومن بعده تولى ابنه الشيخ عبد الله من ١٩١٣ إلى ١٩٤٩م تلك الفترة التى فقدت فيها قطر استقلالها ورزحت تحت الحماية البريطانية ولا سيما بعد معاهدة ١٩١٦ التى عقدتها بريطانيا مع الشيخ عبد الله بن قاسم ، ومع ذلك فقد شهد عهده انتعاشاً نظراً لتدفق البترول فحققت قطر بعض التقدم ، وفى سنة ١٩٣٧ تمكن عبد الله من ضم الزيارة ، مما سبب نزاعاً بينه وبين البحرين .

وبعد وفاة الشيخ عبد الله تولى مكانه ابنه الشيخ على فيما بين سنتى ١٩٤٩ ـ ١٩٦٠ ثم تنازل لولده الشيخ أحمد فى سنة ١٩٦٠ .

وقد أعلن نظام أساسى مؤقت للحكم كنواة للدستور الذى تم التوقيع عليه فى ٢ من إبريل سنة ١٩٧٠ ، على أن يكون الحكم فيها وراثياً فى أسرة آل ثان ، وتتحول قطر من إمارة إلى دولة [٢] .

---

(١) د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب الحديث ـ ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) مجلة السياسة الدولية ـ عدد يونيو ١٩٧٠ ـ ص ٢١٦ .

ثالثاً : البحرين

البحــرين

هى عبارة عن مجموعة من الجزر المستطيلة الشكل تقع فى خليج يسمى بحر سلوى وهى امتداد طبيعى للجزيرة العربية ، وتتألف من إحدى عشرة جزيرة [١] .

أغلب سكانها غرب ، وأعظم عشائرهم العتوب ، والدواسر ، وبنى خالد ، وآل خليفة ويعد استخراج اللؤلؤ من أهم مصادر الثروة فى البحرين حيث يذكر أن لؤلؤ البحرين من أروع لآلىء العالم بسبب وجود ينابيع مياه عذبة فى قاع البحر الملاصق لجزر البحرين ، كما أن مغاص اللؤلؤ فى البحرين يعد أكبر مغاص فى العالم .

وتاريخ البحرين الحديث يرجع إلى آل خليفة الذين جاءوا من منطقة الأفلاح بنجد ، ونزلوا أولاً إلى قطر فى مدينة الزبارة حيث عين أهلها شيخ آل خليفة حاكماً عليهم ، وخلفه ولده خليفة الذى توفى بمكة سنة ١٧٨٢ أثناء تأدية فريضة الحج ، ثم خلفه أخوه الشيخ أحمد فى الوقت الذى كان فيه البحرين والزبارة تحت الإحتلال الفارسى ، وبعد تمكن القبائل العربية من آل خليفة ، والجلاهمة ، وغيرهم من طرد الفرس سنة ١٧٨٣ ولوا عليهم الشيخ أحمد آل خليفة (حاكم الزبارة) ، ولكنه فضل البقاء فى الزبارة ، وأرسل من ينوب عنه فى حكم البحرين ، وكان ينتقل بين الجهتين إلى أن توفى سنة ١٧٩٤م ، وتولى بعده الشيخ سليمان (ابنه) من سنة ١٧٩٤ إلى سنة ١٨٢٠ الذى ترك الزبارة ، ونقل عاصمته إلى الرفاع فى البحرين لتكون عاصمة له [٢] .

شهد عهد سليمان آل خليفة محاولات حاكم مسقط ، وكذلك السعوديين لضم البحرين ففى سنة ١٨٠٠ نجح السلطان بن أحمد حاكم مسقط فى غزو البحرين ،

(١) تشمل : المحرق ، والمنامة ، وأم نعسان ، سترة ، النبي صالح ، وست جزائر أخري صغيرة .
(٢) د / زاهية قدورة ـ مرجع سابق ـ ص ٩٧ وما بعدها .

وعين أخاه حاكماً عليها ، مما دفع آل خليفة للإستنجاد بالدولة السعودية التى لبت النداء سنة ١٨٠٨ فأرسل الأمير / عبد العزيز آل سعود جيشاً لمساعدة آل خليفة فى تخليص البحرين من قبضة صاحب مسقط ، وبعد إتمام استيلاء السعوديين على البحرين وتخليصها دارت الحرب بين آل خليفة والسعوديين عندها استنجد آل خليفة بالفرس وحاكم مسقط وبعض العتوب لإخراج السعوديين ثم انتهى الأمر إلى عودة آل خليفة للبحرين مرة ثانية (١) .

اتفاق البحرين مع محمد على باشا :

بعد أن بسط محمد على سلطانه على الحجاز ونجد امتد نفوذه إلى الإحساء والقطيف ، وبادر خورشيد باشا حاكم المدينة المنورة ، وقائد الجيوش المصرية بوضع حامية مصرية فى القطيف التى اتخذها كرأس جسر ومركز للاتصالات مع المشيخات والإمارات الساحلية الخليجية التى كان من بينها البحرين بعد أن ذاعت شهرتها بمصر فى مصايد اللؤلؤ ، ويذكر أن حاكم البحرين الشيخ عبد الله آل خليفة هو الذى طلب الاتفاق مع خورشيد باشا لمعاناته من خصومه الذين استنجدوا بالفرس .

اهبتل خورشيد الفرصة فأرسل مندوباً عنه هو محمد رفعت إلى البحرين ، وتم توقيع اتفاق بين الطرفين فى مايو سنة ١٨٣٩ يشتمل على تعهد الحكومة المصرية بتأييد الشيخ عبد الله فى مقابل دفعة للزكاة فى حدود ألفى كرونة سنوياً ، وأن يشارك ببعض سفنه لمؤازرة الحملة المصرية ونقلها إلى ساحل عمان إذا احتاج الأمر لذلك .

وقد اعتبرتها السلطات الإنجليزية معاهدة حماية بمفهومها الاستعمارى الذى تفرضه على الدولة ، ولذلك فلم تضيع الوقت وأسرعت بإرسال القائد العام لأساطيلها فى الشرق مع تفويض له فى حرية التصرف حسب الظروف التى أمامه ، ثم أعلنت موافقتها على بسط حمايتها على البحرين رغم رفضها من قبل ، ورحب

(١) عثمان بن بشر ـ عنوان المجد في تاريخ نجد ـ ح ١ ـ ص ١٤٩ .
وانظر : د/ مديحة درويش ـ الدولة السعودية ـ ص ٤٠ ـ ٤١ .

شيخ البحرين بحماية الدولة الأقوى ، كما أبلغ خورشيد شفهياً بتراجعه عن اتفاق مايو ١٨٣٩ (١) .

وصادفت البحرين منازعات وثورات استمرت إلى سنة ١٨٧٠ إلى أن تولى الشيخ عيسى بن على فى هذا العام الذى اضطر أمام هذه الظروف أن يعقد اتفاقية مع بريطانيا بعد عشر سنوات من حكمه كانت بداية لسلسلة من الاتفاقات والمعاهدات التى ضمنت لبريطانيا نفوذاً فى البحرين كبلت الشيخ عيسى ومن جاء بعده بسلاسل وأطواق من حديد ، وخاصة أنه حكم البلاد نصف قرن تقريباً ، وتولى بعده ابنه الأكبر حمد سنة ١٩٢٣ إلى أن توفى سنة ١٩٤٢م فخلفه ابنه سليمان الذى استمر حتى توفى سنة ١٩٦١م ، وخلفه ولده الشيخ / عيسى بن سليمان آل خليفة على حكم البحرين ، وإزاء مطالبات إيران بضم البحرين وادعاءاتها المستمرة ترددت بريطانيا فى الجلاء حتى قامت فكرة إنشاء اتحاد بين إمارات الخليج وطالت المفاوضات بين الإمارات التسع من بينها : البحرين وقطر ، ولكنها تعثرت فتم إعلان الاتحاد بدون البحرين وقطر اللتان فضلتا الاستقلال عنه (٢) .

---

(١) د / صلاح العقاد ـ التيارات السياسية ـ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) د / زاهية قدوره ـ تاريخ العرب الحديث ـ ص ١٠٣ وما بعدها .

وانظر : مصطفي مراد الدباغ ـ الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام ـ بيروت ـ ١٩٦٣ ـ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

و : مجلة السياسة الدولية ـ عدد مايو ـ ١٩٧٠ ـ ص ٢٢١ .

رابعاً

الإمارات العربية المتحدة

رابعاً : الإمارات السبع
(دولة الإمارات العربية المتحدة)

تقع منطقة الامارات السبع على أطراف الجزيرة العربية ـ شرق الوطن العربى ـ ممتدة من الغرب إلى الشرق فى سبع وحدات (إمارات) هى : أبو ظبى ـ دبى ـ الشارقة ـ أم القوين ـ رأس الخيمة ـ عجمان ـ الفجيرة ـ وهذه الأخيرة تقع على خليج عمان ، وهى امتداد طبيعى لشبه الجزيرة العربية .

وقد سبق أن شرحنا دور القواسم كقوة مهابة الجانب فى الخليج العربى هؤلاء الذين كانوا يقيمون فى هذه الإمارات ـ التى نحن بصدد دراستها كما أنهم قد خضعوا للدولة السعودية فى عهد الأمير / عبد العزيز بن محمد ، واعتنقوا السلفية [١] ـ كما أن بعض فروع بنى ياس قد انتقلت إلى دبى سنة ١٨٢٠م ، وانضموا سنة ١٨٣٥ إلى مشيخات أبو ظبى والشارقة وعمان وقامت بينهم سلسلة معاهدات بحرية لوقف كافة أشكال النزاع حتى سميت الإمارات السبع بالإمارات المتصالحة .

إتصال محمد على باشا بالإمارات :

رأينا كيف اتصل خورشيد باشا (أحد قادة محمد على) مباشرة بالبحرين إلا أنه فى حالة الاتصالات الأخرى مع مشيخات القواسم قد جعل هذه الاتصالات غير مباشرة عن طريق سعد بن مطلق المندوب السابق للحكومة السعودية الذى تحول إلى تبعية محمد على عن طريق خالد بن سعود (نائبه فى نجد) ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان خورشيد باشا يذكر فى مناسبات عدة أن الحكم المصرى هو وريث الدولة السعودية (بعد هدم الدرعية سنة ١٨١٨ م) .

وعلى أثر ذلك رحبت مشيخات القواسم كالشارقة ورأس الخيمة بسعد بن مطلق

(١) أحمد عسه ـ معجزة فوق الرمال ـ ط ١ ـ لبنان ـ ١٩٦٥م ـ ص ١٧ .

كوكيل عن والى مصر (محمد على) ، كما أن الشيخ خليفة حاكم أبوظبى تحول هو الآخر للتحالف مع سعد بن مطلق ، ولم يشذ عن هذا الموقف سوى قبائل النعيم لأسباب شخصية محضة .

وكالمعتاد ساد الذعر والقلق فى أوساط الدوائر البريطانية بعد هذا التقارب الجديد بين مندوبى محمد على وحكام الإمارات ، ولذلك فقد استغل الإنجليز عداء قبائل النعيم وزودهم بالأسلحة ، كما استدعى رؤساء المشيخات ، وأخذ يؤنبهم ويحذرهم من مغبة تعاونهم مع مندوبى محمد على ، وهددهم كذلك بسوء العاقبة فلم يجرؤ أحد على معاودة هذه الاتصالات [١] .

وجددوا المعاهدات وزادوا عليها فى سنة ١٨٩٢م ، وظلت هذه الإمارات تحت الحماية البريطانية حتى سنة ١٩٦٨ عندما أعلنت بريطانيا قرارها بالانسحاب من منطقة الخليج قبل نهاية سنة ١٩٧١ ، وحينئذ بدأت المساعى لتوحيد الإمارات فى دولة واحدة ودارت الاتصالات بين الأشقاء لتكلل بالنجاح حيث أعلن فى يوليو سنة ١٩٧١ بمدينة دبى مولد دولة اتحاد الإمارات العربية المتحدة [٢] .

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة - الوثيقة رقم ١٩٤ حمراء - مرفق عربى رقم ٣ - محفظة رقم ٢٧٠ حجاز من هنل إلى سلطان بن صقر حاكم الشارقة - فى ٢١ من ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ هـ (٥ من يونيو ١٨٤٠)

(٢) د / زاهية قدور - تاريخ العرب الحديث - ص ٨١ وما بعدها .

خامساً : الكويت

خامسا : الكـويـت

تقع الكويت على الساحل الشمالى الغربى من الخليج العربى حيث تتاخم العراق من الشمال والسعودية من الغرب ، وكانت تعرف فى السابق باسم كاظمة البحار فى العهد الإسلامى ووقعت فيها معركة ذات السلاسل بين العرب المسلمين بقيادة خالد بن الوليد والفرس انتصر فيها المسلمون ، واشتهرت بأسماء أخرى مثل الكوت ، والقوت .

وتاريخ الكويت الحديث يتضح بجلاء منذ أن جاء آل الصباح من نجد فى القرن السابع عشر الميلادى إلى الزبارة بقطر ثم غادروها بعد معركة رأس تنورة ، وبعد أن تنقلوا فى الخليج العربى ، استقر بهم المقام فى كوت (أى منزل) على الساحل الشمالى الغربى للخليج تلك المنطقة التى أخذت تنمو وتتزايد فى عدد السكان .

وبدأت الحياة تتطور فيها منذ أن تولى صباح الأول ابن جابر وهو الحاكم على آل الصباح امتد حكمه ست سنوات من سنة ١٧٥٦ إلى ١٧٦٢م ، وخلفه ولده عبد الله الأول من ١٧٦٢ إلى سنة ١٨١٢ فى الفترة التى خضعت فيها الكويت والإحساء للحكم العثمانى ، وازدادت فيها التجارة خاصة بعد استيلاء الفرس على البصرة سنة ١٧٧٦ م ، وبعد وفاته خلفه فى الحكم ولده جابر الأول الذى حكم فترة طويلة امتدت من ١٨١٢ إلى ١٨٥٩م ، وفيها استطاع أن يساهم مع العثمانيين فى طرد الفرس من البصرة .

ويعد عهد الشيخ مبارك بن صباح الثانى (حاكم الكويت السابع من ١٨٩٦ إلى ١٩١٥) من العهود التى زخرت بالأحداث الداخلية والخارجية ، فمن ناحية الداخل الكويتى ظهر رواج تجارى وازدهار اقتصادى ، وفى العلاقات الخارجية ظهر على السطح مشروع خطة سكة حديد برلين ـ بغداد الذى منح العثمانيون امتياز انجازه للألمان ليمتد من إسلامبول ويربطها ببغداد ثم ينتهى عند رأس كاظمة على خليج الكويت .

وقد أدركت بريطانيا خطورة هذا الخط الذى من الممكن له أن يهدد بريطانيا فى الهند ، وكذلك مستعمراتها فى آسيا ، ولذلك بادرت بريطانيا بتوقيع اتفاقية وقع عليه الشيخ مبارك فى سنة ١٨٩٩م ألزمت الكويت بعدم التعامل مع وكيل أو ممثل دولة أخرى دون موافقة الإنجليز ، وبذلك رفضت الكويت فى سنة ١٩٠٠ م التفاوض مع البعثة الألمانية التى سعت إلى تنفيذ المشروع .

وتوالت المعاهدات بين الإنجليز والكويتيين حتى إذا تم إعلان الحرب العالمية الأولى ودخلت تركيا الحرب ضد بريطانيا وحلفائها سنة ١٩١٤م أسرعت الحكومة البريطانية بإعلان اعترافها باستقلال مشيخة الكويت تحت الحماية البريطانية .

ومن الأحداث التالية الهامة فى تاريخ الكويت :

تخطيط الحدود بين الكويت والسعودية فى معاهدة العقير سنة ١٩٢٢م .

وتخطيط الحدود بين الكويت والعراق فى سنة ١٩٢٣م .

وفى سنة ١٩٤٧ قام الشيخ أحمد الجابر بطرد اليهود وإبعادهم من الكويت تماماً .

وأعلن استقلال الكويت عن بريطانيا فى ١٩ من يونيو سنة ١٩٦١ م

وأخذت الكويت تخطو خطوات نحو التقدم والعمران خاصة بعد أن دخلت كعضو فى جامعة الدول العربية ، ثم عصبة الأمم سنة ١٩٦٣م(١) .

---

(١) د/ زاهية قدوره ـ تاريخ العرب ـ ص ١٢٠ وما بعدها .
وانظر : د/ سيد نوفل ـ الأوضاع السياسية ـ ص ١٦٥ وما بعدها .
و : مصطفى الدباغ ـ الجزيرة العربية ـ ج ٢ ـ ٣١٢ .

سادساً : العراق

الفتح العثمانى للعراق

كان الفتح العثمانى للعراق قد تم على مرحلتين الأولى فى عهد السلطان سليم ـ كما أشرنا عندما استطاع إخضاع شمال العراق (الموصل وديار بكر وكردستان) بعد انتصاره على الفرس فى موقعة جالديران سنة ١٥١٤م ، وجاءت المرحلة الثانية لفتح بقية أقاليم العراق فى عهد السلطان سليمان القانونى بعد أن أعاد وزيره إبراهيم باشا (الصدر الأعظم) فتح تبريز سنة ١٥٣٤م للمرة الثانية ثم دخلها سليمان بعد شهرين وتقدما إلى بغداد حيث سبقه إليها وزيره فوجدها خاوية من الجنود بعد أن هرب منها حاكمها الفارسى فأقام بها سليمان أربعة أشهر لترتيب الأمور الداخلية ، وعرج على قبور الأئمة فى النجف وكربلاء [١] فى محاولة منه (على ما يبدو) لكسب ود الشيعة وربما لتمكين السنة من إقامة حياة هادئة مع إخوانهم الشيعة وقبل أن يغادر بلاد العراق أقام عليها أحد قواد جيوشه وهو سليمان باشا ومعه ألفا جندى كحامية عثمانية فى بغداد [٢] .

وقبل مغادرة سليمان لبغداد بادر شيخ قبائل المنتفق العربية الذى كان يحكم البصرة بإرسال ولده راشد يحمل مفاتيح المدينة معلناً خضوعه التام للسلطان ، وبذلك ألحقت البصرة بالممتلكات العثمانية ، وأصبحت من هذا التاريخ إيالة عثمانية وعليها راشد على أن تكون تابعة لباشوية بغداد [٣] .

ولنا أن نتساءل لماذا أعاد العثمانيون فتح العراق عل الرغم من انشغالهم بأعباء جسام فى الجبهة الأوربية ؟

وللإجابة على هذا التساؤل يجدر بنا أن نتحسس الأحداث السابقة ، وربما

(١) محمد فريد بك ـ الدولة العلية ـ ص ٩٠ .

(٢) محمد فريد بك ـ المرجع السابق ـ ص ٩٠ ، ٩١ .

(٣) د/ محمد أنيس ـ مرجع سابق ـ ص ١٣٧ .

التالية للفتح .

١ ـ فقد كان الشاه الإيرانى (طهماسب) فى ذلك الوقت قد أرسل جيوشه سنة ١٥٢٤ ، ١٥٣٠ التى داهمت بغداد وسيطرت عليها سيطرة كاملة ممكناً للشيعة فى العراق على حساب السنة مع خطورة ما يعنيه سيطرة الشيعة عليه ، وتجدد مشاكل نشر المذهب الشيعى فى أراضى العثمانيين السنيين .

٢ ـ استنجاد السنيين بالسلطان العثمانى سليمان لحمايتهم من بطش الشيعة وسيطرتهم .

٣ ـ قيام الفرس بالتفاوض مع المجر للتعاون فيما بينهما ضد العثمانيين (العدو المشترك لهما) مما اعتبره سليمان خيانة للإسلام إذ كانت الجيوش العثمانية فى حرب مستمرة مع هذه الدولة فكان لابد من عقاب الفرس فى عقر دارهم (تبريز) والإستيلاء على العراق كله كخط دفاع أول عن الدولة العثمانية من ناحية الفرس .

٤ ـ مشاكل قبائل الأكراد على الحدود بين الدولتين تلك القبائل التى كانت تتأرجح فى ولائها بينهما وتثير مشاكل دائمة إضافة إلى فرار المعارضين للدولة العثمانية بسهولة إلى ممتلكات الفرس فكان لابد من وضع حد لتلك المشاكل .

وتجدر الإشارة إلى أن سليمان قد أقام بعض المشروعات الخيرية فى العراق عندما تفقد مزارات الشيعة والسنية على السواء ، وكان أكثر ما يشغله محاولة التعرف على موقع قبر الإمام أبى حنيفة النعمان لإعادة بناء ضريحة بعد ما هدم الفرس قبته وضريحه .

كما أنه بنى سداً وسماه السليمانية على مدينة كربلاء حيث كانت المناطق حولها تغمرها مياه الفيضانات فى موسم الربيع ، ولا تسلم منها العتبات المقدسة الشيعية .

ومن أعماله فيها أيضاً توسيع ترعة الحسينية لتكفى مياههاللمناطق المقدسة

وزرعها بالبساتين وحقول القمح[١] .

بذلك تم خضوع العراق كله من الشمال إلى الجنوب للحكم العثمانى واستمر ذلك طوال عهد سليمان القانونى ، إلا أنه لم يكن نهاية المطاف فقد عاد العراق للوقوع فى يد الفرس أكثر من مرة بعد ذلك .

ففى سنة ١٦١٣ وقعت فتنة بين والى بغداد يوسف ، ورئيس الشرطة بكر أغا الصوباشى ، وثار الأخير عليه سنة ١٦١٩م معلناً نفسه حاكماً على بغداد فأمرت الدولة العثمانية والى دياربكر حافظ أحمد باشا أن يسير إلى بغداد للقضاء على هذه الفتنة هناك ، ولما شعر الصوباشى بالخطر المحدق به استنجد بالشاه الإيرانى طهماسب لمناصرته فأنفذ له ما أراد من المدد اللازم[٢] ، ودخلت جيوش الشاه بغداد إلا أن والى ديار بكر عندما هم بالهجوم على بغداد وجدها محصنة وحالة أهلها الصحية بائسة فآثر التصالح مع الصوباشى حقناً لدماء المسلمين والإبقاء على الصوباشى حاكماً على بغداد ، ثم عاد إلى ديار بكر .

وعلى أثر ذلك طلب الصوباشى من الشاه إخراج جنوده من العراق الأمر الذى أغضبه أشد الغضب فزحف بقواته إلى بغداد وحاصرها حتى استسلمت سنة ١٦٣٣م فقبض على الصوباشى وقتله ، وعاد العراق بذلك إلى الحكم الإيرانى مرة أخرى .

استمر العراق تابعاً للصفويين قرابة خمس سنوات حتى سنة ١٦٣٨م عندما زحف السلطان العثمانى مراد الرابع يقود جيشاً كبيراً زحف به على العراق حيث حاصر بغداد واستولى عليها وأعادها مرة أخرى إلى الحكم العثمانى .

وتُعد آخر محاولات الفرس للاستيلاء على العراق تلك التى حدثت بعد سقوط الدولة الصفوية سنة ١٧١٢ فى عهد نادر شاه الذى شهد عهد الانتقال من الأسرة الصفوية إلى الأسرة القاجارية فى إيران ، فقد قام نادر شاه بحملة على العراق سنة

---

(١) د/ محمد أنيس - مرجع سابق - ص ١٣٧ .

(٢) محمد فريد بك - مرجع سابق ص ١٢٥ .

١٧٣٣م وحاصرها حتى أوشكت بغداد على السقوط فى يده لولا وصول النجدات العثمانية فى الساعات الحرجة الأخيرة وبذلك تم إنقاذ بغداد من الإيرانيين بعد معركة حربية تعد من أكبر المعارك بين الجانبين ، وكان يقودها من الجانب العثمانى القائد طوبال ، عثمان وعلى الرغم من الهزيمة الكبرى التى منيت بها الجيوش الإيرانية إلا أن الحرب قد نشبت بينهما بعد عدة سنوات استمرت بين الفريقين زهاء أربع سنوات من سنة ١٧٤٣ إلى ١٧٤٧ وهى السنة التى توفى فيها نادر شاه ، وفيها تم عقد الصلح بين العثمانيين والإيرانيين رسمت فيه الحدود بين البلدين ودخلت العراق بناء عليه فى حوزة الإمبراطورية العثمانية [١] .

ولم يتبق بعد ذلك سوى بعض مناوشات وخلافات حدودية وكانت حرب (١٨٢٠ ـ ١٨٢٣) آخر الحروب الكبيرة بين العثمانيين وفارس كان الفرس قد حققوا فى بدايتها بعض الانتصارات إلا أن العثمانيين قد أبرزوا انتصارات عديدة فى نهايتها ولكنها لم تكن حاسمة ، وتسبب وباء الكوليرا الذى تفشى فى الجبهتين فى تعليق الموقف بينهما حتى اتفقت الدولتان وعقدتا معاهدة أرضروم الأولى فى ٢٨ من يوليو سنة ١٨٢٣ [٢] .

وأمام تجدد الخلافات على الحدود بين البلدين ، تدخلت بريطانيا وروسيا وتم تشكيل لجنة مكونة من إنجليز وروس وفرس وعثمانيين أطلق عليها : اللجنة المختلطة للحدود The Mixed Boundary Commission التى بدأت عملها من ١٥ مايو ١٨٤٣ لوضع خريطة دقيقة للحدود ، وكانت المشاكل معقدة حلت بعضها فى معاهدة أرضروم الثانية ١٨٤٧ ، وتم تشكيل لجنة أخرى عملت فى الفترة من ١٨٥٧ إلى

---

(١) د/ محمد أنيس ـ مرجع سابق ـ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

وانظر : Muhammed Ali Hikmat, Essai sur I,Histoire des Relations Irana ottamanes de 1722 a 1747 . Paris, 1937 , p . 184 .

(٢) د/ عبد العزيز الشناوى ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ـ ص ٨٢٤ .

١٨٦٥ حيث وضعت خريطة أخرى للحدود من جبال أرارات إلى الخليج العربى وافقت عليها الدولتان ، وعقدت بذلك معاهدة جديدة .

ومع ذلك فلم تنته مشاكل الحدود بصفة نهائية إلا فى أواخر أكتوبر سنة ١٩١٤ عندما قبلت الدولتان نهائياً ترسيم الحدود بينهما [١] .

استيلاء المماليك على السلطة فى العراق :

وقد ظهر خطر آخر نجم عن ضعف السلطة المركزية العثمانية التى اضطرت إلى الموافقة على تلك الأسر الحاكمة التى تكونت فى بعض الولايات وأخذت تتبادل الحكم فيما بينها ومن بين هؤلاء المماليك فى العراق : ـ

فقد قامت الدولة العثمانية بتعيين حسن باشا والياً على العراق سنة ١٧٠٤ م حيث استطاع هذا الوالى العثمانى أن يبلى بلاءاً حسناً فى إخضاع القبائل العربية المتمردة ، تلك القبائل التى أثارت قلاقل عديدة فى محاولة منها للاستقلال الذاتى عن سيطرة العثمانيين خاصة وأنها كانت تكره الخضوع للرقابة المالية ، ولم يعد فى استطاعة الدولة الاستغناء عن خدمات حسن باشا ، ولذلك اضطر إلى تثبيته فى حكم هذه الولاية فترة طويلة امتدت إلى سنة ١٧٣٤ مخالفة بذلك نظمها التى دأبت على عزل وتغيير الولاة كل فترة وجيزة ، وبعد حسن باشا انتقلت باشوية بغداد إلى ابنه أحمد إبان محاولة الفرس السيطرة على بغداد وحصاره سنة ١٧٣٣ وتمكن طوبار عثمان من تشتيتهم والانتصار عليهم سنة ١٧٣٤ ، حينئذ ظهرت صورة جديدة فى العراق وهى توارث حكمها من حسن باشا إلى ولده أحمد ، وكان الاثنان قد نظما قوة خاصة من المماليك تمتعت هذه القوة بامتيازات وارتقى بعض رجالها إلى مناصب كبرى حتى بلغ أحدهم وهو سليمان أغا منصب الكتخدا لأحمد باشا كما زوجه من ابنته ، ونظراً لجهود سليمان أغا فى مطاردة وإخضاع القبائل العربية الثائرة تم ترقيته إلى مرتبة الباشوية .

---

(١) الشناوى ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ـ ٨٢٥ ، ٨٢٦ .

وما أن توفى أحمد باشا ، وأصبحت بغداد بدون وال حاول الباب العالى التأكد على سيطرته على العراق بتعيين أحد الباشوات بعيداً عن تأثير المماليك ، إلا أن الانكشارية فى بغداد رفضت الاعتراف بالباشا الجديد الذى عينه وأرسلته الدولة العثمانية .

وبعد قلاقل قل استمرت عامين تمكن سليمان أغا (الذى كان بالبصرة إبان هذه الأزمة) من القيام على رأس حملة مملوكية سنة ١٧٤٩ إلى بغداد فدخلها وفرض الأمر الواقع على الدولة العثمانية التى اضطرت للموافقة على الاعتراف به كباشا وحاكم على العراق ، ومن هنا بدأت سلسلة الباشوات المماليك فى العراق اللذين استمر حكمها فيه حتى سنة ١٨٣١ م [١] .

فقد تمكن والى حلب العثمانى (على باشا رضا) من الإستيلاء على بغداد فى سبتمبر سنة ١٨٣١ م بعد استسلام داود باشا آخر زعماء المماليك ، ونجح على رضا فى طلب العفو له حيث استجابت الدولة لوساطته ، وعينته فى عدة مناصب عثمانية كبرى ، كما عفى على رضا عمن قاوموه ، وقربهم إليه الأمر الذى ساعده على استقرار الحكم العثمانى حتى سنة ١٨٧٢ م تقريباً [٢] .

وعندما فكر محمد على فى غزو الشام ، وضمه إلى نفوذه كان يعى أهمية العراق وخطورته على الشام فى الوقت نفسه خوفاً من القوة العثمانية فيه ، ولذلك فقد بادر إلى تزكية أحد الموالين لـه عند الدولة العثمانية وهو بكر بك الكركوكلى (العراقى) لإسناد ولاية بغداد له بدلاً من داود باشا الذى عزله السلطان [٣] .

ولكن إسلامبول فطنت إلى بعض ما يدور فى خلد محمد على ـ على ما يبدو ـ

---

(١) د/ محمد أنيس ـ الدولة العثمانية ـ ص ١٥٣ .

(٢) د/ عبد العزيز نوار ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر (العراق) ـ مكتبة سعيد رأفت ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ ـ ص ٩١ ، ٩٢ .

(٣) دار الوثائق القومية ـ الوثيقة رقم ٥٤٧ ـ دفتر ٤٠ عابدين ـ من الجناب العالى ـ بتاريخ ١٩ من رجب سنة ١٢٤٦ هـ .

وتركت على باشا رضا المخلص لاسلامبول الذى وطد النفوذ العثمانى فيه بعد أن أقام مذبحة للماليك سنة ١٨٣١م ، كما عبأ أهل العراق ضد حملة محمد على باشا على الشام ولا سيما العلماء الذين لهم تأثير على الأهالى بعد تحريض السلطان العثمانى فى كل ولاية فى المنطقة المحيطة بالشام ضده ، وعلى وجه الخصوص شريف مكة محمد بن عون الذى دعى إلى التمسك بولائه للدولة العثمانية ، والوقوف ضد محمد على الذى خرج وتمرد على سلطان المسلمين (١) .

ومع ذلك فلم يستطع العثمانيون إرسال قواتهم العسكرية المنظمة إلى ساحة الشام لقتال جيش محمد على بل أرسلوا قوات محلية من العراقيين ليسوا على درجة كافية من الكفاءة إضافة إلى أن البعض منهم قد بهرته انتصارات جيش محمد على وتنظيماته الحديثة فانضم إليه وعزز القوات المصرية فى الشام .

وفى الموصل الذى حكمت فيه أسرة تدعى آل عبد الجليل أكثر من سبعين عاماً ، ثم طرد منها حاكمها يحى الجليلى الذى اضطر إلى الهرب إلى حلب يتحين الفرصة للعودة إلى ولايته (الموصل) فلما دخل جيش محمد على الشام انتهز الفرصة ، وتمكن من العودة إلى مدينته وحكمها باسم محمد على بعد أن نجح جيشه فى الاستيلاء على الشام ، وحذت بعض الجهات العراقية حذوه ولكن محمد على لم يشغل نفسه بمديد المعونة لهم مما مكن الدولة العثمانية منهم (٢) .

أما عن موقف انجلترا تجاه العراق فعلى الرغم من أنها لم تساعد إسلامبول ضد توسعات محمد على فى الشام ، طوال الثلاثينيات إلا أنها بدأت تستغل الوضع لصالحها ، وطلبت من العثمانيين الموافقة على إرسال بعثة بحرية إلى مياه العراق لاستكشاف نهر الفرات ودراسة فتح طريق للمواصلات التجارية بين البحر المتوسط والخليج العربى والمحيط الهندى ، وبالفعل حصلت على بغيتها سنة ١٨٣٤م ،

(١) دار الوثائق القومية ـ الوثيقة ٢٨ ـ محفظة ٢٣١ عابدين ـ بتاريخ ١٢ من ذى القعدة سنة ١٢٤٧ هـ .
(٢) دار الوثائق القومية ـ الوثيقة ٢٨٤ ـ محفظة ٢٣٥ عابدين ـ بتاريخ ١٢ محرم سنة ١٢٤٨ هـ .
وانظر : د/ عبد العزيز نوار ـ تاريخ العرب ـ ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

وتفضيل الطريق عبر العراق عن الطريق عبر مصر (السويس الأسكندرية) .

هذا على الرغم من معارضة روسيا لهذا التغلغل الإنجليزى فى المياه العراقية النهرية ، واعتراض مصر بعد استيلائها على الشام كذلك ، هذا الاعتراض الذى تفاقم ، وأدى إلى أزمة سياسية بين انجلترا ومحمد على هددت الأولى بضرب الحصار البحرى حول الإسكندرية منتهزة فرصة خروج الأسطول البحرى المصرى إلى كريت فكان التهديد البريطانى بقطع الاتصال بين الأسطول ومينائه (الأسكندرية) مما اضطر محمد على إلى التراجع عن موقفه [1] .

مدحت باشا :

على الرغم من قصر المدة التى قضاها مدحت باشا والياً على بغداد من سنة ١٨٦٩ إلى ١٨٧١ إلا أنه قد بادر إلى وضع مجموعة من النظم وإدخال إصلاحات جديدة للوضع فى العراق .

فقد عمد إلى إقرار العشائر العراقية كل فى منطقة محددة عن طريق قانون الأراضى الذى أطلق عليه (طابور) رغم صعوبة تحقيقه ، والنزاع الدائم بين العشائر على الأراضى ، ولكنه استطاع تخفيض الأموال الأميرية على الأرض ، وتوزيع البعض الآخر فى مقابل زهيد ، وكان عمله الإصلاحى فى العراق يتشعب فى مجالين : الأول : مجال الإدارة والحكم ، والثانى : نشر التعليم .

ففى المجال الأول : جعل هناك مساواة بين رعايا السلطان ، وأشرك الأهالى مع الإدارات فى إصلاح أمور البلاد ، وحاول سد الثغرات التى يستغلها الأجانب للتسرب إلى داخل البلاد ، ونظم الإدارة المالية ، وأقام المجالس المختلفة مثل : مجلس القضاء ، ومجلس الناحية ، ومجلس القرية كل ذلك لتمثيل الشعب فى الإدارة ، ولكن التنفيذ كان شيئاً آخر بسبب تسلط الولاة التاليين لمدحت باشا ،

---

(١) Hurewitz J.C. op . Cit , : Voll.p 109

وانظر : د/ عبد العزيز الشناوى ـ الدولة العثمانية ـ ح ٢ ـ ص ٧٦٩ وما بعدها .

وإهمالهم متابعة أعمال المجالس .

أما فى المجال الثانى : مجال التعليم فقد أنشأ المدارس الرشيدية : مدنية وعسكرية ، ومدرسة الفنون والصنائع خرجت ضباطاً ، ومهنيين إلا أن الدراسة بها كانت تركية .

كما ظهرت الصحافة على يد مدحت باشا فأنشأ جريدة الزوراء التى كانت تعنى بنشر أخبار ولاية بغداد وولاتها .

وعنى مدحت باشا كذلك بمحاولات عديدة لمد نفوذ الدولة وتقويته فى الخليج فى مواجهة أطماع الفرس والإنجليز ، وسعى إلى استخدام القوى العربية المطلة على الخليج بمحاولات التعاون مع شيخ الكويت ، وعبد الله بن سعود فى نجد ، وبعض آل ثان فى قطر [١] ، ولكن الصراع الأوروبى على خطوط المواصلات كان أقوى منه فتغلب عليه وعلى مشروعاته .

الحالة فى العراق إبان الحرب العالمية الأولى :

ظل السؤال الحائر أمام القيادات الوطنية العراقية فى الحرب العالمية الأولى : هل نقف بجانب الدولة الإسلامية الكبيرة ، وتناسى ما فعله الاتحاديون بل وما فعله العثمانيون من قبل ؟ أم انتهاز الفرصة والوقوف ضدهم للحصول على الاستقلال ، وما يشتمل عليه هذا الاتجاه من خطورة استقرار بريطانيا فى العراق وعدم خروجها منه فيكونوا استبدلوا المسلم بالصليبى !؟ .

وكان هناك مجموعة من الوطنيين العراقيين يبحثون عن مخرج وأفضلية من بينهم :

طالب النقيب ، ونورى السعيد ، وجعفر العسكرى ، وياسين الهاشمى ، وجميل المدفعى . . وغيرهم ، وحدثت فى البداية بعض الاتصالات بين طالب

---

(١) د/ عبد العزيز نوار ـ تاريخ العرب ص ١١٧ وما بعدها .

النقيب والقنصل البريطاني في البصرة لجس النبض ، في الوقت الذي كان فيه النقيب صاحب مكانة محصورة في جنوب العراق فقط ، ولذلك فقد كان يود الحصول على وثيقة خطية من انجلترا تعترف له بالبصرة كأمير وحاكم .

ولكن انجلترا كانت تكتفي في معاملاتها مع العرب بوعود مطاطية طول الحرب العالمية الأولى نظراً لأطماعهم في بلاد الشرق العربي كله ولذلك فقد سئم النقيب من إنجلترا ويئس منها فغادر العراق إلى الكويت ، ثم إلى نجد ، وبعدها نقله الإنجليز إلى الهند التي عاش بها حتى نهاية الحرب فنقل إلى مصر ومنها إلى العراق .

أما عن أحداث الحرب في العراق فقد كان الحال فيه مضطربًا نظراً للأطماع الخارجية فيه إضافة إلى مشاكله الداخلية ، فقد كانت بريطانيا تدرك أن سلامة طرقها ومواصلاتها للهند تكمن في السيطرة على وادي الرافدين الاستراتيجي ، ولا سيما منطقة شط العرب الذي سبق أن لعبت فيه الشركات التجارية الإنجليزية دوراً تمهيدياً فأصبحت بريطانيا في طليعة الدول الطامعة في العراق ، بينما روسيا كانت اهتماماتها بإيران أكثر ، رغم وجود أطماع لها في العراق أيضاً ، أما فرنسا فقد عنيت بتوطيد مركزها الثقافي ، وكان لألمانيا نفوذ في الدولة العثمانية ، ومشروعات مشتركة من بينها خط حديد بغداد الذي يصل برلين بمياه الخليج ، ويهدد المصالح البريطانية في الهند حينئذ[1] ، ولذلك فقد أعطى دخول الأتراك الحرب بجانب ألمانيا (ضد بريطانيا) مبرراً للهجوم الإنجليزي على العراق .

وانطلقت الحملة الأولى من بومباي في بداية الحرب سنة ١٩١٤م ، اتجهت إلى البحرين ثم أطلقت الباخرة البريطانية قنابلها على حصن الغاو (على شط العرب) مع محاولة من البريطانيين بمنشوراتهم لتحريض القبائل واستمالتهم ضد العثمانيين ، وقد صاحب الحملة السير بيرسي كوكس (الذي سيلعب دوراً رئيسياً في المجال السياسي بعد ذلك) .

---

(١) د/ عبد العزيز نوار - تاريخ العرب - ص ١٨٩ .

وعندما وطأت أقدام الإنجليز أراضى البصرة (الميناء العراقى الوحيد) حاول الأتراك دفعهم عنها إلا أن الإنجليز سيطروا عليها وانطلقوا إلى القرنه والنحيلة والعمارة ، ونجحت المرحلة الأولى فى الاحتلال ، وكانت الثانية : هى الزحف نحو مدينة بغداد للاستيلاء عليها ولكن الأتراك حاصروهم فى مدينة الكوت حتى استسلم الإنجليز فيها فى سنة ١٩١٦م ، ورغم أن الهزيمة كانت قاسية فى الكوت إلا أنهم استمروا فى تمسكهم بالاستيلاء على بغداد لأن الخطر الروسى كان يلوح لهم فى الشمال عن طريق الموصل .

وتم تجهيز حملة كبيرة يقودها الجنرال مود الذى هاجم الأتراك قرب الكوت ، وتعقبهم إلى المدائن ، مما اضطرهم إلى الانسحاب من بغداد ، وسيطرة الانجليز عليها سنة ١٩١٧م(١) .

وقد ترك مستقبل العراق مفاوضات مؤتمر الصلح فى باريس ، وفى مؤتمر سان ريمو عندما تقرر الانتداب البريطانى على العراق وفلسطين ، بينما كانت سوريا من نصيب الانتداب الفرنسى ، حينئذ بادر الإنجليز بإصدار بلاغ فى بغداد تضمن أسلوب الحكم الذى يساعد على تهدئة والوطنيين خشية من ثورتهم ، وكان نص البلاغ ما يلى : ـ

« جعل العراق حكومة مستقلة تضمن استقلالها عصبة الأمم ، وعلى بريطانيا حفظ الأمن فى الداخل والخارج ، وأن تقوم بوضع قانون أساسى باستشارة أهل البلاد مع حفظ حقوق الأجناس المختلفة فيه وتحقيق رغباتها ومنافعها ، وأن تمهد مسالك الرقى للعراق بصفته حكومة مستقلة ، وتنتهى هذه الوكالة (الانتداب) متى استطاع العراق الوقوف بنفسه ، وقد قررت حكومة جلالة الملك أن يقوم السير بيرسى كوكس بتنظيم مؤقت فى تكوين مجلس شورى تحت رئاسة عربى ، ومؤتمر

---

(١) محمد بديع شريف ـ النهضة العربية الحديثة (العراق) ـ تشورات جامعة الدولة العربية ـ ٥٦٩ ، ١٧٠ وانظر : د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ١٣٠ وما بعدها .

عراقى منتخب يمثل جميع أهل العراق ليضع القانون الأساسى »[١] .

وغنى عن البيان أن مثل هذا البلاغ كان شراكاً نصبه البريطانيون لخديعة العرب ومنهم العراقيون .

ومع ذلك فقد فطن العراقيون لهذه المصيدة ، وبدأت احتجاجاتهم بتأليف الجمعيات السرية ، والاجتماعات الثورية التى طالبت بحق تقرير المصير الأمر الذى قابله الإنجليز بزعامة ويلسن بالشدة مما زاد الشعب هياجاً ، فاندلعت الثورة العراقية التى استمرت قرابة العشرة أشهر من منتصف سنة ١٩٢٠م ، ولا سيما أن الحركة فى العراق كانت تعد امتداداً للحركة السورية التى تمكنت من إعلان فيصل ملكاً عليها (مؤقتاً) ، كما تطلعوا إلى ثورة ١٩١٩م بزعامة سعد زغلول وحذوا حذوها .

فى الوقت نفسه كان الموقف الإنجليزى متردداً حول طريقة الحكم فى العراق فمنهم : (مدرسة الهند) التى كان يرى رجالها : أن تدير انجلترا العراق بنفسها مباشرة عن طريق معتمد من طرفها دون تدخل عربى ، بينما ترى مدرسة القاهرة من الإنجليز أن يتولى الحكم فى العراق واجهة عربية صوريةمن الأشراف بسيطرة إنجليزية فيتحقق لهم حكم البلاد دون أعباء على خزانتهم[٢] .

وأمام الثورة العراقية التى كبدت الإنجليز كثيراً من الخسائر فى رجالها ، وتكلفت خزينتها مبالغ طائلة فى سبيل إخماد الثورة ، الأمر الذى استلزم حلاً بدأه ونستون تشرشل وزير المستعمرات بتعيين برسى كوكس ممثلاً للإنجليز فى العراق على أن يعاونه بعض الشخصيات أمثال فيلبى وجرترودبل ، وإسناد مهمة معالجة الوضع المتفاقم فى العراق له .

وترددكوكس ومعاونوه فى من يتولى رئاسة الحكومة العراقية بين طالب النقيب المعروف بقوة شخصيته ، وصعوبة خصومته للمستعمرين ، وبين عبد الرحمن

---

(١) محمد بديع شريف ـ النهضة العربية الحديثة (العراق) ـ ص ٢٩٥ .

(٢) محمود صالح منسى ـ الشرق العربى المعاصر ـ القسم الأول الهلال الخصيب ـ القاهرة ـ ١٩٩٥م ـ ص ١٦ ، ١٧ .

الكيلانى نقيب بغداد الذى كان زاهداً فى أمور الحكم لكبر سنه وسمعته الدينية ، وإقناع طالب بوزارة الداخلية على أن يكون التالى فى الحكم ، والثالث : كان الأمير فيصل بن الحسين الذى استقر عليه الرأى رغم الصعوبات التى صادفته (١) .

وقد واجه فيصل أيضاً مشاكل بعد توليته تمثلت فى الأكراد ، والآشوريين والخلاف المذهبى بين الشيعة والسنة ، وكذلك مشكلة القبائل ـ صعبة المراس ، وكذلك فعل غيرهم من الاستعماريين .

وعلى رأس المشاكل التى أشرنا إليها كانت مشكلة محاولة التوافق بين رغبة أهالى العراق فى الاستقلال التام ، وبين الأوامر البريطانية فى الوقت الذى كان فيه فيصل يدين للإنجليز بتنصيبه ملكاً على العراق .

ومع ذلك فقد توالت المعاهدات والاتفاقات طوال فترة حكم فيصل بينه وبين الإنجليز للتوفيق بين مطالب الوطنيين ، ومطالب المستعمرين ، انتهت إلى حصول العراق على استقلاله رسميا سنة ١٩٣٢م ، ودخوله عصبة الأمم فى أكتوبر سنة ١٩٣٢م .

ولم يكن ما تقدم هو شغل فيصل الشاغل وحده بل كانت له أطماع وأحلام تتمثل فى إقامة تجمع عربى فى الهلال الخصيب يشمل سوريا والعراق تحت حكمة ، وسانده فى ذلك بعض الوجوه العربية المرموقة مثل نورى السعيد ، وجعفر العسكرى ورستم حيدر ، ومن أجل ذلك أرسل فيصل الوفود ، (وذهب هو بنفسه فى بعضها) إلى أوروبا ، وبعض البلاد العربية للدعوة إلى مشروعه وحلمه فى وحدة الهلال الخصيب .

---

(١) د/ محمود صالح منسى ـ الشرق العربى المعاصر ـ ق ١ ـ ص ١٨ وما بعدها وقد ذكر د/ نوار مجموعة كبيرة من المرشحين لحكم العراق من بينهم : عبد الرحمن النقيب ، وعبد الهادى العمرى ـ وأحد أنجال سلطان نجد (عبد العزيز آل سعود) وغيرهم .
وانظر : عبد العزيز نوار ـ تاريخ العرب (العراق) ـ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

عارض المشروع كل من الملك فؤاد (مصر) ، والملك عبد العزيز (السعودية) ، ولم يعبأ به السوريون ، كما كان الصهاينة من أشد المعارضين له .

وعلى كل فقد مضى عهد فيصل ، وتبعه عهد ابنه غازى الأول الذى اختلف كثيراً عن أبيه ، وافتقد إلى خبرته ، على الرغم من أن ظروفه كانت أسهل كثيراً من الظروف الصعبة التى تولى فيها والده فيصل .

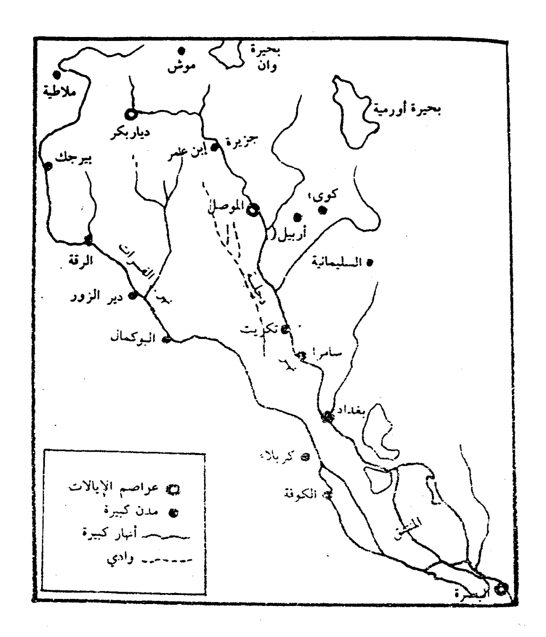
ومع ذلك فقد سار غازى الأول على نهج أبيه فى المشروع الوحدوى لضم سوريا إلى سلطانه ، وزاد عليه أطماعه فى الكويت ، والتطلع إلى ضمه إلى نفوذه وهذا راجع - فيما يبدو - إلى رغبته فى التوسع السياسى ، ومن أجل ذلك شارك بنفسه خاصة سنة ١٩٣٨ ، ١٩٣٩م فى الدعاية من أجل خلق مطالبة شعبية فى كل من العراق والكويت لعمل شكل من أشكال الوحدة بينهما تحت حكمه وسلطانه

إلا أن هذه المحاولات قد أغضبت بريطانيا وأدت إلى توتر العلاقات بين لندن ، وبغداد ، ولم تصل الدعوة إلى ضم الكويت لنتيجة تذكر .

وفى ٣ من إبريل سنة ١٩٣٩م توفى الملك غازى الأول إثر اصطدام سيارته التى كان يقودها بنفسه بعمود إنارة ، وتولى بعده ابنه فيصل الثانى الذى كان ولياً للعهد (وهو مازال صبياً قاصراً) تحت وصاية خاله الأمير عبد الإله ، وظل فى الحكم فيما بين سنتى ١٩٣٩ ، ١٩٥٨م[1] .

---

(١) د/ محمود منسى - الشرق العربى المعاصر - ق ١ - ص ٣١ وما بعدها .
وانظر : د/ زاهية قدورة - تاريخ العرب - ص ١٤٠ وما بعدها .
وانظر : د/ عبد العزيز نزوره - تاريخ العرب (العراق - ص ٢٢٩) وما بعدها .



العراق ومدنه الرئيسية
في القرن التاسع عشر

الباب الرابع

المغرب العربي الكبير





تمهيد

المغرب العربى

استمر الموحدون حتي القرن الثالث عشر الميلادي سادة البلاد في المغرب العربي وكان ينضم إليهم إقليم الأندلس الذي كان يعد درة غالية في مكونات العالم الإسلامي ، ولم تكن هناك دولة أوروبية تباريها في العلم والثقافة والإمكانيات الاقتصادية .

واعتمدت الدول الأوروبية علي أقاليم المغرب وبعض البلاد العربية الأخري حينئذ في الحصول علي جزء كبير من احتياجاتها من منتجات إفريقية السوداء والشرق الأقصي ، فعمل المغرب العربي حينئذ كوسيط في توصيل تجارة أفريقيا إلي أوروبا ، ولا سيما مواني إيطاليا ومراكز التجاره فيها ، ولم يضعف من شأنهم أمام الأوروبيين سوي المنازعات الداخلية التي أدت إلي الضعف ساعد عليه ازدياد قوة الأوروبيين والتفافهم حول المسلمين عن طريق الكشوف الجغرافية التي ظهرت في القرن الخامس عشر .

ونشبت المعارك الدامية بين المغرب العربي والأوربيين (أسبانيا والبرتغال) وصاحبت تلك المعارك طرد المسلمين من الأندلس وتتبع الفارين منهم حتي المغرب العربي .

وشملت خطة الأسبان والبرتغال تطويق بلدان المغرب ، واحتلال المواني المطلة علي البحر المتوسط ، أو علي الأقل السيطرة علي الأقاليم الأفريقية السوداء التي تقع إلي الجنوب من المغرب ، وتحويله إلي النصرانية .

وتمكن البرتغاليون من تحقيق بعض هذا المشروع حيث احتلوا سبته سنة ١٤١٦م وبعض مواني المغرب الأقصي ، واحتل الأسبان مليلة وطرابلس ، وأخذوا يحاولون تنفيذ وصية الملكة إيزابيلا التي تقضي باحتلال شمال أفريقية وتحويل أهلها للدين النصراني ، فاحتلوا المرسي الكبير سنة ١٥٠٥م ، وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين ،

وأسروا عدداً آخر ، واحتلوا جزيرة صغيرة مواجهة للشاطيء الأفريقي لتكون قاعدة للهجوم علي هذا الشاطيء كانت هذه الجزيرة هي نواة : دولة الجزائر .

ومع ذلك فقد أضعف المراكز الأسبانية تلك الصحوة الإسلامية التي بدأت تظهر في القرن السادس عشر ، وعني المسلمون فيه بالبحرية التي باتت توجع بضربها الأسبان في ضربات سريعة خاطفة علي الرغم من استيلائهم (الأسبان) علي حجر باديس سنة ١٥٠٨م ، والإستيلاء علي وهران وبجاية سنة ١٥٠٩ ، وتدميرهم طرابلس سنة ١٥١٠م كما اضطرت مجموعة من المواني إلي دفع الجزية لهم مثل دلس ، والجزائر في الوقت الذي كانت تعاني فيه قيادات مناطق المغرب من مشاكل داخلية علي السلطة وانقسام المعسكر الوطني علي نفسه ، ومن العدو المهاجم والمتربص بهم في الخارج ، صاحب ذلك كله ازدياد قوة العثمانيين ، ولا سيما بعد استيلائهم علي دمشق (الشام) سنة ١٥١٦ ، ودخولهم قاهرة المعز سنة ١٥١٧م [1] .

• • •

---

(١) انظر تفاصيل هذه الفترة في كتاب :
د/ جلال يحيي - المغرب الكبير - ج ٣ - النهضة العربية - بيروت ١٩٨١م - ص ٧ وما بعدها .



الفصل العاشر

ليبيا

ليبيا

احتلت ليبيا موقعاً استراتيجياً هاماً علي حوض البحر الأبيض المتوسط فهي من ناحية تشكل النصف الشرقي للمغرب ، كما أنها (وهو الأهم) تشكل حلقة وصل بين المغرب والمشرق العربى .

وليبيا بطبيعتها الجغرافية تنقسم إلي : مناطق ساحلية ، وجبلية وشبه صحراوية وصحراوية ، إلا أن مناخها هو مناخ البحر الأبيض المتوسط .

وتقسم البلاد علي ثلاث وحدات إدارية رئيسية هي : أولا : برقة وتقع في الشرق ومركزها بنغازى ، ثانياً : طرابلس في الشمال الغربي ومركزها طرابلس ، ثالثاً : خزان في الجنوب الغربي ومركزها مرزق .

وكان اسم ليبيا قديماً في عصر الإغريق ، والرومان ، إلا أنه أهمل قروناً طويلة لاستخدام أسماء البلدان بمجتمعاتها المحلية ، وبعد الحرب العالمية الثانية أعيد استخدام الاسم مرة ثانية [1] ، وأهل ليبيا مزيج من عناصر عدة بربر ، وفراعنة ، وفينيقيين ، وإغريق ورومان ، وعرب .

سبق وصول العثمانيين إلي منطقة المغرب العربى ومن بينها ليبيا محاولة الحفصيين [2] مد نفوذهم إلي طرابلس ، كما فكر وافي الوصول إلي برقة ، ونستطيع أن نعد ذلك عاملاً وسبباً في ضعف القوي المحلية التى تصارعت فيما بينهما في الوقت الذي أخذت فيه القوي الأوروبية تتسابق في الأخذ بأسباب القوة والسيطرة .

---

(١) د / محمد عبد الغنى سعودي ـ الوطن العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦٦م ـ ص ٤٤٢ .
وانظر : مجيد خدوري ـ ليبيا الحديثة ـ ترجمة نقولا زيادة ـ بيروت ـ ١٩٦٠ ـ ص ٩ .

(٢) استئصال المقام لبنى حفص في حكم طرابلس إذ أنهم حكموا حوالي تسعين سنة فيما بين سنة ٦٣١ هـ ـ ٧٢١ هـ .
وانظر : محمد ناجي (نائب طرابلس) وآخر ـ طرابلس الغرب ـ ترجمة / أكمل الدين محمد إحسان ـ مكتبة الفكر ـ ليبيا ـ ١٩٧٣ ـ ص ١٦٠ .

وقد أشرنا إلي قيام الأسبان بتدمير ميناء طرابلس سنة ١٥١٠م ، وتلك أخطار باتت تهدد سواحل وبلاد المغرب العربي الأمر الذي أدي إلي محاولة أمراء طرابلس الاستعانة بأمراء فاس ضد هذا الخطر المحدق بهم ولا سيما من أسبانيا ، ولكن هذه الاتصالات بين طرابلس وفاس قد أثارت حفيظة الحفصيين في تونس الذين كانت لهم علي ما يبدو أطماع أو مصالح في طرابلس ، بالإضافة إلي غضب قيادات شرقي الجزائر من هذا التقارب بين فاس وطرابلس ، وهذا هو الاستنزاف بعينه للقوي المحلية المتصارعة علي السلطة في المغرب العربي [١] .

أدي هذا التصارع المحلي إلي وقوع طرابلس بالفعل في يد الأسبان الذين استولوا علي المدينة سنة ١٥١٥م في عهد الإمبراطور شارل الخامس ، واتخذوها مركزاً أو جيباً نصرانياً بجانب الجيوب الأخري التي سيطروا عليها علي امتداد ساحل المغرب العربي ، واستمر الحكم الأسباني لطرابلس حوالي عشرين عاماً ، بعدها وفي سنة ١٥٣٥م لم يستطع شارل الخامس الاحتفاظ بطرابلس فقد كان مثقلاً بالمشكلات والأخطار الكبري من بينها مشكلاته مع السلطان سليمان القانون العثماني ، ومشكلة الإصلاح الدينى (مارتن لوثر ، وكلفن ، وزونجلي) في بلاده ومشكلة الاتحاد السويسري الذي يطلب الانفصال ويلح فيه ، وحربه الصليبية مع سكان الجزائر وتونس . . . الخ .

من أجل ذلك ترك شارل الخامس حكم طرابلس ليتولاها فرسان القديس يوحنا الذين نقلوا نشاطهم النصراني إلي جزيرة رودس بعد طردهم من بلاد الشام سنة ١٢٩١هـ ، وطردهم أيضاً من رودس إلي مالطة [٢] .

وقد اهتبل الفرسان الفرصة عندما حصلوا علي الميناء والمدينة بسهولة وجعلوا

---

(١) د/ جلال يحيى ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ ص ٧ ، ١٦ .

(٢) د/ نقولا زيادة ـ ليبيا في العصور الحديثة ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ـ ص ٣٤ .
وانظر تفاصيل مشكلات الإمبراطور شارل الخامس في كتاب : د/ عبد الحميد البطريق وآخر ـ التاريخ الأوربي الحديث ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٩٧م ـ ص ٨٣ وما بعدها . .

منها وكراً ينطلقون منه لضرب السفن الإسلامية في عرض البحر .

لم ييأس أهالي طرابلس رغم فشل مقاومتهم للإحتلال الصليبي في العهد الأسباني أو إبان سيطرة فرسان القديس يوحنا ، ولذلك فقد قرروا الاستنجاد بالسلطان العثماني سليمان الذي استقبل وفداً من أهل تاجوراء يطلبون منه تحرير بلادهم من النصاري في مقابل إعلان ولائهم للدولة العثمانية .

وبالفعل بادر السلطان بالاستجابة ، وأرسل مراد أغا مع حملة صغيرة إلي ميناء طرابلس ، ولكنه فشل في البداية في تحريرها ، فظلت الحملة في تاجوراء مقيمة تحصينات عسكرية وتجهيز الطريق بين تاجوراء وطرابلس ، وطلب مراد من الباب العالي إرسال حملة برية وبحرية لمساعدته علي إنجاز مهمته ، فأرسل سليمان حملة بحرية كبيرة بقيادة الصدر الأعظم (قوجه سنان باشا) .

استطاعت الحملة ضرب استحكامات الصليبيين علي المدينة ودخلوها في سنة ١٥٥١م ، وساعده علي ذلك أحد القادة (دراجوت باشا) قائد الأسطول العثماني الذي كان علي مقربة من الجزائر حينئذ ، وكان أول وال عثماني علي ولاية طرابلس هو سنان باشا ، وخلفه دراجوت باشا حيث اشترك الإثنان في قطع دابر الصليبيين من إقليم طرابلس ، وامتداد النفوذ والسيطرة العثمانية علي أغلب السواحل الليبية (١) .

عصر الأسرة القره مانلية :

وفي الفترة الواقعة منتصف القرن السادس عشر ، وأوائل القرن الثامن عشر ازداد عدد فيالق الانكشارية (لمنع الاعتداءات النصرانية) الذين تصاهروا مع عرب الولاية وتزوجوا من نسائهم ، وامتلكوا الأراضي والأشجار والنخيل تلك الزيجات المختلطة التي أنتجت طوائف عرفت بـالقولوغلية ، وهي خليط بين العرب

---

(١) د/ نقولا زيادة ـ ليبيا في العصور الحديثة ـ ص ٤٤

وانظر : د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية جـ ٢ ـ ص ٩٢٨ ، ٩٢٩ .

و : محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ١٦١ .

والانكشارية ، واستطاع أحدهم وهو أحمد القرمانلي أن ينفرد بالسلطة ويعلن نفسه حاكماً علي ولاية طرابلس سنة ١٧١١م عندما انتهز فرصة هروب خليل باشا والي طرابلس ولجوئه إلي مصر بعد ثورة أهالي ولايته .

هذا علي الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تعمد إلي تغيير الولاة سريعاً فتولي أمر طرابلس العديد من الولاة مثل يحيى باشا ٩٧١ هـ ، مصطفي باشا ٩٧٣ ، ومحمد باشا التركي ٩٨٢ هـ ، وغيرهم ، وقد حاولت الدولة العثمانية القضاء علي أحمد القرمانلي إلا أنها فشلت في ذلك واضطرت إلي تعيينه والياً علي طرابلس ويكون حكمه فيها وراثياً في أسرته كما حصل علي لقب الباشوية ، ومدته بمجموعة من المدافع (٧٠ مدفعاً) حملتهم سفينتان وعليهما مجموعة كاملة من الرجال لحماية الولاية .

استمرت أسرة القرمانلي في حكم طرابلس حوالي مائة وأربعة وعشرين عاماً بداية من سنة ١٧١١م إلي سنة ١٨٣٥م ، وبعدها عادت الولاية للدولة العمانية مرة ثانية حيث استمرت تحكمها حتي سنة ١٩١١م[١] .

وفي عهد أسرة القرة مانلين كانت طرابلس تعد مثلها مثل الدول المستقلة إذ أنهم قد دخلوا في حرب مع بعض الدول الأوروبية ، وعقدوا العديد من المعاهدات والاتفاقات دون الاستئذان من حكومة الدولة العثمانية ، وبالغوا في إظهار استقلالهم بأن اتخذ البعض منهم لقب أمير المؤمنين ، في الوقت الذي أطاعهم فيه أهل طرابلس وما حولها طاعة عمياء لما كان لهؤلاء القادة من نفوذ كبير كما كان جنود الانكشارية وقادتهم في موقف ضعف ، فلم يحركوا ساكناً في هذا المجال .

واشتهر عند القادة القرمانلين الشدة والعنف ، والاستئثارة بخيرات البلد دون أن يهتموا بإصلاحات وإعمار البلاد أو بتقوية العسكرية والبحرية الموجودة في طرابلس

(١) د/ عبد العزيز الشناوي - الدولة العثمانية - جـ ٢ - ص ٩٣٠ ، ٩٣١ .
وانظر : أحمد الأنصاري - المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب - مكتبة الفخراني - ص ٢٢٥ ما بعدها .

ما عدا بعض المحاولات التي قام بها محمد بن مؤسس الأسرة وبعض خلفائه .

وفي عهد مؤسس هذه الأسرة (أحمد القره مانلي) ظهرت ثورات عديدة تمكن من إخمادها لعل أشهرها تلك الثورة التي تزعمها رجل مغربي (غلب بن عبد الله عبد رب النبي) الذي عرف بـ (أبو قبله) ، واتخذ من مناطق الجبل وكراً له مدعياً المهدية فبايعه كثير من الناس وأثار الأهالي حتي زحف عليهم أحمد باشا القره مانلي وأخمد فتنتهم .

وفي عهد ابنه (محمد باشا) كانت هناك محاولة لتجديد الأسطول وظهر في عهده مجاهدون استطاعوا إدخال الرعب في قلوب الأوروبيين حتي بات الأخيرون يخشون أعمالهم ، واضطرت فرنسا في عهده كذلك أن تبرم اتفاقية مع الطرابلسيين إثر تمكن المجاهدين من أسر مجموعة من السفن الفرنسية سنة ١٧٢٨م .

وحصلت انجلترا في هذه الفترة علي معاهدة أخري مع محمد باشا استطاع أن يعقدها هي وسابقتها دون مشاورة الباب العالي أو انتظار الحصول علي موافقة منه [١] .

يوسف باشا القره مانلي

وممن أذاقوا الأوروبيين مرارة دفع الجزية الوالي يوسف باشا الذي كان علي درجة كبيرة من الذكاء والشجاعة والعنف في وقت واحد ، حيث تمكن من الحصول علي تصديق من الدولة العثمانية لولايته ، ونال منها علي رتبة : روم أيلي بكلربكي وأجري في بلاطه طقوساً لا تقوم إلا للملوك ، وأدخل علي أسطوله إصلاحات عديدة ، كما أنه كان علي صلة وثيقة بالفرنسيين ولا سيما في عهد نابليون بونابرت لدرجة أن يوسف باشا قد استنفر أسطوله وجعله علي أهبة الإستعداد لحماية الأسطول الفرنسي وإنقاذه من تضييق الإنجليز الخناق عليه ومحاصرته إبان الحملة

---

(١) محمد ناجي - طرابلس الغرب ص ١٧٧ وما بعدها .
وانظر : أحمد الأنصاري - المنهل العذب - ص ٣١٥ .

الفرنسية علي مصر .

ومن البلاد الأوروبية التي أذعنت ليوسف باشا ودفعت الجزية له السويد عندما فرض علي حكومتها سنة ١٢١٣ هـ أن تدفع له مائة ألف فرنك كهبة ، وثمانين ألفاً من الفرنكات كجزية سنوية ، ورغم أن القنصل السويدي امتنع عن قبول دفع بلاده لهذه الأموال ، مما حدا بيوسف باشا أن يهاجم المصالح السويدية وعلي رأسها السفن التي حصل منها علي غنائم كثيرة ، وانتهت الأزمة بتدخل نابليون ، وجعل الهبة ثمانين ألفا ، والجزية ثمانية آلاف سنوية ، وحينئذ وافق يوسف باشا علي فك أسر السفن .

كما استطاع يوسف مصادرة مجموعة من السفن الأمريكية سنة ١٢١٧ هـ الأمر الذي دفع بالأسطول الأمريكي لمحاصرة طرابلس عشرين يوماً ، ولم ينقذ الأمر سوي تدخل والي الجزائر حسن باشا ، والقنصل الإنجليزي وينجتون (صديق يوسف باشا) اللذان توسطا في إبرام الصلح مع الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٢٢٠ هـ .

ويذكر في هذا الصدد : أن ما دفعته الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية في السنوات الثلاث الأولي من حكم يوسف باشا قد بلغ ثلاثمائة وثلاثين ألف قرش اضطرت إلي دفعه كل من : الولايات المتحدة الأمريكية ، انجلترا ، وفرنسا ، والدانمرك ، والسويد ، والبرتغال ، وهولندا ، وسردينية .

إلا أن الأمر قد اختلف بعد أن تخلصت أوروبا من الرعب الفرنسي أيام نابليون وتنفست أوروبا الصعداء حينئذ عقدت الدول الكبري سنة ١٨١٩م اتفاقاً فيما بينها لحماية دولهم من المجاهد ين في البحر الأبيض المتوسط ، وتم إبلاغ الاتفاق إلي يوسف باشا مما أدي إلي امتناع الدول عن دفع الجزية ، وتدهور أحوال ولاية طرابلس .

وتجدر الإشارة إلي أن العديد من المقاطعات الإيطالية كانت هي الأخري تدفع الجزية ليوسف باشا مثل : سردينيا ، وحكومة البابا ، وحكومة نابولي وغيرها[1] .

واحتفظ يوسف باشا بعلاقات حميمة مع دولة بورنو ، وكانم ، وبعض دول غرب وشمال غرب أفريقيا الأخري حتي أن البعض من هذه الدول كان يستنجد بدولة يوسف باشا فيجيبه إلي طلبه بحملات عسكرية جعلت له مكاناً عزيزاً في هذه الدول الإفريقية [٢] .

ومع ذلك فقد أدي تكالب الدول الأوروبية واتفاقهم علي مجابهة ووقف عمليات المجاهدين ضدهم في البحر المتوسط ، ووقف ومنع ماكانوا يدفعونه واستقرار رأيهم في مؤتمر إكس لاشايل سنة ١٨١٦م أن ساءت أحوال طرابلس وتدهورها اقتصادياً مما اضطر يوسف باشا إلي فرض ضرائب وأموال علي الأهالي الذين ثاروا عليه ، واضطروه إلي التنازل عن الولاية لابنه علي بك قره مانلي الذي جاءه فرمان توليته من الدولة العثمانية في ربيع الآخر سنة ١٨٣٣م [٣] .

وبذلك أصبحت ولاية طرابلس في موقف حرج داخلياً وخارجياً ، الأمر الذي شجع الدولة العثمانية لإنهاء حكم هذه الأسرة وإعادة طرابلس إلي حكمها وسيادتها المطلقة .

وبادرت الدولة العثمانية في أوائل سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م بإرسال حملة عسكرية تحملها اثنتان وعشرون سفينة يقودها الفريق مصطفي نجيب باشا بحجة حفظ الأمن في البلاد ، وبعد شهر من وصولها واستقرارها دعا القائد العثماني الوالي إلي سفينته وألقي القبض عليه ، وأخرج فرمان الدولة أمام الأعيان وتلاه عليهم بولايته عليهم وحفظ الأمن والاستقرار في ولاية طرابلس [١] ، وبذلك طويت صفحة هذه

---

(١) محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ١٨٢ وما بعدها .
وانظر : د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب) ـ الأنجلوا المصرية ـ ط ١ ـ القاهرة ـ ١٩٧٧م ـ ص ١٣٧ .
(٢) أحمد الأنصاري ـ المنهل العذب ـ ص ٣٤٦ .
(٣) د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٤١ .

الأسرة التي انتقلت من علي مسرح التاريخ إلي كتبه .

ومما يجدر ذكره ونحن نختتم حديثنا عن الأسرة القره مانلية هي أن اتجاه أغلب قادتها للتصرف في شؤون الولاية كمستقلين لم يقطع الصلات الروحية بينهم وبين دولة الخلافة (العثمانية) بل كانت تلك الصلات موجودة بشكل وبآخر يمكن أن ندلل عليه بما حدث ثورة المورة عندما تم إسناد أمرها إلي مصر وأرسلت الدولة العثمانية خسروا باشا (والي مصر السابق الذي تولي منصب قبودان باشا الأسطول العثماني) إلي كل من الجزائر وتونس وليبيا لجمع السفن الحربية وبالفعل شارك القره مانليون في هذه الحملة ببعض سفنهم ، التي عاونت الأسطول المصري العثماني ، ولقيت المصير نفسه الذي لقية الأسطول المصري في موقعة نافارين البحرية (٢) .

الحكم العثماني الثاني لليبيا (١٨٣٥ – ١٩١١) م :

عاد الحكم العثماني إلي ليبيا في وقت زادت فيه الأطماع الاستعمارية وضوحاً ولا سيما بعد استيلاء فرنسا علي الجزائر سنة ١٨٣٠م وبريطانيا علي عدن سنة ١٨٣٩م ، وتكالب الأمم الأوروبية علي مصر (محمد علي) في مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠م ، وما تلاه من احتلال فرنسا لتونس سنة ١٨٨١م ، وبريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢ ولذا فقد وضح أمام الليبيين الخطر الذي أصبح ماثلاً أمام أعينهم من جانب الأوروبيين ، وأصبح الليبيون يشاهدون الولايات العربية تتساقط أمامهم الواحدة تلو الأخري في قبضة المستعمرين ، فكان ذلك داعياً من دواعي الالتفاف والتمسك بالروابط الدينية والسياسية مع الدولة العثمانية (٣) .

ومن ناحية أخري كان إقليم طرابلس وبرقة (ليبيا) فقيراً من ناحية الموارد

---

(١) د/ جلال يحيي - المغرب الكبير - جـ٣ - ص ٦١ .
وانظر : د/ شوقي الجمل - المغرب العربي - ص ١٤٢ .
و : محمد ناجي - طرابلس الغرب - ص ١٨٩ .
(٢) د/ جلال يحيي - المغرب الكبير - جـ٣ - ص ٦٠ ، ٦١ .
(٣) د/ زاهية قدورة - تاريخ العرب - ص ٤١٥ .

الطبيعية اللهم إلا بعض العيون التي تقوم عليها زراعات بسيطة ، ورغم وجود تجارة رابحة في السابق عبر الإقليم عن طريق القوافل بين إفريقية السوداء في الجنوب والمواني الطرابلسية علي البحر المتوسط إلا أن استيلاء الأوروبيين علي مخارج القارة من ناحية الغرب ، وفي خليج غانة قد أدي إلي ضعف وانخفاض هذه التجارة .

ومن الناحية الإدارية كانت الولاية قد قسمت إلي قسمين أولهما : ولاية طرابلس ، وبها مقر الوالي وثانيها : متصرفية بنغازي التي تخضع لمتصرف يُعد نائباً للوالي ، ويطبق في الولاية نظام القضاء العثماني ، بيد أن الامتيازات الأجنبية قد كان لها باع ونفوذ كبير تسبب في فوضي مستمرة في هذه الولاية وساعدت تلك الامتيازات علي سيطرة الأجانب علي المصالح الرئيسية في البلاد .

في الوقت الذي كان فيه العثمانيون يهتمون بدرجة كبيرة بمسألة جمع الضرائب مما ضيق علي الأهالي في معيشتهم علي الرغم من تمسكهم بسياسة عبد الحميد الإسلامية التي انتهجها لاعتزازهم بإسلامهم وعروبتهم ، وساعد علي وجود عدد من الطرق الصوفية لكل منهم أتباع وأشهر هذه الطرق هي الطريقة السنوسية التي ظهرت في واحة جغبوب ، وانتشرت في برقة حتي وصلت إلي أفريقية السوداء[1] .

وتولي أمر ليبيا من الولاة عدد كبير بلغ ثلاثة وثلاثين والياً في الفترة الواقعة بين ١٨٣٥ ـ ١٩١١م دون أن يتمكن المصلحون منهم من تصحيح أوضاع الولاية فقد كانت فترة تولي كل منهم قصيرة لا يتمكن فيها الوالي من فهم البلاد فضلاً عن إصلاح شئونها فقضي معظمهم أغلب فترة الولاية في القضاء علي الفتن والثورات التي كانت سمة واضحة طوال العصر العثماني الثاني يضاف إلي ذلك حالات الجدب ، وقلة المياه للشرب وانتشار الأمراض الفتاكة[2] .

ومع ذلك كان هناك بعض الولاة الذين سجلوا صفحات بيضاء طيبة في تلك

(١) د/ جلال يحيي ـ العالم العربي ـ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ .
(٢) د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

الفترة نذكر منهم : -

١ ـ الوزير محمود نديم باشا :

لعله من أبرز الولاة العثمانيين حينئذ ، ومع عدم استطالة فترة ولايته التي لم تتعد ست سنوات فيما بين سنتي ١٨٦٠ ، ١٨٦٦م إلا أن عهده قد حفل بمجموعة من الاصطلاحات في مجالات الحياة المختلفة بليبيا .

فقد ازدهرت الزراعة في عهده بغرسه للأشجار والنخيل ، وتشجيعه الأهالي علي العناية بها ، ويرجع إلي نديم باشا فضل اهتمامه بتأسيس أول مطبعة حكومية بقصر الحكومة في ليبيا ، وصدور أول جريدة رسمية كانت تسمي باسم (طرابلس غرب) ، وأنشأ محاكم الجنايات والحقوق والتجارة بعد أن تم تحويل إيالة طرابلس الغرب في عهده وفي سنة ١٢٨٢ هـ إلي ولاية[١] .

٢ ـ حافظ محمد باشا :

تولي أمر الولاية في سنة ١٩٠٠م واستمر فيها عامين فقط حيث تركها في سنة ١٩٠٢م ، وكانت له أياد بيضاء في حكم هذه البلاد حيث عمل الرجل بلا كلل أو ملل ، فتم إنجاز في عهده خاص بتسجيل الأملاك ، وإحصاء للسكان ، والقيودات العقارية لنشر الاستقرار والعدالة بين الناس ، وتقرر في عهده أيضاً إعانات ومساعدات وبعض الخدمات العامة ، وأنشأ بنكاً زراعياً ، وألغيت امتيازات أصحاب النفوذ والغني التي كانت تعفيهم من الضرائب ، كما ألغي امتيازات طبقة (طائفة) (قول أو غلي) ، وأنشا مدرسة الصنايع ، وعبّد الطريق العام ، ورصف طريق البحر بالحجارة المصقولة ، وأول من أدخل الخدمات البلدية في ليبيا .

وكانت له أياد بيضاء في مجال التعليم حيث أقام مدرسة للمعلمين ، وحول مدرسة البنات الصغيرة إلي مؤسسة كبري ، وانطلق يفتتح المدارس في ملحقات الولاية واستقدم الخبراء .

---

(١) محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ١٩٨ .

ويذكر أنه في عهده كانت هناك محاولات إيطالية سنة ١٩٠١ ، ١٩٠٢ ـ كما سنرى ـ لمد أطماعها إلي ليبيا إلا أن حافظ باشا قد تمكن من اتخاذ تدبيرات حكيمة أعادت الأسطول الإيطالي دون أن يمكنه من الاستيلاء علي البلاد[1] .

السنوسية ودورها في ليبيا :

شهد القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ـ كما قدمنا ـ مجموعة من الدعوات الإصلاحية في أفريقيا وآسيا من بينها : دعوة ابن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية ، والدعوة المهدية في السودان ، وقد سبق الحديث عنهما ، وفي ليبيا ظهرت الدعوة السنوسية التى آثرنا أن نفرد لها الدراسة الموجزة التالية : ـ

ولد محمد بن علي السنوسي في ١٢ من ربيع الأول سنة ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧م قريباً من مدينة مستغانم بالجزائر ، وتربي في بيت علم ومعرفة فنهل منه وتعلم في جامع القرويين بفاس لمدة سبع سنوات (١٨٢٢ ـ ١٨٢٩) م ، وعاد للجزائر في بداية الاستعمار الفرنسي لها ، وانتقل منها إلى القاهرة ، حيث أقام بها فترة ينهل من علوم الأزهر الشريف (يُعلم ويتعلم) ، وعاد بعد ذلك إلي الحجاز بعد أن اختلف مع بعض علماء الأزهر الذين وجدوا فيه جرأة بسببها ناصبوه العداء .

وتعددت رحلات محمد بن علي السنوسي التي عمد فيها إلي إقامة الزوايا ونشر دعوته الإصلاحية في الحجاز والشمال الأفريقي كله ، والشام ومصر وفي عودته سنة ١٨٤١ علم أن الفرنسيين ينوون القبض عليه على الحدود التونسية الجزائرية ، فعاد إلي الجبل الأخضر بصنجقية برقة التابعة لطرابلس .

حيث كان قد أوعز إلي أتباعه بتأسيس الزاوية البيضاء التي تم تأسيسها في أواخر سنة ١٨٤٢م ، وصارت زاوية السنوسية الرئيسية في برقة بعيداً عن النفوذ المباشر

---

(١) محمد ناجي ـ طرابلس الغرب ـ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

للأتراك العثمانيين الذين كان يتركز نفوذهم على الساحل أكثر وهى أيضاً تقع على طريق القوافل الطويل .

وفى سنة ١٨٤٦م وبعد أن قضى فى الجبل الأخضر عدة سنوات غادر الزاوية البيضاء إلى الحجاز فأمضى فيه عدة سنوات أخرى (٨ سنوات) عاد بعدها سنة ١٨٥٦م حيث اتخذ من منطقة جغبوب مركزاً له ، حيث تمثل له بُعداً أكثر عن أن تطوله يد العثمانيين ، ولذلك انتشرت دعوة السنوسية ، وأصبح لها مجموعة كبيرة من الزوايا قدرت بثلاثمائة زاوية خصصت لتلقى العلم وإعداد الدارسين لنشر تعاليم السنوسية فى المناطق المختلفة .

وكانت الجغبوب مجرد واحة غير مأهولة ومأوى لقطاع الطرق حتى تغير حالها تماماً بعد أن قصدها السنوسى وأقام فيها الزاوية السنوسية حيث أصبحت منطقة عامرة ، ودبت فيها الحياة والنشاط ، وتعاون الإخوان فى العناية بزراعة الأرض حول الزاوية ، وتوفير المياه اللازمة ، ولكل فرد عمل محدد يقوم به فى أيام معينة بنظام وترتيب وأثرة ، وأصبحت موارد الزاوية من نواحى عدة : عن طريق التجارة والزراعة والرعى والهبات والزكاة الشرعية وما ترسله الزوايا من فوائض[1] .

وللسنوسى مؤلفات عديدة تشرح تعاليمه المستمدة من الكتاب والسنة ، وقبل وفاة المؤسس محمد بن على نجد أنه قد أعد العدة لخلافة ابنه المهدى دعوته وطريقته حيث توفى محمد (المؤسس) فى ٧ من سبتمبر سنة ١٨٥٩م ودفن بالجغبوب .

وفى عهد ابنه المهدى بلغت الدعوة مداها ، وانتقل من جغبوب إلى الكفرة حيث كان الاتجاه السائد هو الابتعاد عن السياسة حتى لا يكون هناك صدام بالقوى المتصارعة عليها ، إلا أنه فيما يبدو قد كانت لهم أنشطة فى مساندة الحركات الوطنية

---

(١) الأشهب (محمد الطيب بن إدريس) ـ السنوسي الكبير ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ص ٨ وما بعدها .
وانظر : Pritchard, Evans : The Sanusi of Cyrenaica (ox ford) 1948, p.11 - 13.
وانظر : د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٥٤ وما بعدها .

التى قامت فى الجزائر وتونس ، بل يذهب البعض إلى وجود أتباع لهم فى الشمال الأفريقى كله كانوا كعملاء للسنوسية فى المصالح الحكومية فى كل المدن ، حتى بالغ البعض فى ذكر أن السنوسيين كانوا وراء حوادث الاغتيالات التى حدثت للأوروبيين من منصرين ومستكشفين فى كثير من بلاد إفريقيا [١] .

أما علاقة السنوسيين بالدولة العثمانية فقد كانت جيدة حيث وفرت السنوسية عليهم نفقات العصابات وقطاع الطرق بعد ما أصلحت السنوسية من شأنهم بفضل الله .

وعلى كل فقد انتشرت السنوسية وزواياها فى ليبيا ومصر والسودان وشبه الجزيرة العربية فى شكل ومنهج محكم ومترابط فيما بينهما ، وفى الوقت الذى توفى فيه السيد المهدى سنة ١٩٠٢م كانت السنوسية قد بلغت مبلغاً عظيماً فى الانتشار [٢] .

وعند وفاة المهدى كان ابنه محمد إدريس (الذى صار ملكاً فى سنة ١٩١٨) صغيراً فتولى السيد أحمد الشريف فترة ست عشرة سنة قضاها فى كفاح وجهاد مستمر ضد الفرنسيين مشتركاً مع الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا وغيرهم فى هذا الكفاح ، كما كانت هناك علاقات حميمة بين السنوسية ، وبين حاكم واداى فى السودان ، وساءت العلاقات أكثر عندما احتل الفرنسيون إحدى الزوايا التابعة للسنوسيين فى (بيو علالى) بمنطقة واداى بالسودان فأعلن المهدى الجهاد ضدهم ، وبعد وفاته استمر الشريف فى القتال ضد الفرنسيين مما كبدهم خسائر كبيرة فى الجنود والقادة .

وفى سنة ١٩١١م اضطر السنوسيون إلى ترك الجنوب للفرنسيين ليتمكنوا من

---

(١) Pritchard Evans : op . cit . p 23 - 25 .
وانظر : د / شوقي الجمل - المغرب العربي - ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) د / شوقي الجمل - المغرب العربي - ١٦٠ ، ١٦١ .

مواجهة العدو الأخطر وهم الإيطاليون الذين جاءوا بأطماعهم إلى ليبيا[١] .

الأطماع الإيطالية واحتلال ليبيا :

شهدت فترة الحكم العثمانى الثانى لليبيا منذ سنة ١٨٣٥م أحداثاً وأطماعاً أوروبية جاءت من جبهات عديدة أولها : فرنسا التى أثير حولها الشكوك فى أن لها أطماعاً فى ليبيا ، ولا سيما بعد أن استولت على تونس سنة ١٨٣٠م ، ونظراً لكثرة الاتهامات التى وجهت للفرنسيين فقد اضطر وزير خارجية فرنسا أن يعلن على الملأ فى يوليه سنة ١٨٨١م أن حكومته لا تفكر مطلقاً فى احتلال طرابلس ، وكل ما فى الأمر هو رغبة فرنسا فى منع الروح العدائية التى تظهر بين الحين والآخر من طرابلس تجاه فرنسا .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ظهرت على السطح فى أواخر القرن التاسع عشر مخاوف من أطماع ألمانية وإيطالية بعد أن توحدت بلدان كل دولة منها ، وتخلصت من مشكلاتها الداخلية ، وباتت كل منهما أيضا ترنو ببصرها تجاه مجال الاستعمار وتبحث لنفسها عن مكان تحت الشمس .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد (فرنسا ـ ألمانيا ـ إيطاليا) بل كانت هناك بوادر أمريكية فى الميدان نفسه ، وفى هذا الصراع سعى القنصل الأمريكى فى طرابلس فيدال (Fedal) سنة ١٨٧٣م للحصول على ميناء بحرى حربى فى طرابلس ليكون قاعدة للأسطول الأمريكى فى البحر المتوسط ، وكان المكان المميز الذى وقع عليه الاختيار هو ميناء طبرق ، إلا أن الصراعات الدولية فى هذا الوقت قد وقفت حائلاً ضد تنفيذ هذا المشروع الأمريكى[٢] .

---

(١) Pritchard Evans : op . Cit . p . 102 .
وانظر : د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٤٨ .

أحوال ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي :

كانت الأوضاع فى ليبيا تسوء باستمرار ـ ما عدا بعض الومضات التى أشرنا إليها من قبل ـ لقلة المدارس ، وتمكن الفقر بسبب ضعف التجارة والزراعة وانعدام الصناعة ، وانتشار الأمراض التى كان يأتى بعضها فتاكاً بالشعب الليبى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد اضطر الأتراك إلى سحب جيوشهم وأسلحتهم من القطر الليبى على وعد بأن ترسل غيرهم دون أن تفعل ولم يبق فى ليبيا سوى ألفى جندى بعد أن كان تعداد الحامية حوالى عشرين ألفا [١] .

كان سحب الحاميات العثمانية بسبب ظروف تركيا مدعاة لظهور الثوار من الأهالى الذين أصبح عليهم عبء مواجهة المستعمرين الذين يتربصون بالبلاد الليبية ولا سيما أن الخطر الماثل أمامهم لم يكن خافياً على أحد بعد أن التهمت الأطماع الاستعمارية جيران ليبيا سواء فى منطقة الشمال الأفريقى ـ الجزائر ، وتونس ، وفى الشرق مصر والسودان وكذلك فى آسيا الشام والعراق وغيرها ، ولذلك أحس الجميع أن هؤلاء المستعمرين باتوا فى طريقهم إلى ليبيا .

وكان على السنوسيين كمجاهدين انتشروا فى برقة وكل أنحاء ليبيا بل وخارج حدودها أن يواجهوا الخطر الاستعمارى ويتصدون له لدعوة داعى الجهاد فى الزود عن بلادهم .

وقد مهد الإيطاليون لأطماعهم فى ليبيا باتخاذ مجموعة من الإجراءات خاصة بعد أن توحدت كل مقاطعاتها سنة ١٨٧١ م .

وفى سنة ١٨٨١ م أصيبت إيطاليا بخيبة أمل نتيجة استباق فرنسا لها واحتلالها تونس التى كانت إيطاليا تطمح فى الإستيلاء عليها ، واعتبرت ذلك ضربة قاسمة لها ولذلك فقد اتجهت إيطاليا إلى شرق أفريقيا ، واستولت على مستعمرة إرتيريا والصومال والإيطالى ، كما اتجهت أطماعها نحو أثيوبيا ولكنها لقيت هزيمة منكرة

---

(١) الزاوي (الظاهر أحمد) ـ جهاد الأبطال في طرابلس الغرب ـ ١٩٧٠ ـ ص ١٩ ، ما بعدها .

فى موقعة عدوة (مارس ١٨٩٦)[١] م ، وربما يكون ذلك سبباً فى تأخر إيطاليا حتى سنة ١٩١١م فى احتلالها للقطر الليبى .

إلا أن إيطاليا باتت تخطط وتتخذ بعض الإجراءات تمهيداً لاحتلالهم المرتقب كان من بين هذه الإجراءات :

١ ـ محاولة امتلاك الأراضى فى منطقة سرت عن طريق رجل يدعى محمد المغراوى فى سنة ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٢ م .

٢ ـ سعت إيطاليا فى سنتى ١٩٠١ ، ١٩٠٢ للحصول على موافقة ضمنية من انجلترا وفرنسا ، وبالفعل حصلت عليها[٢] .

٣ ـ تلى ذلك تمهيد آخر حيث اشترت أرضاً شاسعة داخل الولاية ، وأرسلت أعداداً كبيرة من المهاجرين الإيطاليين ، وأنشأت العديد من المدارس ، ومكاتب البريد فى المناطق الرئيسية والهامة فى الولاية ، كما عملت إيطاليا على زرع بذور الشقاق بين الأهالى ، والأطراف المختلفة متذرعة بسبل عديدة على رأسها عمل إحصاء للسكان ، وتسجيل الأملاك[٣] .

٤ ـ اتخذ الإيطاليون من مكاتب البريد التى أنشأوها منتديات لاجتماع السياسيين الإيطاليين للاتفاق على السبل الكفيلة وتدبيرها لتسهيل وتعجيل عملية الاحتلال المرتقبة .

٥ ـ أسس الإيطاليون فى سنة ١٩٠٥ م فرعا لبنك روما فى طرابلس رغم

---

(١) Safwat, M. : Tunis and The Great powers - 1943 - p . 124 .

وانظر : د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٢) فقد كان هناك تنسيق بين بريطانيا لإطلاق يدها في مصر والسودان وغيرها من المناطق في مقابل أن يكون الوجود الإيطالي في شرق وشمال أفريقيا سداً في وجه فرنسا من جهة ، وفي وجه المهديين في السودان من جهة أخري .

وانظر : Hollis Christopher : Italy in Africa - london - 1941 , p . 21 .

(٣) محمد ناجي ـ طرابلس العرب ـ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

معارضة الوالى رجب باشا لمعرفته بأن المشروعات الاقتصادية هذه تحوى فى داخلها أهدافاً سياسية واستعمارية ، لكن حكومة الآستانة كانت ترى عدم التشدد فى مثل هذه الأمور تحسباً لأية قلاقل سياسية ، ولذلك فقد أنشىء البنك رغماً عنه .

٦ ـ وافقت الحكومة العثمانية على إرسال بعثة عسكرية إيطالية مكونة من مجموعة من الضباط بحجة أنها بعثة علمية تبحث عن الآثار ، فى الوقت الذى كان فيه عمل البعثة وضع الخرائط العسكرية لجميع المناطق الرئيسية التى مروا بها لتسهيل عملية الاحتلال .

٧ ـ أنشأ الإيطاليون عدداً كبيراً من المدارس التى تخرج منها متعلمون موالون للإيطاليين كان من بينهم يهود وغيرهم ، وأصبح عدد كبير منهم تجاراً تعاملوا واستفادوا من الإيطاليين ، وصار منهم موظفون ، حتى أصبح تعلم اللغة الإيطالية مسوغاً ومساعداً لفتح أبواب العمل والثراء ، ويبدو أن ذلك قد شجع نسبة كبيرة من أهالى طرابلس على تعلم اللغة الإيطالية حتى بلغ عدد من تعلموها من طرابلس قبيل الإحتلال الإيطالى أكثر من ٣٠ ٪ من سكانها ، بينما المتكلمون باللغة التركية لم يتعد عددهم ٥ ٪ فقط من مجموع عدد السكان .

٨ ـ نشطت إيطاليا فى مجال التعدين بطرابلس فأنشأت شركة لاستغلال الفوسفات والتنقيب عن المعادن بشكل عام فى ليبيا .

٩ ـ ازداد نفوذ الإيطاليين فى ليبيا قبل استيلائهم على البلاد ، وبلغ نفوذهم حدا أن كانت الحكومة الإيطالية تتدخل لدى الدولة التركية لعزل الولاة الذين كانوا يعترضون على عبثهم فى ليبيا ، وكل من حاول الوقوف فى وجه أطماعهم الاستعمارية ، ومن الأمثلة على ذلك :

ما حدث للوالى إبراهيم أدهم باشا الذى تولى سنة ١٩٠٩م أمر الولاية ، ودعا وحاول إصلاحها ، كما أخذ يلح فى طلب الأسلحة من الدولة لتدعيم القوة الدفاعية لليبيا ، كما حاول الوقوف فى وجه أعمال بنك روما الذى أصبح إخطبوطاً

تشعبت أعماله فى نواحى عديدة مثل إنشائه مطبعة وجريدتين للدعاية للأعمال الإيطالية ، وكذلك تدخله فى شتى شئون الحياة بليبيا ، ولذلك فقد سارعت إيطاليا بطلب عزله ، ورضخت الدولة لمطلبها فعزلته فى سبتمبر سنة ١٩١١م [١] .

الهجوم الإيطالى على ليبيا :

اختارت إيطالياً توقيتاً مناسباً لتنفيذ خطة الاستيلاء الكامل على ليبيا فقد هدأت الأحوال بين فرنسا وألمانيا بعد أزمة أغادير بالمغرب ، وابتعدت أخطار الحرب العالمية (مؤقتاً) ، وكانت الأحوال الجوية مناسبة فى خريف سنة ١٩١١م لتسهيل عملية إنزال الجنود الطليان على السواحل الليبية ، ولذلك فقد بادرت إيطاليا إلى استدعاء جنود الإحتياط فى أوائل شهر سبتمبر ، فى الوقت الذى كان فيه الإيطاليون يودعون ولى عهد السلطة التركية الذى كان فى زيارة لإيطاليا فى صيف عام ١٩١١م .

وفى الشهر نفسه (سبتمبر) فوجىء رئيس الوزارة التركية حقى باشا بعدة مطالب يحملها السفير الإيطالى فى الآستانة (دى مارتينو) أهمها : ـ

١ ـ أن يخرج الجنود الأترك من طرابلس ، وبنى غازى ، ودرنة .

٢ ـ يتم تشكيل جنود (جندرمة) فى البلاد الليبية تحت قيادة ضباط إيطاليين .

٣ ـ تحويل إدارة جمارك ليبيا إلى الموظفين الإيطاليين .

٤ ـ أن يكون تعيين والى طرابلس بمعرفة ورضا إيطاليا .

وبعد هذه المطالب التى كانت تمهيداً تقدم السفير الإيطالى فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩١١م بإنذار يحمل توقيع وزير خارجية إيطاليا إلى رئيس الوزارة التركية يعلن فيه أن الحكومة الإيطالية قد قررت احتلال طرابلس وبنى غازى احتلالاً عسكرياً متعللاً بالأضرار التى لحقت بالمصالح الإيطالية كذريعة لهم اتخذوها لتبرير إنذارهم ثم الاحتلال المرتقب ، وطلب الوزير فى إنذاره عدم معارضة تركيا للاحتلال ، واختتمه

---

(١) د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

بطلب الرد فى غضون أربع وعشرين ساعة [١] .

ونظرة سريعة إلى الإنذار ومبرارته يلمح الباحث منها مدى استخفاف المستعمرين بعقول الشعوب المغلوبة على أمرها ، ولا يجد تفسيراً سوى أن هذه أعمال تعسفية تقوم بها القوى الاستعمارية دون أن تراعى قوانيناً دولية أو أعرافاً يمكن الرد عليها .

وفى يوم ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩١١ ظهر الأسطول الإيطالى أمام سواحل مدينة طرابلس ، وفى اليوم التالى ٢٩ منه أعلنت الحرب ، وطلب قائد الأسطول تسليم المدينة فى ظرف أربع وعشرين ساعة ، وفرض الحصار البحرى على الميناء ، وهدد بضرب المدينة بمدفعية الأسطول [٢] .

كانت القوات الإيطالية المهاجمة تتكون من ٣٤,٠٠٠ جندى من المشاة ، ومعهم ٦,٣٠٠ من الفرسان ، ومجموعة من مدافع الميدان ، وأخرى مدافع جبلية فى حين لم يتجاوز عدد القوات الموجودة فى ليبيا بما فيهم الأهالى ٥٠٠٠ رجل فى طرابلس ، و ٢٠٠ فى برقة [٣] .

وقد اعتقد الإيطاليون أن السنوسيين على خلاف مع تركيا ، ولم يتوقعوا منهم مقاومة ، حتى فوجئوا برجال السنوسيين يرفعون راية الجهاد ويتقدمون غير عابئين بما ينتظرهم من قدر محتوم ، ولم يبالوا بالموت فى سبيل عقيدتهم والزود عن بلادهم وترابهم .

وخاض المجاهدون معارك طاحنة غير متكافئة فى العدد والعُدة ، ففى برقة انتظم المدافعون فى أربعة معسكرات كان على رأس المعسكر العربى : عـزيز المصرى ومعسكر طبرق : أدهم باشا الحلبى ، وعلى معسكر درنة : مصطفى كمال

---

(١) د/ شوقي الجمل - المغرب العربي - ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٢) د/ جلال يحيي - العالم العربي - ص ٤١٠ .

(٣) Prichard Evans : op Cit . p . 108 .

(أتاتورك) - رئيس الجمهورية التركية فيما بعد - ، ومعسكر الجبل : عبد القادر الغناى ، الذين خاضوا معارك كبيرة من بينها معركة الضبط قرب درنة ومعركة القويهات قرب بنى غازى .

واضطر الإيطاليون إلى خوض معركة دامية فى طرابلس عند بيرطبراس وقرقارس ، وغيرها[١] .

ولم تهدأ المقاومة الليبية الإسلامية طوال ما تبقى من سنة ١٩١١م ، وكذلك سنة ١٩١٢ م التى اشترك فيها العدد القليل الذى كان يمثل الحامية العثمانية ، واستطاع الطرفان تكبيد الإيطاليين خسائر فادحة اضطرتهم إلى حصر أنفسهم فقط فى مجال ومدى مدفعيتهم يحتمون بها دون التوغل فى الدخل الليبى وشاركت أعداد غير قليلة من مجاهدى تونس ، ومصر رغم الحصار والتضييق الذى فرضته كل من فرنسا وانجلترا على الحدود التونسية والمصرية الأمر الذى أوقع إيطاليا فى حرج دولى بالغ لأنها أعلنت احتلالها لليبيا دون أن تتمكن من السيطرة على البلاد ، واستمرار المقاومة العنيفة والعنيدة التى كان الإيطاليون يقابلونها بعنف وشدة بالغة حيث أقاموا المجازر واستباحوا قتل الأهالى بلا هوادة[٢] .

ونظراً لظروف تركيا الحربية والسياسية ، واشتعال الحرب البلقانية اضطرت إلى عقد معاهدة أو شى لوزان مع إيطاليا فى أكتوبر سنة ١٩١٢م وافقت فيها تركيا على سحب جنودها وضباطها من ميدان القتال فى طرابلس وبرقة ، وأعلن السلطان العثمانى : محمد الخامس أنه تنازل عن حقوقه فى طرابلس وبرقة لأهلها ومنحهما استقلالاً داخليا ، فى الوقت الذى أصدر فيه ملك إيطاليا منشوراً إلى أهالى ليبيا بأن بلادهم قد باتت خاضعة للسيادة الملكية الإيطالية .

---

(١) محمود الشنيطي - قضية ليبيا - القاهرة - ١٩٥١م - ص ٤٨ .
وانظر : د/ محمد فؤاد شكري - السنوسية دين ودولة - القاهرة - ١٩٤٨م - ص ١٢٥ وما بعدها .
(٢) انظر تفاصيل المقاومة فى كتاب :
د/ جلال يحيي - العالم العربي - ص ٤١١ وما بعدها .

حينئذ خلا الميدان من الوجود التركى الرسمى ، وتحول العبء كله فى المقاومة للزعامة الشعبية الدينية الليبية وهى السنوسية .

ليبيا فى الحرب العالمية الأولى :

ورغم حصار السواحل الليبية من قبل بريطانيا مجاملة لحليفتها إيطاليا فى الحرب العالمية الأولى حتى لا تتسرب المؤن والإمدادات من مصر أو من غيرها ، إلا أن الغواصات الألمانية كانت تتمكن فى بعض الأحيان من إمداد السنوسيين بقيادة أحمد الشريف بالمؤن والذخيرة ، وبعضهم لوازمهم الآخرى .

ولكن أحمد الشريف (الزعيم السنوسى) قد تورط فى حملة استنفذت قواه وطاقات المجاهدين معه دون جدوى بعد أن أوعزت إليه كل من تركيا وألمانيا بالهجوم على مصر لشغل أكبر عدد ممكن من الجيش الإنجليزى فى مصر حتى تتمكن الدولتان من الهجوم على قناة السويس وقطع مواصلات انجلترا فى هذا الموقع الاستراتيجى الهام .

وتمكن السنوسيون فى ديسمبر سنة ١٩١٥م من الاستيلاء على السلوم ومرسى مطروح ، إلا أن فشل السنوسيين فى تدبير المؤن لهم مكن الإنجليز من تضييق الخناق عليهم واسترداد المدينتين فى فبراير ومارس سنة ١٩١٦م .

وإزاء فشل حملة أحمد الشريف (السنوسية) ثار الخلاف بينه وبين ابن عمه محمد إدريس السنوسى تنازل له الأول عن زعامة السنوسية وغادر جغبوب إلى طرابلس الغرب ، ومنها على متن غواصة ألمانية إلى الآستانة التى سافر منها إلى الحجاز حيث عاش فيه حتى وافته المنية سنة ١٩٣٣م[١] .

ورغم أن الحملة ـ المشار إليها ـ قد أساءت العلاقات بين الإنجليز والسنوسيين إلا أن إدريس السنوسى قد تمكن بفضل علاقاته الطيبة التى كان يسعى إليها مع الإنجليز

(١) د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .
وانظر : د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

قد ساهمت فى إجراء مفاوضات بين الطرفين انتهت بتوقيع اتفاق أطلق عليه (اتفاق عكرمة) نص على تحديد مناطق نفوذ لكل من السنوسيين والإيطاليين ، وإيقاف الحرب بينهما ، وحرية التنقل بين المنطقتين ، وإعادة أملاك السنوسيين لهم ، وتمخض عن هذا الاتفاق أيضاً إعادة فتح الطريق إلى مصر ، وسمح الإنجليز للسنوسيين حكم واحة الجغبوب رغم أنها كانت أراضى مصرية [١] .

وفى سنة ١٩٢٠م عقد اتفاق الرجمة بين الإيطاليين والسنوسى تم الاعتراف فيه بالأخير أميراً وحاكماً مدنياً على القسم الداخلى من برقة ، وباتت لبرقة حكومة وراثية ، فى الوقت الذى احتفظ فيه الإيطاليون بساحل برقة تحت أيديهم ، مع تصفية وجود معسكرات المجاهدين ، وألا تحتفظ بأكثر من ألف رجل حوله ، على الرغم من معارضة القيادات الوطنية ومشايخ القبائل لهذه الاتفاقية[٢] .

قيام جمهورية طرابلس :

عقد فى مدينة مسلاته مؤتمراً وطنياً فى نوفمبر سنة ١٩١٨م أعلن فيه قيام جمهورية طرابلس ، وتم اختيار أربعة قادة لرئاستها بسبب صعوبة الاتفاق على زعيم واحد وهم (سليمان البارونى ، والسويحلى ، وبلخبير ، وعبد الرحمن عزام) واضطرت إيطاليا للإذعان لنظام الحكم الجديد فى طرابلس (مؤقتاً) ، وأن تشارك فى حكم البلاد بالتعاون مع السلطة الوطنية الجديدة بعد أن أصبح لهم برلمان مشابه لبرلمان برقة [٣] .

وبعد هذه الخطوة الجريئة من أبناء طرابلس ومساعديهم المسلمين ، بادروا بخطوة أشد عندما طالبوا بوحدة طرابلس وإمارة السنوسى فى برقة ، وبالفعل

---

(١) د/ محمد فؤاد شكري - السنوسية دين ودولة - ص ٢٠٦ .
وانظر : د/ زاهية قدورة - تاريخ العرب - ص ٤٣٤ .
(٢) الزاوي - جهاد الأبطال - ص ٢٧٢ وما بعدها .
وانظر : Pritchard Evans : op . Cit . p 15
(٣) د/ شوقي الجمل - المغرب العربي - ٣٨٧ .

عرضوا الأمر على السيد محمد بن إدريس السنوسى الذى تردد وتلكأ فى الأمر لعلاقته الطيبة مع الإيطاليين ، ولكن أهل طرابلس كتبوا وثيقة البيعة بالإمارة على شطرى الأمة الليبية فى يوليو سنة ١٩٢٢م وأرسلوها للسيد إدريس الذى قبلها ووعد بتنفيذها .

إلا أن السيد إدريس ما لبث أن غادر ليبيا فى ديسمبر سنة ١٩٢٢م متعللاً بسوء حالته الصحية ، وانتقل منها إلى القاهرة حيث تبعه مجموعة من كبار الزعماء ، ويبدو أنه فضل الجهاد من على منابر القاهرة ضد الاحتلال الإيطالى خاصة بعد الإنقلاب الفاشستى فى إيطاليا بزعامة موسولينى الذى اتسم بالتعصب القومى ، والتعالى العنصرى الذى انعكس أثره السيء على مستعمرة ليبيا باستخدام العنف والشدة فيها [١] .

فقد ساءت أحوال الأهالى ، ولا سيما بعد أن أعلن الحاكم الإيطالى بونجوفانى Bonguiovani إلغاء كل المعاهدات واتفاقات الصلح التى عقدت مع السنوسيين ، مما أشعل الثورة والمقاومة الليبية فى كل البلاد ، وقد تحمل عبء القيادة فيها بعد رحيل السيد إدريس إلى مصر زعيم جديد قاد أهله فى حرب عنيفة أشبه بحرب العصابات (الضرب والكر والفر) هو الزعيم والقائد عمر المختار .

وكان المجاهد عمر المختار قد شارك فى قتال الإيطاليين منذ سنة ١٩١١ حتى تولى قيادة المقاومة وهو فى سن الستين بعد أن عاد من القاهرة التى ذهب إليها مصاحباً السيد محمد إدريس السنوسى ، وكان عليه تنظيم رجاله إلى فرق بقائد يتولى شئون رجاله ، وامتازت عملياته بالضرب السريع والضرب ليلاً حتى لقد قيل أن فى ليبيا سلطتان إحداهما : نهاراً (سلطة الإيطاليين) وثانيها : ليلا (سلطة السنوسيين) .

---

(١) محمود الشنيطي ـ قضية ليبيا ـ ص ٩٤ ، ٩٥ .
وانظر : . Pritchard : op . Cit - p . 15

واشترك فى المقاومة كل شعب ليبيا بطريقة مباشرة وغير مباشرة حتى أصبح لعمر المختار رجال وعيون فى كل موقع إيطالى ، كما ساعده ما كان يرسله السيد / إدريس من مصر لمعاونة المختار من مؤن وأسلحة وعتاد ساعدته على الاستمرار ، إلا أن الإيطاليون قابلوا هذه المقاومة بالبطش وسفك الدماء وإغلاق زوايا السنوسية وإقامة حاجز من الأسلاك الشائكة المكهربة على الحدود الليبية المصرية حتى لا تتسرب الأسلحة من مصر .

وإزاء هذه الإجراءات العنيفة ضعفت المقاومة بعد أن نضبت الإمدادات والمساعدات الخارجية ، وسقطت الكفرة فى يناير سنة ١٩٣١م فى أيدى الإيطاليين ومع ذلك استمر عمر المختار فى المقاومة حتى وقع أسيراً فى أيدى الجنود الإيطاليين فى ١١ سبتمبر سنة١٩٣١م وأودع السجن حتى انعقدت المحكمة الطائرة التى كان أعضاؤها ينتقلون بالطائرة لسرعة الحكم على المتهمين بالثورة .

وفى الخامس عشر من الشهر نفسه حكم على الزعيم الوطنى عمر المختار بالإعدام رغم شيخوخته ، وجرحه الذى كان مازال ينزف فأعدم فى صباح اليوم التالى ١٦ من سبتمبر سنة ١٩٣١م .

وبذلك انهارت المقاومة الليبية ، ولم يبق لها سوى الكتابة فى الصحف المصرية والدعوة إلى استقلال ليبيا حتى قام الحرب العالمية الثانية ودخول إيطاليا الحرب ضد الحلفاء الذين تمكنوا من طردها نهائيا من ليبيا فى فبراير سنة ١٩٤٣ ، وظهرت فى البلاد ثلاث إدارات : هى برقة ، وطرابلس ، وفزان سيطرت انجلترا على الأولين بينما سيطرت فرنسا على الأخيرة ، وحينئذ نشطت الحركة السياسية تطالب بالاستقلال ، ووحدة البلاد فى إدارة واحدة وطنية .

وبالفعل نجحت القوى الوطنية فى انتزاع استقلال البلاد عندما صدر الأمر الملكى البريطانى بإلغاء السلطة البريطانية فى طرابلس وبرقة ، وأمر آخر صدر بإلغاء سلطات فرنسا فى فزان .

وفى ٢٤ من ديسمبر سنة ١٩٥١م أعلن الملك / محمد بن إدريس السنوسى أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة(١) .

وفى سنة ١٩٥٣ انضمت ليبيا إلى جامعة الدول العربية ، واستمرت الملكية فيها تحت زعامة محمد إدريس السنوسى حتى تمكن الجيش الليبى من الاستيلاء على السلطة فى البلاد فى سبتمبر سنة ١٩٦٩م عندما كان الملك محمد إدريس البالغ من العمر ٧٩ عاماً فى رحلة علاجية بالخارج ، وتولى الحكم فى البلاد زعيم الثورة (ثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ م) العقيد معمر القذافى .

• • •

(١) د/ شوقي الجمل - المغرب العربي - ص ٣٨٨ وما بعدها .
وانظر : محمد فؤاد شكري - السنوسية دين ودولة - ص ٢٩٣ وما بعدها .
و : نقولا زيادة - ليبيا في العصور الحديثة - ص ١١٠ ، ١١٢ .



الفصل الحادى عشر

تونس

تونس

تونس هى البلدالثاني في المغرب العربي من جهة المشرق ، وأصغر أقطار المغرب مساحة ، وهي واسعة السهول ، وبها مدن هامة عديدة من بينها :

عاصمة البلاد (تونس) ، وصفاقس (عاصمة الجنوب) ومن مدنها سوسة التي تمتاز بآثارها ومساجدها الكبيرة ، وبنزرت الذي كان ميناءاً حربياً شهيراً ، والقيروان كمركز دينى ومبانيها الإسلامية (أول مدينة بناها المسلمون في منطقة تونس) ، وقابس وهي مدينة ساحلية علي شاطيء البحر وتقع كذلك علي نهر قابس ونابل المدينة الشهيرة بخصوبة تربتها[١] .

وقد سهل موقع تونس علي البحر المتوسط وسهولة العبور إليها وصول الغزاة ، التجار وغيرهم حيث غزاها الفينيقيون ، والبيزنطيون ، والعرب والأتراك والأوربيون فالتقت فيها مدنيات عديدة ازدهرت علي ضفاف البحر الأبيض المتوسط وسكانها الأصليون من البربر الذي تفاعلوا مع الحضارات الوافدة ، وشاركوا في مسيرة الحضارة البشرية .

وفي العصر الإسلامي تعددت الدول التي حكمت تونس من أغالبة زمن العباسيين من ٨٠٠ إلي ٩٠٩م ، ودولة الفاطميين من سنة ٩١٠م ، والعهد الصنهاجي من (٩٧٢ ـ ١١٧١) م ، وبعده دولة المرابطين ثم دولة الموحدين من (١٠٥١ ـ ١٢٢٨) م ، وتبعهم الحفصيون من (١٢٢٨ ـ ٥٧٤) م الذين هم فرع من الحفصيين الذين ظلوا في حكم البلاد حتي النصف الثاني من القرن السادس عشر عندما استولي عليها العثمانيون سنة ١٥٧٣م[٢] .

---

(١) د/ محمد عبد الغني سعودي ـ الوطن العربي ـ ٤٧٠ .

(٢) د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

امتداد النفوذ العثماني إلي تونس :

وكان الضعف قد سري في أوصال الأسرة الحفصية في منتصف القرن الخامس عشر مما جعلها تفتح ذراعيها للأسبان الذين حصلوا علي معاهدة أعطتهم امتيازات واسعة أباحت لهم سكن بلدان القطر التونسي ، ليس هذا فحسب بل تنازل الحفصيون للأسبان عن مدن : عنابة ، وبترت ، وحلق الوادي .

ونظراً لهذه الحالة المعيبة فإن الأوضاع لم تستقر في تونس ، ونشب خلاف بين الأمير الحفصي أبي العباس ، ووزيره أبي الطيب الخضار ، الذي بادر بالاتصال بوالي الجزائر (علج علي) ، وحرضه علي احتلال تونس ، وبالفعل لم يتوان العلج وتقدم علي رأس جيش كبير مكنه من الإستيلاء علي تونس سنة ٩٧٢ هـ/ ١٥٦٩م وأقام عليها أحد قواده حاكماً ، ثم أخذ البيعة للسلطان سليم الثاني العثماني ، في الوقت الذي فر فيه الحفصي إلي الأسبان يستنجد بهم ، وبالفعل وافق الملك فيليب الثاني علي إرسال قوة كبيرة علي أن يقتسم البلاد التونسية مع الحفصيين وتمكن الطرفان بالفعل من السيطرة علي تونس .

وفي سنة ١٥٧٣م تمكنت قوة عثمانية كبيرة بقيادة سنان باشا من الهجوم علي تونس وطرد الأسبان منها ، كما تم طرد الموالين لهم إلي أطراف البلاد ، وكان العلج علي الذي تولي قيادة الأسطول العثماني قد اشترك في هذا الهجوم ، وأخذ في تقوية البلاد التونسية بتحصينات وأسلحة للحفاظ عليها من أخطار الأسبان بخاصة والأوروبيين بعامة ، وفي النهاية تمكن سنان باشا ، وعلج علي من تضييق الخناق علي الأسبان ومن والوهم حتي اضطرت الحاميات الأسبانية إلي الإستسلام للجيش العثماني وتم القبض علي الأمير الحفص الذي أرسل إلي اسلامبول[1] ، وبذلك انتقلت دولة الحفصيين من علي مسرح التاريخ إلي كتبه بعد أن قضت في حكم البلاد

---

(١) أحمد الأنصاري - المنهل العذب - ص ٢٢٩ .
وانظر : د/ شوقي الجمل - المغرب العربي - ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

أكثر من ثلاثمائة وخمسين عاماً .

حكم الدايات والبايات في تونس :

بعد أن تمكن سنان باشا من فتح تونس ، والقضاء علي الاستعمار الأسباني ومن ساروا في فلكه من الحفصيين حينئذ أخذ سنان باشا ينظم شؤون تونس فألحقها بولاية الجزائر في أول الأمر ، وأوجد ديواناً اشترك فيه أعيان البلاد ، ومن الناحية العسكرية ترك لحماية البلاد التونسية أربعة آلاف جندي من جنود الإنكشارية ، وعلي رأس كل مائة جندي منهم ضابط أطلق عليه لفظ الداي أى السيد باللغتين الطورانية والفارسية ، والخال باللغة التركية ، وعليهم رئيس هو الأغا ، وفي مجال جباية الأموال عهد إلي مأمور خاص بها لقب بالباي .

وبعد أن أتم سنان باشا تنظيم البلاد والوظائف عاد إلي الإستانة ، إلا أن صغار الجند قد ثاروا علي رؤساء الديوان بعد مرور أقل من عشرين عاماً أى في سنة ٩٩٩هـ ١٥٩١م ، وعصفوا بتبيعة تونس لوالي الجزائر ، ثم استقر الرأى علي تعيين أحد الدايات وهو : إبراهيم ودعلي والياً علي البلاد ، وبعد تلكؤ اضطرت الحكومة العثمانية إلي إقرار هذا الوضع رغماً عنها ، وظل تتابع الدايات في حكم تونس من سنة ١٥٩١م إلي ١٦٤٠ م[١] حيث تولي عدد كبير منهم طوال هذه الفترة كان من أشهرهم :

عثمان داي (١٥٩٨ ـ ١٦١٠) الذي بذل جهداً محموداً في تعمير البلاد وأصدر قوانيناً منظمة لراحة الأهالي ، كما شارك بسهم وافر في توفير حياة آمنة لمهاجري الأندلس الذين فروا بدينهم (بعد فتك الأوروبيين بأعداد كبيرة منهم) فأقطعهم الأراضي ، ووهبهم الأموال ، مما وفر لهم حياة كريمة ، وقامت عدة مدن جديدة جمعتهم وشاركوا بجهودهم في تعميرها .

---

(١) محمود شيت خطاب ـ المغرب العربي ـ جـ ٢ ـ دار الفكر ـ ط ٢ ـ بيروت ـ ١٩٧٣م . ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

كما كان من بين الدايات الذين سجلوا صفحات طيبة في التاريخ يوسف داي الذي كان من آثاره المدرسة اليوسفية ، والجامع اليوسفي ، وشهد عهده نزاع علي الحدود بين الجزائر وتونس ، وتمكنت تونس في عهده أيضاً من إعادة جزيرة جربة من ولاية طرابلس العثمانية[١] .

وبعد سنة ١٦٤٠م ظهرت سلطة أخري سيطرت علي الحكم عندما نجح أحد البابات وهو مراد باي في السيطرة علي شؤون الحكم في تونس ، وتمكن من الحصول علي لقب باشا من الدولة العثمانية ، فتحول الحكم والنفوذ من الدايات إلي البايات ليس هذا فحسب بل نجح مراد كذلك في توريث الحكم من بعده لأبنائه فأسس بذلك أسرة حاكمة هي الأسرة المرادية تولت من سنة ١٦٤٠م إلي سنة ١٧٠٢م .

ورغم الخلافات والنزاعات الأسرية التي نشبت بينهم ، إلا أنهم تركوا أعمالاً جيدة كان من بينها بناء المساجد والمدارس ، وغير ذلك من الأعمال الخيرية .

وفي سنة ١٧٠٥م انتقلت الزعامة ، وحكم الولاية إلي أسرة أخري هي أسرة الحسينية التي أسسها حسين بن علي وهي التي استمرت في الحكم حتي سنة ١٩٥٧ عندما حصلت تونس علي استقلالها وأعلن فيها قيام الحكم الجمهوري .

ويعد أصل المؤسس (حسين بن علي) إلي جزيرة كريت حيث جاء أبوه كجندي ونشأ ابنه حسين في كنف بني مراد (البايات) ، وارتقي في المناصب حتي تقلد أمر الولاية فعمل علي تحصينها وتقوية سورها ، واعتني بأمر الزراعة والصناعة والتجارة فازدهرت في عهده ، وأنشأ مدرستي الحسينية والنخلة ، كما بني قصراً في بارد وجعله مقراً رسمياً لحكومته ، وبني مسجداً ، وعمل علي إعادة تعمير مدينة القيروان بعد ما تم تخريبها في حروب ومنازعات الأسرة المرادية إبان فترة حكمهم للبلاد .

ومن ناحية أخري فقد عمد حسين باي إلي حصر الوراثة في بيته يتداولها الأكبر

(١) د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٠٩ .

فالأكبر من ذريته ، ومع ذلك فقد ثار عليه ابن أخيه ، وانتهي الأمر بمقتل حسين في جنوب القيروان سنة ١٧٤٠م وتولي علي بن محمد الحكم خلفاً لعمه ، مما أشعل لهيب الحروب بين أفراد الحسينيين ، وتدخل الجزائر في شئون تونس [١] .

ومن أبرز حكام البايات في تونس الذي أثرنا أن نفرد له هذه العجالة هو :

المشير أحمد باي (١٨٣٧ ـ ١٨٥٥) :

فقد حفل عهد هذا الرجل بالكثير من الجوانب الإصلاحية ، إلا أنه قد ركز اهتمامه الأكبر بالجيش والنهوض به وبجنوده حيث عمل علي تدريبهم حتي باتت عنده قوة لا يستهان بها ، فأصبح لتونس جيشاً يزيد علي ثلاثين ألفاً من الجنود المشاة ، وفرقة من الخيالة ، كما اكتملت لديه أربعة آلايات من المدفعية ودعم أسطوله بعد أن اشتري اثني عشر باخرة حربية وبارجة كبيرة سماها الحسينية وجهز مرسي حربياً جعل به داراً لصناعة السفن ، ومصانع لتجهيز وإصلاح الأسلحة المختلفة ، وفي المجال نفسه أنشأ أحمد باي مدرسة عسكرية لتخريج الضباط والموظفين ، والمهندسين ، وأطلق عليها أسماء عدة (مكتب المهندسين) أو (مكتب العلوم الحربية) أو (مدرسة باردو العسكرية) ، واستطاع أن يأتي لها بمدرسين إيطاليين ، وإنجليز ، وفرنسيين حيث تم تدريس الرياضيات ، والتعبئة الحربية ، إضافة إلي الجغرافيا والتاريخ .

كما اهتم أحمد باي بالتعليم خاصة التعليم الديني بجامع الزيتونة ، وملأ خزانته بأمهات الكتب ، وأسس مكتبة الأحمدية سنة ١٨٤٠م ، ومما يذكر له أيضاً إغلاق سوق الرقيق في العاصمة ، وإصداره أمراً سنة ١٨٤٦م بعتق جميع الرقيق في تونس ، وإخلاء سبيلهم أحراراً ، ومع ذلك فقد أدت نفقات هذه الإصلاحات الباهظة إلي ظهور مشكلات مالية وتدهور اقتصادي تونس فاضطر إلي فرض

---

(١) أحمد بن أبي الضياف ـ إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ح ٤ ـ تونس ـ ١٩٦٤ ـ ٢٥ .

وانظر : د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ١٠٩ .

الضـرائب التي أثقلت من كـاهل الأهـالي ، وزاد من المشكلات اشـتـراك تونس في حرب القرم بجانب العثمانيين ضد روسيا سنة ١٨٥٤ م[١] .

ورغم محاولات الإصلاح التي تلت هذه الفترة إلا أن التدهور قد استمر طوال سنوات منتصف القرن التاسع عشر والسنوات التالية حتي وصل التدهور أقصاه .

أضف إلي ذلك أن الأجانب قد فتحت لهم أبواب ملكية العقارات ، وممارسة الحـرف فتـدفق المهـاجـرين ، وأصـحـاب المصارف والمتاجـر والمغـامـرون من الدول المختلفة ، كما كان بذخ الشخصيات والموظفين الكبار الذين يحصلون علي مرتبات وعوائد كبيرة أمثال الوزير / مصطفي خزنة دار ، وحصولهم علي الثروة من شتي الطرق أثر في زيادة حدة المشكلة الاقتصادية[٢] .

وقد ظهـر مصلحون أمـثال الوزير خيـر الدين الذي حـاول وأخلص في مـجال الإصلاح ولكنه قد لقي جزاء سنمار في سنة ١٨٧٧ م عندما عزل ولفقت له التهم ، وبعده زادت وفتحت السبل أمام الأطماع الأجنبية في الوقت الذي كانت فيه فرنسا وإيطاليا يتربصان بتونس لاختيار اللحظة المناسبة للانقضاض عليها ولا سيما أن فرنسا تحكم الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ م فأرادت أن تكمل استيلائها علي المنطقة[٣] .

---

(١) محمد بيرم التونسي - صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ح ٢ - القاهرة - ١٨٩٠ - ص ٦ وما بعدها .

وانظر : أحمد بن أبي الضياف - إتحاف أهل الزمان - ح ٤ - ص ١٤٦ وما بعدها .

و : د/ شوقي الجمل - المغرب العربي - ص ١١٢ .

وانظر : . wight , ILing : Tunisia from protectorate to Republic indiana - 1 967 0 p 18 - 19

(٢) Safwat m. M. : op . Cit . P 27 - 51

- وانظر : محمد بيرم التونسي - صفوة الاعتبار - جـ ٢ - ص ٢٣ .

- و : . Dwight L . Ling : Tunisia . op . Cit . p 19

(٣) محمد بيرم التونسي - صفوة الاعتبار - ح ٢ - ص ٨٣ .

الأطماع الإستعمارية واحتلال فرنسا لتونس :

كان التدهور والتخبط في السياسة التونسية منذ منتصف القرن التاسع عشر ولا سيما في معاملة القطاعات الأجنبية أثر في اتجاه البلاد نحو الوقوع في قبضة المستعمرين .

ففي سنة ١٨٥٧ صدر نظام عُرف بـ : قانون عهد الأمان ، وكان يشتمل علي أحد عشر قانوناً أساسياً وينص علي المساواة بين من يقطنون البلاد من كل الجنسيات والمذاهب في الحقوق والواجبات وبذلك منح الأجانب فرصاً واسعة للاستثمار ، ولكن ازدادت الضغوط الأوروبية وتدخلها في السياسة والشؤون الداخلية لتونس ، ويشير البعض إلي أن ظهور هذا القانون كان بضغط ورغبة القنصلية الفرنسي والإنجليزي ليون روش Leon Rothes ، وريتشارد وود Richard wood .

كما كان لمشروع توصيل مياه زغوان في قنوات حديدية للعاصمة تونس ، واضطرار الباي إلي اقتراض مليون فرنك لتنفيذه أثره السيء علي الاقتصاد الفرنسي إضافة إلي استنفاذ الأجانب للثروة التونسية واستنزاف الأموال بشتي السبل الذي ساعد علي تدهور الاقتصاد في تونس[1] .

وعلي أثر ذلك قامت ثورة شعبية بزعامة علي بن غذاهم تحولت سريعاً إلي ثورة مسلحة ، عندما عمد الثوار إلي الإختفاء في القري والمدن لشراء الأسلحة والتدريب عليها ولكن الحكومة قابلت الثورة بالشدة والعنف ، وقبضت علي زعيمها فأودعته السجن حتي وافته المنية سنة ١٨٦٧م .

وكانت فرنسا تشعل الثورة من جهة لإضعاف السلطة مما يساعد علي تدخلها وتحقيق أطماعها ، بينما كانت تضغط لإبعاد المعارضين لمصالحها ولسياستها في المنطقة من جهة أخري ، أما إيطاليا فكانت هي الأخري تعمل علي مد نفوذها ،

---

(١) محمد بيرم التونسي - صفوة الاعتبار ح ٥ - ص ١٥ .
وانظر : . Safwot M. Tunis and The Powers - p . 50

وأصبح لها جالية كبيرة في تونس تتذرع بوجودهم لحمايتهم وحماية المصالح الإيطالية ، ولهم العديد من المدارس والمؤسسات ، والأقرب جغرافيا فالساحلين في مواجهة كل منهما الآخر الإيطالي التونسي ، كما كانت اللغة الإيطالية هي اللغة الأولي الأجنبية في البلاد (١) .

وامتداداً للنكبات التي حلت بتونس في هذه الفترة السابقة علي الاحتلال فقد أصيبت البلاد بمرض الكوليرا الذي أودي بحياة الكثيرين من السكان ، وبعده انتشر مرض التيفوس فانتشرت المجاعات وحل القحط بالبلاد .

وفي سنة ١٨٧٤ عاد خير الدين إلي الوزارة ولكنه في هذه المرة رئيساً للوزارة بعد سقوط مصطفي خزنة دار الذي كان عقبة كأداء في سبيل الإصلاح ، وحاول خير الدين إنقاذ ما يمكن انقاذه إلا أن الفترة القصيرة التي تولاها حتي سنة ١٨٧٧ م لم تكن كافية لكم المشكلات التي كانت تعاني منها تونس حينئذ ، وتربص المستعمرين بها (٢) .

أما موقف الدولة العثمانية فقد عمدت إلي إطلاق يد الباي في التصرف بالبلاد وفوضته تفويضاً كاملاً بشرط الحفاظ علي حقوق الباب العالي ، وهي حقوق السيادة (الإسمية) ، ومعاونة الدولة وقت الحرب ، ورفع العلم العثماني . . . الخ (٣) .

أما انجلترا فكانت سياستها المحافظة علي الحالة كما هي تجاه السيادة العثمانية ،

---

(١) عارضت انجلترا وفرنسا وتركيا المساعي الإيطالية كما كان موقف البابا غير مشجع للمضي قدماً في مشروعها التوسعي بتونس .

ـ انظر : - Safwat . M Tunis and The Powers

(٢) محمد بيرم التونسي ـ صفوة الاعتبار ـ ح ٢ ص ٣٥ وما بعدها

وانظر : أحمد أمين ـ زعماء الإصلاح في العصر الحديث ـ القاهرة ـ ١٩٤٨م ـ ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٣٠٠ .

وكان المنفذ لسياستها القنصل البريطاني ريتشارد وود [١] .

إلا أن سيطرة فرنسا علي الساحة التونسية بطرق عديدة كان أقوي فقد تمكن قنصلها روستان Roustan هناك من الحصول علي امتياز مد الخط الحديدي من تونس إلي الحدود الجزائرية سنة ١٨٧٤ م ، وكانت أهميته غير قاصرة علي الجانب الإقتصادي بل تعدتها إلي الجوانب العسكرية لنقل الجنود والمؤن إلي تونس العاصمة وربط مستعمرة الفرنسيين في الجزائر بالمستعمرة المرتقبة (في تونس) ، فبلغ بذلك النفوذ الفرنسي مداه في ١٨٧٨م بسبب هذه الخطوط الحديدية من جهة ، ومن جهة أخري كانت الديون التونسية نسبة كبيرة منها لفرنسا ، وتتحكم في مالية تونس عن طريق نائب رئيس اللجنة المالية فيها [٢] .

الإحتلال الفرنسي لتونس :

تذرعت فرنسا بهجوم مجموعة من أفراد قبيلة الكرومير (الكرمين) علي الحدود الجزائرية وسرقة بعض المواشي فملؤا الصحف بأخبار ملفقة وأخري صحيحة وكان هؤلاء يسكنون الركن الشمالي الغربي من تونس ، وأظهر الفرنسيون في صحفهم وأحاديثهم عجز الباي عن فرض السيطرة علي هذه القبائل ، وأرادوا من ذلك توضيح (كاذب) للرأى العام الفرنسي وغيره أن فرنسا بتدخلها في تونس إنما تحمي مستعمرتها الجزائرية ، علي الرغم من أن هذه الحوادث عادية ، وتحدث باستمرار علي الحدود من سنوات طويلة .

إضافة إلي مصالحهم في تونس فقد عددوها كما يلي : ــ

١ ــ وجود ٣٠٠كم من الحدود المشتركة بين تونس والجزائر الفرنسية .

٢ ــ وجود مائة مليون فرنك فرنسا من بين ١٢٠ مليون أصل الديون التونسية للغرب .

---

(١) د/ صلاح العقاد ــ المغرب العربي ــ الأنجلوا المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٨٥م ــ ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) Safwat : M. Tunis op . Cit - p . 101 .

٣ ـ أن امتياز ٢٠٠ كم من الخطوط الحديدية تخص فرنسا .

٤ ـ أن فرنسا تستغل مصايد الأصداف علي الشواطىء التونسية منذ مائتى عام .

٥ ـ لفرنسا امتياز جميع مشروعات البرق والبريد .

٦ ـ أن فرنسا هي التي قامت ببناء ميناء تونس الجديد .

٧ ـ فرنسا أكبر عميل في تجارة تونس الخارجية .

٨ ـ تمتلك فرنسا عقارات قيمتها ٥٠ مليون فرنك[١] .

وفي أوائل إبريل سنة ١٨٨١ اعتمد مجلس النواب الفرنسي الأموال اللازمة للحملة ، وتجرأ روستان القنصل الفرنسب بإبلاغ الباي التونسي بأن فرنسا قررت التدخل لتأديب القبائل ، وأنه يجب علي القوات التونسية التعاون مع الفرنسية .

وفي ٢٤ من إبريل عبرت القوات الفرنسية الحدود التونسية (من الجزائر) في اتجاهين :

الأول : في اتجاه تونس وهدفها الكرميين ، واتجه الفريق الثاني إلي إقليم الكاف وفي غضون أيام قليلة كانت القوات الفرنسية قد وصلت إلي مدينة تونس في ١١ من مايو وأمام قصر بارد والذي يقيم به الباي فقد وقفت القوات مهددة ومنذرة حتي ألزمت الباي بالتوقيع علي معاهدة الحماية فوقعها في ١٢ من مايو سنة ١٨٨١ م[٢] .

وأخذ الفرنسيون منذ وطأت أقدامهم أرض تونس في فرض حكمهم المباشر ، وتوطيد دعائمه هناك رغم أنهم لم يقوموا بإلغاء حكم البايات فأبقوا عليه صورياً كواجهة وطنية يحصلون علي توقيعه بالأمر المباشر وقتما يريدون ، ومثل الحكم الفرنسي في تونس مقيم عام كحاكم عام فعلي للبلاد تتركز في يديه السلطات التنفيذية ، وبدأت الإدارة الفرنسية تتغلغل في المصالح والجهات التونسية الحكومية

---

(١) د/ صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢) د/ صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ١٨٦ وما بعدها .

وتطور نظام الحكم سنة ١٩٢٢م عندما تم استحداث وزارات جديدة شكلت جميعها مجلس الوزراء التونسي الذي تولي الفرنسيون أمره .

كما حدث تطور وتغيير آخر في نظام البلديات ، والنظام القضائى حيث عني الفرنسيون باحتكار الوظائف والإدارات الرئيسية لصالح الفرنسيين [١] .

وقد أثارت إجراءات الحماية وأحداثها ، وما أعقبها من احتكار للمصالح وتسيير دفة الحياة اليومية في تونس لصالح فرنسا والسياسة التي أرادت انتهاجها كل ذلك أثار الأهالي ، ولكنها ليست كثورات الأمم العربية الأخري التي تعرضنا لها فقد كان الحال هادئاً لو قارناه بتلك الأمم حتي الحرب العالمية الأولي .

الحرب العالمية الأولي و آثارها في تونس :

استمر هدوء الأهالي وعدم ثورتهم تجاه الفرنسيين حتي في الحرب الأولي بل إنهم شاركوا بجانب الفرنسيين في الحرب بأعداد كبيرة أملاً في مكافأتهم بالاستقلال بعد الحرب ، وخاصة أن الأجواء العالمية حينئذ كانت تبشر الشعوب المستعمرة بنيل الاستقلال لوجود مباديء ويلسون تتناقلها الصحف والأحاديث ، وحركات التحرر في مصر والمشرق ، والمقاومة الليبية علي الحدود مع تونس ، ومع مصر . . الخ .

وفي سنة ١٩٢٠ م نشأ حزب الدستور في تونس بزعامة الشيخ عبد العزيز الثعالبي كحزب قومي ، ، ومعظم قادته من جماعة الزيتونة الملتزمين الأكثر وطنية الذين اتهمهم المتعلمون في فرنسا (المتفرنسون) بالرجعية والتخلف لأنهم تناولوا التعليم الديني في جامع وجامعة الزيتونة الإسلامية .

واتجه غالبية الشعب التونسي للالتفاف حول هؤلاء الوطنيين الذين كان أغلبهم من بين علماء الدين والقضاة والتجار البارزين ، وقادة أصحاب المهن ، وهم علي كل حال يختلفون عن أعضاء الأحزاب الأخري (الشيوعية والاشتراكية ، والعمالية والفاشية) ، وبدأ أعضاء هذا الحزب يتقدمون بطلباتهم التي كانت عادية تتلخص

(١) Dwight L . Ling : Tunisia From Protectorate to Republic . p.79-80

في : مجلس تشريعي وحكومة مسؤولة أمامه وتولي التونسيين الوظائف ، والمساواة في الرواتب مع الفرنسيين ، ومجلس بلدية ، وحرية الصحافة ، ورغم ذلك فقد رفضتها السلطات الفرنسية ، بل زادت في إشعال المواجهة عندما قبضت علي الثعالبي زعيم حزب الدستور القديم في باريس وسجنته عدة أشهر في تونس (١) .

وكانت هناك تيارات أخري تدعو من ناحية ثانية للحقوق الوطنية التونسية بعضها ماركسي ، وشيوعي ، والبعض الآخر يبحث عن حقوق العمال والأعمال كل هذه التيارات والعوامل الأخري أدت إلي إضعاف حزب الدستور القديم ، ولا سيما بعد أن هاجر زعيمه الثعالبي ، وتم حل الحزب نهائياً سنة ١٩٤٤م ، ففسح المجال لقيام حزب الدستور الجديد ، الذي كان من بين أعضائه البارزين الحبيب بورقيبة (رئيس البلاد فيما بعد) .

برزت شخصية بورقيبة من كتاباته الصحفية في جريدة العمل التي كانت تظهر رغبته في بناء البلاد التونسية علي أسس اجتماعية ، وسياسية حديثة ، كما كان مشبعاً بفكرة الديمقراطية التي راجت في الغرب حينئذ ، وشارك في تنظيم الإضرابات التي عمت تونس في سنة ١٩٣٨م ، وكانت فرصة للفرنسيين للقبض علي شباب الحزب وبالفعل قبضوا علي ثلاثة آلاف من أعضائه من بينهم بورقيبة (٢) .

الحرب العالمية الثانية :

وفي الحرب العالمية الثانية تعرض الباي محمد (حاكم تونس) إلي مساومات من الفريقين المتحاربين ، فقد عرضت عليه السلطات الألمانية إسقاط الحماية الفرنسية عن تونس نظير التعاون معهم ، وفي الوقت نفسه عرض روزفلت انضمام تونس للحلفاء ، ولكن الباي رفض العرضين ، واختار حكومة وطنية دون استشارة

---

(١) Dwight L Ling : tunis op . cit . p.115.
وانظر : حسان حقي - تونس العربية - بيروت - ١٥٤ .
(٢) د/ صلاح العقاد - المغرب العربي - ص ٣٣٠ وما بعدها .

الفرنسيين (كما جرت العادة) وغلب في حكومته جانب الدستوريين القدامي الذين كانوا يميلون إلي المحور للتخلص من الحماية الفرنسية مثل كل الأحزاب اليمينية في العالم العربي .

ولذلك فقد حاولت فرنسا القضاء علي كل النزاعات الاستقلالية وكل من يدعو لها في تونس وأمام رفض الباي التوقيع علي التنازل عن العرش تم نفيه إلي منطقة منعزلة فقام الثعالبي وزملاؤه يطالبون بعودة الحاكم الشرعي للبلاد وهو الباي .

في الوقت الذي أحدث فيه قيام مجلس الجامعة العربية أثراً تحررياً في نفوس أهل المغرب بشكل عام ، ودفع ذلك بورقيبة للقيام بمغامرة للفرار من تونس إلي مصر متخفياً عبر الحدود الليبية بقارب صغير ، ثم أكمل رحلته علي ظهور الجمال حتي الحدود المصرية ، وكان هدفه من هذا الانتقال ، الاستعانة بالدول العربية المستقلة في المشرق لتحرير تونس ، ومن القاهرة انتقل إلي دول عديدة من بينها الولايات المتحدة واتصل بفرنسا في محاولة طلب الاستقلال لبلاده[1] .

استقلال تونس عن فرنسا سنة ١٩٥٦م :

وبعد أن مارست هيئة الأمم المتحدة نشاطها حاولت تونس عرض قضيتها عليها سنة ١٩٥١م ولكنها لم تنجح في إدراج القضية إلا في سنة ١٩٥٢م دون أن يحدث ذلك نتيجة إيجابية فثار هياج الأهالي الذي اضطر فرنسا إلي إصدار وعد صريح للباي التونسي بالاستقلال ، عرف هذا الوعد بتصريح قرطاجة أصدره رئيس الحكومة الفرنسية الاشتراكية منديس فرانسي[2] .

وفي يونيو سنة ١٩٥٥م عرضت الحكومة الفرنسية علي تونس الاستقلال مع بعض الشروط ، إلا أن الشعب التونسي رفضها ، وواجهوا هذه الشروط

---

(١) د/ صلاح العقاد - المغرب العربي - ص ٣٤١ وما بعدها .

(٢) Dwight L . Ling LTunisia op . p168

بالاضطرابات التي اضطرت فرنسا إلي الإعتراف بالاستقلال الكامل لتونس في ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦ مع الاحتفاظ بقاعدة بنزرت البحرية ، هذه القاعدة التي استمرت تتبع فرنسا حتي حاصرتها القوات التونسية في ٢٠ من يوليو سنة ١٩٦١ ، وتمكنت القوات الفرنسية من رفع الحصار ، الأمر الذي اضطر تونس لرفع الأمر إلي الأمم المتحدة بعدها توصل الطرفان الفرنسي والتونسي الي إتفاق غادرت بعده القوات الفرنسية القاعدة البحرية في أكتوبر سنة ١٩٦٣م .

وقد تبع حصول تونس علي استقلالها سنة ١٩٥٦ م أن ألغت الملكية وإعلان قيام الجمهورية في ١٥ من يوليو سنة ١٩٥٧م[١] .

• • •

(١) د/ زاهية قدورة - تاريخ العرب الحديث - ص ٤٨١ .


الفصل الثانى عشر
الجزائر

الجـزائـر

الجزائر كـان يُطلق عليـهـا فى القـرون الوسطى اسم : المغـرب الأوسط ، ويرجع ظهور اسم الجزائر للمرة الأولى إلى أوئل القرن العاشر الميلادى عندما استقرت قبيلة من البربر عند قرية إيكوسيم ، وبالقرب منها تقع عدة جزر فى مواجهتها ، وهذه الجزر أقام عليها أحد الأمراء مرفأ كبيراً عرف باسم الجزائر إلا أن الاسم قد امتد إطلاقه ليشمل البلاد كلها فى العصر التركى ، ولا سيما عندما اتخذت السلطات التركية مدينة الجزائر مقراً وعاصمة للإقليم [1] .

وبالجـزائر مجموعة من المدن العتيقة ، والحديثة فتعد العاصمة هى ميناؤها الأول ، بينما توجد مدينة تلمسان التى كانت عاصمة للإقليم فى العصور الإسلامية الأولى ، ومدينة وهران التى تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، واشتهرت المدينة بالعلم والتجارة ، وعلى البحر توجد أيضاً مدينة مستغانم ، ومدينة المدية من المدن المشهورة ، وكذلك بجاية التى بناها الناصر بن علناس بن حماد سنة ٨٤١ م وأطلق عليها اسم الناصرية حيث بنى بها قصراً من أعجب قصور الدنيا هو قصر اللؤلؤة ، وهناك بالجزائر مدن عديدة أخرى مثل : قسنطينة ، وشرشال ، ومليانة ، وتاهرت ، ومعسكر ، وبونة ، وبسكرة ، وغيرها [2] .

وسكان الجـزائر هم جماعة من البربر وقعوا تحت سيطرة القرطاجنيين من سنة ٨٨ ـ ١٤٦ ق . م ثم الرومان من ١٤٦ ق . م إلى ٤٣١ م فالدولة الفاندلية من ٤٣١ م ـ ٥٣٤ م فالدولة البيزنطية من ٥٣٤ م ـ ٦٤٧ م ، وبعدها بزغ عليها نور الإسلام وضمها العرب المسلمون إلى دولتهم .

---

(١) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام ـ جـ ١ بيروت ـ ١٩٦٥ ـ صـ ٣٥ .

(٢) محمد بن عبد القادر الجزائرلي ـ تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ـ بيروت ـ ١٩٦٤ م ـ صـ ١٩ .

وتتابع على حكم الجزائر مجموعة من الأسر هى : الحماديون ، والموحدون ، وبنى مرين ، وبنو زيان إلى أن جاء الاجتياح والالتفاف الأوربى حول العالم الإسلامى ابتداءاً من المغرب العربى فالهند ، فالخليج .

امتداد النفوذ العثمانى للجزائر :

كان لسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس سنة ١٤٩٢ هـ وفرار من تمكن من مسلمى الأندلس إلى شمال أفريقيا أحد أسباب تعقب البرتغاليين والأسبان الذين كانوا قد بدأوا عملية الالتفاف بكشوفهم الجغرافية حيث وصل البرتغاليون إلى المناطق التى كانت تصل إليها قوافل التبر الآتية من السودان الغربى وسموا هذه المنطقة نهر الذهب (ريودى أورو Rie De ora) ، ثم وصلوا إلى الرأس الأخضر ، وأنشأوا الحصون والقلاع على عدة مناطق من الساحل ، وتبعاً لوصية الملكة إيزابيلا بغزو بلاد المغرب وتحويل المغاربة إلى الدين النصرانى ، وإبدال الهلال بالصليب [1] ، قام الأسبان بالهجوم على ميناء المرسى الكبير الذى يقع فى غرب الجزائر ، واستولوا عليه سنة ١٥٠٥ م ، واتسعت الأعمال الأسبانية ابتداءاً من سنة ١٥٠٨ م ، عندما قاد الأسطول الأسبانى بدور نافارو حيث تمكن الأسبان من الاستيلاء على حجر باريس فى العام المذكور ، وفى العام التالى ١٥٠٩ م وقعت فى قبضتهم مدينتى وهران وبجاية ، وبعد أن وقعت طرابلس بليبيا هى الأخرى فى أيديهم سنة ١٥٠٩ م اضطرت موانى دلس والجزائر إلى دفع الجزية للأسبان دفعاً لشرورهم فى الوقت الذى كانت فيه الجزائر حنيئذ قرية ساحلية صغيرة ، وفى مواجهتها أقام الأسبان حصناً على مرتفع عال صخرى أطلقوا عليه اسم : البنيون Penion ، للسيطرة من خلاله على موانى الغربى الجزائرى وهنا تجد الإشارة إلى أن مملكة بنى زيان فى تلمسان قد فشلوا فى مواجهة غزو المناطق التابعة لهم لضعفهم من جهة ، وبسبب الثورات الداخلية من جهة أخرى ، وبلغ بهم الضعف أن اعترفوا فى

---

(١) د/ جلال يحيي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ صـ ١١ ، ١٣ .

صلح سنة ١٥١٢ م باستيلاء الأسبان على بعض موانى غرب الجزائر [١] ، والذى يحتاج إلى التأكيد هو أن الأسبان ومعهم الأوربيون قد أصروا على جعل هذا الصراع الذى شهده مطلع القرن السادس عشر صراعاً دينياً بين معتنقى الإسلام ، ومعتنقى النصرانية فى الوقت الذى قبل فيه بعض المسلمين مرغمين التعميد ، والدخول فى النصرانية بعد الحرق والقتل الذى استباحه الأيبيريين فيهم ، إلا أن أعداداً منهم قد تمكنت من الفرار ، وتبعهم الإيبيريون محاولين الإيقاع بهم ، والمسلمون يستصرخون المغاربة ، فكان من الطبيعى أن تأخذهم النخوة الإسلامية حيث خرج رجال البحر المغربيين لاستقبال سفن الفارين لتأمين سلامتهم ، والدفاع عنهم فأخذ ذلك شكل الحرب المعلنة بين المسلمين المغرب ونصارى إيبيريا (الأندلس) ، فى الوقت الذى كانت فيه إمارات المغرب على امتداد سواحله ودواخله يعيشون فى صراع داخلى أضعف شوكتهم ، وكان لابد من ظهور قيادات جديدة على السطح الإسلامى المغربى .

فى هذا الظلام الحالك ظهر بطلان مسلمان فى ميدان الجهاد الإسلامى هما : بابا عروج التركى ، وأخوه خير الدين اللذان كانا على رأس عمارة بحرية من المجاهدين الأتراك يعملون كمتطوعين لإنقاذ مهاجرى الأندلس وتأمين وصولهم سالمين إلى الشاطئ الإسلامى المقابل (المغرب العربى) وكان من البديهى أن تحدث مواقع ومعارك بين الفريقين ، وتقدمت وفود المسلمين إلى الزعيمين طالبة العون والنجدة ، ودفع الأسبان عن بلادهم ، وبالفعل حدث التعاون بين الجزائريين والقائدين تمكنا من خلاله تكوين أسطول بحرى إسلامى حاربوا الأسبان ، وطهرت البلاد الجزائرية منهم فى غضون سنوات قليلة [٢] .

---

(١) وثائق أسبانية منشورة : Documents indits sur L'histoire de laccupotion Espagnole en Afrique . 1506 - 1584.

(٢) أحمد توفيق المدني ـ هذه مسلمي الجزائر ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ص ٦٩ .

وكان خير الدين قد اقتسم مع أخيه عروج حكم الجزائر حيث تمكن عروج من السيطرة على ممتلكات بنى زيان بمشاركة الجزائريين ، ودخل تلمسان عاصمتهم فى سنة ١٥١٧ م إلا أن آخر زعماء بنى زيان استنجد بالأسبان الذين أرسلوا له قوة بحرية قوامها ١٥ ألف مقاتل حاصرت تلمسان ، ورغم تمكن عروج من المرورمن خطوط الأسبانيين إلا أنهم تمكنوا من أسره ، وقتله فى سنة ١٥١٨ م ، وخلفه فى قيادة المسلمين منفرداً أخوه خير الدين الذى لقبه الأسبان (بارباروسا) أى ذى اللحية الحمراء لقيادة الجهاد فى بلاد المغرب .

ولما آنس خيرالدين ضعفاً فى قواته أمام هجمات اللأوربيين أرسل للدولة العثمانية يستنجد بها فلبت الدولة نداءه وأرسلت له سنة ١٥١٨ م فى عهد سليم الأول ألفى جندى من الانكشارية ، كما سمحت له بتجنيد الأهالى والمتطوعين من الأناضول ، ومنذ هذا التاريخ سنة ١٥١٨ م أصبحت الجزائر (المغرب الأوسط) تحت السيادة العثمانية .

وعمل خير الدين على تقوية أسطوله بسفن خفية سريعة الحركة أرهبت أسطول الأسبان [1] .

وفى سنة ١٥٣٥ م أعد الإمبراطور شارك الخامس (الذى كان يحكم بالإضافة إلى أسبانيا من سنة ١٥١٦ ، الدولة الرومانية من سنة ١٥١٩ م ، وكذلك الأراضى المنخفضة (بلجيكا) حملة كبيرة تضم أربعمائة سفينة ، وثمانية وعشرين ألف مقاتل وقادها بنفسه حيث تمكن من استعادة تونس التى كان خير الدين قد سيطر عليها ، ورغم أن خير الدين لم يتمكن من استعادتها منهم إلا أنه باغتهم فى جزر البليار ، واستولى منهم على ستة آلاف أسير تمكن مـــن العودة بهم إلى قاعدته فى مدينة الجزائر .

---

(١) د/ جلال يحيي - المغرب الكبير - جـ ٣ - صـ ٢٣ ، ٢٤ .

وكان خير الدين قد قام فى سنة ١٥٢٩ م (بعد أن سيطر على الإقليم الساحلى للجزائر) بالإستيلاء على قلعة البنيون المواجهة للساحل من يد الأسبانيين ، ووصلها (ردمها) بالقرية المواجهة لها فقامت عليها مدينة الجزائر ، واتخذها عاصمة له .

وقد منح السلطان العثمانى خير الدين لقب بيكلربك أفريقية ، ثم لقب قبودان باشا ، وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية ، وبدأ يعتنى بقيادة هذه الأساطيل البحرية ، وترك ابنه حسن باشا حاكماً على الجزائر .

فى هذه الأثناء انتهز شارل الخامس الفرصة ، وقام على رأس جيش كبير مكون من ستة وثلاثين ألفاً من الجنود هجم به على الجزائر بمساعدة ٦٥ بارجة حربية وأكثر من أربعمائة سفينة حيث تمكنت الحملة من النزول إلى الساحل الجزائرى ، ولكن الله سخر لها (مثل ما سخر لمشركى الخندق ، وحملة أرناط الصليبية على المدينة المنورة) عاصفة عصفت بهم [1] ، وأفسدت أمطارها البارود ، واقتلعت الرياح خيامهم ، وحطمت الكثير من السفن ، وهددت الأخرى ، فغرقت أعداد كبيرة من الجنود فى البحر ، ولجأت الأعداد الأخرى إلى ما تبقى من السفن ، مما مكن الجزائريون من إيقاع الهزيمة بالأسبان ، وإبادة أعداد كبيرة منهم [2] .

فاضطر الإمبراطور إلى الفرار بجلده ، وقفل راجعاً إلى أسبانيا يجر أذيال الخيبة .

وفى وهران ضيق العثمانيون الخناق على الأسبان إلا أن قائدها الكونت الكوديت استصرخ أسبانيا التى لم تستطع نجدته لظروف أسبانيا بعد تخلى شارل الخامس عن عرشه سنة ١٥٥٦ مما أطلق يد العثمانيين فى المنطقة .

ووقعت معركة فاصلة بين العثمانيين والأسبان عند مدينة مستغانم الجزائرية فى سنة ١٥٥٨ م تمكن فيها العثمانيون من أسر اثنى عشر ألفاً من الأسبان ، وأشعلوا

(١) د . جلال يحيي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ـ صـ ٢٥ .
وانظر : د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ صـ ٨٦ ـ ٨٨ .
(٢) د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ـ ص ٩١٨ ، ٩١٩ .

النيران فى مخازن البارود التابعة لهم ، وقتل فى المعركة الكونت الكوديت حاكم وهران الذى كان على رأس القوات الأسبانية [١] .

حكم البيكلربيك فى الجزائر :

وبعد استقرار الأمر للعثمانيين فى الجزائر إلى حد ما ، أعقب ذلك فترة حكم فيها الولاة البيكلربك فيما بين سنتى (١٥١٨ ـ ١٥٨٧) تحت السيادة العثمانية ، وكان أولهم خير الدين (باربا روسا) الذى خلفه ولده حسن باشا من سنة ١٥٤٤ وحتى سنة ١٥٥٢ م ، وتبعه الوالى صالح ريس الذى كان من أعوان خير الدين .

وقد شهد عهد صالح هذا مد نفوذه إلى فارس ، ولكنه لم يستمر طويلاً فاتجه إلى بجاية ، والمهدية حيث طرد منهما الأسبان فى سنتى ١٥٥٥ ، ١٥٥٦ ، وفى سنة ١٥٥٦ م تمكن من الاستيلاء على طرابلس من يد الأسبان بمساعدة القائد البحرى طرغوث ، وعين الأخير والياً عليها ـ كما أسلفنا فى الحديث عن ليبيا .

وبعد صالح ريس أعيد حسن باشا بن خير الدين مرة ثانية ، إلا أن السلطان العثمانى استدعاه للاشتراك فى حصار ما لطة فخلفه على ولاية الجزائر علج على الذى أثار الرعب فى قلوب الأوربيين لسنوات طويلة بسبب عنايته القصوى بالأسطول وتسليحه فقد كان علج على قبل ولايته قائداً مغواراً للأسطول العثمانى الشرقى .

حكم الولاة (الباشوات) :

استمر حكم البيكلربيك حتى سنة ١٥٨٧ ، وبعدها أخذ العثمانيون يرسلون باشاوات من قبلهم كولاة لحكم الأقاليم من بينها الجزائر ، ولكن البلاد تدهورت فى عهدهم الذى استمر حتى سنة ١٦٥٩ عندما قرر رؤساء الجند عزل آخرهم ، وتسليم السلطة للديوان الجزائرى الذى كان يتألف من هؤلاء القادة وغيرهم ، واضطرت الدولة العثمانية للموافقة على ذلك مع إرسال أحد الباشوات فترة من الزمن بشكل

(١) إحسان حقي ـ الجزائر العربية ـ صـ ٥٣ .
وانظر : د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٨٨ ، ٨٩ .

صورى لا يمثل شيئاً ، وبعدها أخذ العثمانيون يعتمدون من يقوم الديوان باختياره حاكماً للإقليم من بين الأغوات الذى يحكم شهرين أو أكثر ، فتنعم عليه الدولة بلقب باشا فيماسمى بحكم الأغوات ، وهؤلاء حكموا حتى سنة ١٦٧١ م .

عصر الدايات :

تسبب حكم الأغوات بالجزائر فى أن عمت الفوضى فى البلاد واستولى زعماء البحرية - الذين كان لهم الكلمة العليا فى البلاد - على السلطة ونصبوا أحدهم والياً على البلاد حاملاً لقب : « داى » .

لم تستطع الدولة العثمانية أن تحرك ساكناً سوى إرسال الخلع للداى ، ولقب باشا كممثل اسمى للسلطة العثمانية دون أن يكون لها فى الأمر الفعلى شىء وأصبح للداى سلطات واسعة يعاونه مجلس استشارى ، ومجموعة من الوزراء يختارهم الداى بنفسه ، وإلى جانبه كان من مساعديه الأغا (قائد الجيش) وشيخ الإسلام الذى يعتنى بالشؤون الدينية ، والباشكاتب الذى كان يمثل الأمين العام .

أما القوة العسكرية فقد تألفت من الأوجاق (الجنود الأتراك) وزعمائهم هم الذين يؤلفون الديوان ، وأصبحوا بعد فترة مصدر اضطرابات وقلاقل فى البلاد ، وبعد فترة سمح بزواج الجنود من نساء بعض القبائل فظهرت طبقة من المولدين الذين انخرط بعضهم فى العسكرية ، وتكونت منهم فرق سميت بـ (القولوغلى) ، ويضاف إلى هؤلاء الجنود ، رجال البحر الذين لعبوا دوراً هاماً فى إدخال الرعب إلى الدولة الأوربية التى كانت ترتبط ببلاد الجزائر والمغرب بوجه عام .

ولذلك فقد نعم رجال البحرية بمركز مرموق ، وخصص نصيب كبير من الغنائم لهم الأمر الذى شجع دخول عناصر عديدة ، وانخرطوا فى الاشتراك معهم ، ويذكر البعض أن عدداً كبيراً من أسرى النصارى قد اعتنقوا الإسلام ، واشتركوا فى البحرية هؤلاء الذين أطلق عليهم : (العلوج) [1] .

(١) انظر في ذلك : Julien charles Andre : Histoire Del' Algerie cantemparaime : Paris, 1964 . P.H - 12 .

ويبدو أن هذا التعليل قد ذكر لتبرير اعتناق العديد من النصارى الأوربيين للإسلام ومشاركتهم الجهاد فى صفوفهم ضد بنى جلدتهم الأوربيين ولا سيما أن هذه المقولة يرددها الأوربيون فى كثير من كتاباتهم .

وفى هذه الحقبة (عصر الدايات) لمعت وبرزت أسر يهودية استفادت من ازدهار ورواج التجارة فى الجزائر التى أثرى فيها عدد من التجار وظهرت فيها بيوتات تجارية كان من بينها بل وأبرزها أسرة بوشناخ (Busnach) التى جاءت إلى الجزائر فى حوالى سنة ١٧٢٣م ، واستطاعت بعد عدة سنوات أن تصبح من أكثر الأسر ثراءاً فى الجزائر الأمر الذى مهد لهم الاتصال بالدايات والتقرب إليهم حتى صار لهم نفوذ سياسى ولعبوا دوراً هاماً فى تاريخ الجزائر حينئذ ، وهؤلاء اليهود كانوا قد فروا مع المسلمين من الأندلس بعد اضطهاد الأسبان لهم ، واحتموا بإمان المسلمين فى الجزائر [١] .

كما أن هذه الفترة (عصر الدايات) قد شهد جلاء الأسبانيين عن مدينة وهران التى استمر الصراع عليها بين الجزائر والدولة العثمانية من جهة وبين الأسبان من جهة أخرى طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى أجلوا عنها سنة ١٧٩١ فى عهد حسان باشا داى الجزائر الذى أصر على تسليم مفاتيح المدينة إلى الباب العالى إظهاراً لطاعته للدولة العثمانية [٢] .

الاستعمار الفرنسى للجزائر :

تضافرت عوامل عديدة وتشابكت فيما بينها لتؤدى فى النهاية إلى احتلال الفرنسيين لدرّة المغرب العربى (الجزائر) ، وسنعرض لأهم هذه العوامل فى العجالة التالية :

كانت أسباب وعوامل احتلال فرنسا للجزائر تتفاوت فيما بينها بين عوامل داخلية فى فرنسا ، وأخرى خارجية عنها خاصة بالجزائر والساحة الدولية ، ولكن

---

(١) د/ زاهية قدوره ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٩٠ .

(٢) د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ـ ص ٩٣٢ ، ٩٣٣ .

القضية الكبرى التى تجمع بين الداخلية والخارجية هى طمع فرنسا فى خيرات الجزائر (التى ذاقت منها كثيراً منذ قيام الثورة الفرنسية) ، وتورط فرنسا فى حروب عديدة بأوربا وأفريقيا وآسيا ، حيث جندت عدداً كبيراً من قواتها المحاربة ، الأمر الذى قلل الأيدى العاملة ، ولا سيما من يعملون بالزراعة ، مما أوقع فرنسا فى ضائعة إقتصادية كبيرة ونقصت المؤن بشكل هدد الحياة فيها ، وهدد إمدادات الجيوش كذلك بما تحتاجه .

وكان النقص الأكبر فى مجال المنتجات الزراعية وخاصة القمح بالإضافة إلى احتياجات اللحوم ، والزيوت التى كانت جميعها متوفرة بالجزائر القريبة من فرنسا .

وأمام هذه الحاجة الملحة لفرنسا فى تلك المؤن بادرت الجزائر التى كانت على علاقة ودية مع فرنسا بإرسال كميات كبيرة من القمح واللحوم والجلود والزيوت لتموين جنود فرنسا على وجه الخصوص ، وكذلك تموين القوات العسكرية الفرنسية على جبهات القتال كل ذلك دون أن تدفع فرنسا ثمنه .

ليس هذا فحسب ولكن داى الجزائر بالغ فى كرمه ووده تجاه فرنسا فأقرضها مبلغ ٢٥٠ ألف فرنك لشراء القمح اللازم لها من عنابة وقسطنطينة ، كما سمح للسفن الفرنسية للتزود من موانى الجزائر ، وعاد الداى فأقرض حكومة الإدارة الفرنسية مبلغ مليون فرنك فى سنة ١٧٩٦ م ، دون أن يطلب عليها أرباحاً .

كما سمح الداى ليهوديين بالتوسط فى إمداد فرنسا بما تحتاجه من مؤن وأموال هما : بوشناخ ، وبكرى .

ورغم هذه الخدمات الجليلة التى قدمتها الجزائر لفرنسا فى وقت الحاجة فقد ردت على هذه الأعمال بتصرفات غير ودية إثر حوادث بسيطة ، والأغرب من ذلك أنها ماطلت فى رد الديون العديدة التى عليها للجزائر فلم تكن من عادة نابليون ـ كما يذكر ـ أن يرد أية أموال تدخل خزانته ، وللتهرب من الديون الفرنسية ، عمدت فرنسا إلى تهديد الجزائر إثر أية حادثة ولو بسيطة ، على طريقة « اتق شر من أحسنت إليه » .

ولعل السبب الثانى : هو أهمية الجزائر الإستراتيجية على البحر المتوسط بالنسبة لفرنسا التى كانت تود استخدام هذا البحر ، وهذا البلد (الجزائر) وسيلة للوصول إلى مصر وضرب بريطانيا فى الهند ، وإضافة إلى تفكير نابليون المعروف فى تكوين امبراطورية تشتمل على أقاليم شمال أفريقية فيتمكن من تهديد الخطوط البريطانية التى كانت تسير بين الشرق والغرب [(١)] .

وثمة سبب ثالث كان يدعيه الأوربيون بشكل عام ، واشترك معهم الفرنسيون فيه وجعلوه ذريعة أضافوها إلى الذرائع الأخرى ، وهو ما أسموه بالقرصنة التى كانت تعنى عند المسلمين فى المغرب الجهاد ضد الأطماع الأوربية ، والدفاع عن أوطانهم ودينهم وأرواحهم ، وإرهاب هؤلاء الطامعين بشتى الوسائل وأقواها ، فى الوقت الذى كانت فيه القرصنة « صناعة أوربية بحتة » ووضعت المسألة (القرصنة) على مائدة مؤتمر ڤيينا سنة ١٨١٥ م لتسوية الأوضاع الأوربية بعد أنتهاء الحروب النابولينية ، حيث طالب المؤتمرون بوضع حد وإجراءات حازمة ضد المجاهدين المغاربة ، ولا سيما الجزائريين ، كما بحث القضية نفسها مؤتمر إكس لاشابيل Aix la chapelle سنة ١٨١٨ م [(٢)] .

والسبب الرابع : وهو الذى تذرعت به فرنسا أخيراً ، وهو سبب مفتعل افتعله قنصل فرنسا فى الجزائر (دوڤال) Deval الذى حضر فى ليلة عيد النصر ٢٩ / ٤ / ١٨٢٧ لزيارة داى الجزائر (حسين باشا) وتقديم تهنئة للداى ضمن قناصل عديدة ، وحضور كثير من وجوه الناس ، وخلال الجلسة سأله الداى عن سبب تأخر فرنسا ، عن دفع ديونها للجزائر متعجباً : ولماذا لم أتلق جواباً من الملك عن رسالتى المتعلقة بتصفية حساب الدين ، فكان رد القنصل غريباً يشتمل على غطرسة مفتعلة مفتقدة كل ألوان الدبلوماسية وقال بعجرفة : « وهل تظن أن جلالة ملك فرنسا يتنازل

---

(١) Julien charles : Histore De Algerie op - cit - p.28
وانظر تفاصيل الأسباب في كتاب : د/ جلال يحيي - المغرب الكبير جـ ٣ - ص ٨٦ وما بعدها .
(٢) Julin, op, cit . p . 30 .

لجواب داى الجزائر » .

حينئذ أسقط فى يد الجميع ، ووجم الحاضرون الذين فهموا أن الحادث متعمد ولكن الباشا داى الجزائر وقف وسط الديوان ودهشة الحاضرين ، وقال للقنصل : أخرج يا بن (. . .) وشوح بمروحة من الريش مشيراً بها إلى الباب ، فادعى القنصل أن المروحة قد لمست وجهه ، وخرج صاخباً محتجاً وحينئذ ثارت ثورة شارل العاشر الذى وقف فى خطاب العرش يهدد ويتوعد ، ويعد الشعب الفرنسى بترضية بأقوى صور الترضية [1] وكان هذا السبب المباشر هو الذى انتحلته فرنسا للهجوم على الجزائر واحتلاله .

الحملة والاحتلال :

بادرت فرنسا بعد أن وجدت مسوغاً لها بحدوث حادثة : « لطمة المروحة الشهيرة » بإرسال أربع سفن حربية فى ١٦ من يونيو سنة ١٨٢٧ يقودها الكابتن كولليه Collet يحمل إنذاراً وتهديداً للداى طالباً رد شرف فرنسا (ترضية) عما لحق بها من إهانة وفرض الحصار على البلاد ، وتلخصت المطالب الفرنسية فى الآتى :

١ ـ تقديم اعتذار رسمى .

٢ ـ دفع تعويض عن الأضرار التى لحقت بالسفن الفرنسية والسفن البابوية .

٣ ـ تقديم ضمانات مستقبلية بعدم التعرض للسفن الفرنسية أو تفتيشها .

٤ ـ الموافقة على تسليح المؤسسات الفرنسية فى الجزائر دون اعتراض الداى وحكومته .

٥ ـ تتمتع فرنسا بحق الأمة الأكثر رعاية فى الجزائر .

٦ ـ عدم المطالبة بديون فرنسا للجزائر (إسقاط الديون) وكان جواب الداى

---

(١) أحمد توفيق مدني ـ هذه هي الجزائر ـ ص ٧٧ ، ٧٨ .
وانظر : د/ زاهية قدروة ـ تاريخ العرب ـ ص ٤٩٣ .

على تلك المطالب : (لم يبق إلا أن يطلبوا امرأتى) .

وطال أمد الحصار الذى استمر حتى سنة ١٨٣٠ فيما كانت الحكومة الفرنسية على خلاف فيما يجب عمله ، وهل الظروف الدولية مواتية للاحتلال أم لا [١] .

وكان رفض الداى طوال هذه المدة ، وأخذ القضية على أنها قضية كرامة ورفضه حتى مجرد صعود وزير البحرية الجزائرية إلى السفن الفرنسية لتقديم الاعتذار إلى فرنسا ، فتمادى بذلك الداى فى التحدى الذى سيطر على موقفه .

وفى ٣٠ من يناير سنة ١٨٣٠ وافق مجلس الوزراء الفرنسى فى باريس على إرسال الحملة على الجزائر فى الوقت الذى مازال فيه القادة الفرنسيون على اختلاف مشاربهم لم يكونوا قد استقر رأيهم على المدى الذى يجب أن تصل إليه الحملة بعد وصولها الجزائر ، وتم تعيين الجنرال بورمونت Barmont قائداً للحملة ، بينما عين الأميرال دوبرى Duppere قائداً للأسطول البحرى ، وأعلنت فرنسا أن الهدف من الحملة هو الانتقام لشرفها ، ووضع حد لعمليات القرصنة والاسترقاق التى تقوم بها الجزائر .

تحرك الأسطول الفرنسى فى مايو سنة ١٨٣٠ من ميناء طولون ، وتكأ بعض الوقت فى جزر البليار ، ثم بدأ فى إنزال قواته فى منطقة سيدى خـــرج على بعد ٢٥ كم غربى مدينة الجزائر فى ١٤ من يونيو سنة ١٨٣٠ ، وضمت الحملة ٣٧ ألف مقاتل يساعدهم عشرون ألفاً من رجال البحرية مع مائة سفينة حربية ، وعدد كبير من سفن المساعدة التى أستأجرتها فرنسا .

المقاومة الجزائرية للفرنسيين :

عهد الداى بقيادة المقاومة إلى صهره (إبراهيم أغا) على الرغم من عدم عنايته بإقامة التحصينات الكافية رغم علمه المسبق بأخبار الحملة ووجهتها قبل وقت كاف ،

---

(١) Julien Histoire del Al gerie ops cit P. 34 .
وانظر : د/ صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٨٢ .

ومع ذلك فقد لقى الفرنسيون مقاومة شديدة من حامية القلعة التى لم تستطع تحمل ضربات المدفعية ، ولا سيما أن الفرنسيين تمكنوا من نسف جزء كبير من قلعة السلطان ، وإشعال النيران فى مخازن الزخيرة وفى النهاية اضطر الداى إلى إرسال الباشكاتب مصطفى إلى بورمونت (القائد الفرنسى) بمقترحات ، ووسّط قنصل بريطانيا سانت جون لكن القائد الفرنسى أصر على أن يملى شروطه ، وبالفعل قبلها الداى فى ٥ من يوليو سنة ١٨٣٠ م ، والشرط الهام فيها هو تسليم حصن القصبة ، وجميع حصون مدينة الجزائر وأبوابها للفرنسيين وتم نزع سلاح الانكشارية الذين أبعدوا إلى أزمير ، أما الداى فقد غادر الجزائر بأسرته إلى نابلى ، وانتقل بعد ذلك إلى الإسكندرية التى ظل بها حتى توفى سنة ١٨٣٨ م تاركاً الجزائر تتعرض للنهب والسلب [١] .

وقد وقع عبء المقاومة كلها على الشعب الجزائرى الذى بذل أقصى ما عنده رغم ضعف إمكاناته الحربية فقاوم بضراوة الفرنسيين الذين وجدوا صعوبة شديدة فى السيطرة على الداخل الجزائرى ، وفشلوا عدة مرات فى الاحتفاظ بوهران وعنابة ، إلا أن المقاومة الحقيقية التى عانى منها الفرنسيون تمثلت فى الدور الكبير الذى لعبه وقام به الأمير عبد القادر بن الشيخ محيى الدين شيخ الطريقة القادرية الذى قاد المقاومة فى غرب الجزائر .

وكان عُمْر عبد القادر حينئذ أربعاً وعشرين عاماً ، فاتخذ من مدينة (المعسكر) مركزاً ومقراً قاد منه عمليات المقاومة التى كبدت الفرنسيين خسائر فادحة فى أرواحهم وعتادهم [٢] .

(١) د/ صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٩٢ ، ٩٣ .
وانظر : د/ شوقي الجمل ـ المغرب العربي ـ ص ٢٦٠ وما بعدها .
(٢) انظر تفاصيل المقاومة في كتاب :
محمد عبد القادر الجزائرى ـ تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر جـ ١ ـ الأسكندرية ـ ١٩٠٣ ـ ص ٩٦ وما بعدها ، وجـ ٢ .
وانظر : أحمد توفيق مدني ـ هذه هي الجزائر ـ ص ٧٩ وما بعدها .
Julien - op - cit - P 160 - 488 .

واستمر الأمير عبد القادر (الذى حرم على الفرنسيين دخول بعض المناطق الجزائرية) فى جهاده واضطرهم إلى عقد المعاهدات معه تلك المعاهدات التى نكسوها فى كل مرة حتى أحيط به ، واضطر لإلقاء السلاح مستسلماً فى سنة ١٨٤٧ ، وتم نفيه إلى فرنسا حتى أطلق سراحه نابليون الثالث سنة ١٨٥٣ فاختار تركيا ، ومنها إلى دمشق التى عاش فيها حتى وافته المنية سنة ١٨٨٣ م .

ومع ذلك فقد ظلت المقاومة مشتعلة جذوتها فى ثورات أهلية عنيفة أهمها :

١ ـ ثورة أولاد (سيدى الشيخ ، وثورة الأوراس ، والزيبان ، وزواغة) فى الفترة من ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠ م .

٢ ـ ثورة القبائل سنة ١٨٥١ م .

٣ ـ ثورة واحات الجنوب بزعامة محمد بن عبد الله سنة ١٨٥٢ .

٤ ـ ثورة جبال البابور سنة ١٨٥٦ م .

٥ ـ ثورة لالافاطمة فى جبال القبائل سنة ١٨٥٧ .

٦ ـ ثورة أوراس سنة ١٨٥٨ م .

٧ ـ ثورة الشعبانية سنة ١٨٦١ م .

٨ ـ ثورة أولاد (سيدى الشيخ) سنة ١٨٦٤ م .

٩ ـ الثورة الكبرى التى أعقبت الثورات السابقة وهى ثورة محمد المقرانى سنة ١٨٧١ م[١] .

وهى ثورة شعبية كانت رد فعل عنيف للاحتلال الفرنسى وقسوته على البلاد فقد ظهرت عوامل دولية شجعت الجزائريين على طلب إنهاء الاحتلال بعد حروب فرنسا وألمانيا التى انتهت بهزيمة الفرنسيين ، واستسلامهم أمام ألمانيا مما سبب لها ضياع هيبتها ، وهبوط مركزها الدولى ، فى الوقت الذى حاول فيه الفرنسيون تجنيد

(١) د/ زاهيه قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ .

الجزائريين للزج بهم فى هذه الحرب التى ليس لهم فيها ناقة ولا جمل ، كما أن فرنسا أقدمت على منح يهود الجزائر الجنسية الفرنسية الأمر الذى قوى من نفوذهم وسطوتهم داخل المجتمع العربى الإسلامى ، مما ألهب الثورة ، وجعلها تشمل كل أنحاء الجزائر طوال سنة ١٨٧١ م ما عدا منطقة وهران .

وزعيم الثورة **محمد المقرانى** لم يكن من فقراء الشعب ، بل كان من أغناهم ، ومن وجهائهم كذلك فجاد بكل ما يملك فى سبيلها حتى استشهد بعد شهرين من المقاومة ، وخلفه فى قيادة الثورة الشعبية أخوه بو مزراك المقرانى حتى تمكنت فرنسا من القضاء عليها فى يناير سنة ١٨٧٢ م [١] ، وتعد هذه آخر ثورة كبيرة قبل الثورة الكبرى - التى سيأتى الحديث عنها حيث بدأ الجهاد السياسى .

هجرة الفرنسيين للجزائر :

شجعت فرنسا مواطنيها على الهجرة إلى الجزائر فقد كانت تعتبرها امتداداً لفرنسا عبر البحار ، حيث تدفق الفرنسيون والأوربيون فرادى وجماعات ، فبلغ عدد المهاجرين بعد سنة واحدة من الاحتلال ثلاثة ألاف مهاجر ، ووصل عددهم فى سنة ١٨٣٧ م أى بعد مرور سبعة أعوام إلى ١٧ ألف نسمة وفى سنة ١٨٤٨ م نقل الفرنسيون العمال الجمهوريين الذين انهزموا إلى الجزائر ، وكانت أعدادهم كبيرة [٢] وعندما استسلمت فرنسا لألمانيا بعد حربهما على الألزاس واللورين تدفق المهاجرون بأعداد كبيرة إلى الجزائر حتى بلغ عددهم سنة ١٨٩١م أكثر من نصف مليون فرنسى وأوربى ، وقفز الرقم سنة ١٩١١ م إلى ثلاثة أرباع المليون ، ووصل المليون سنة ١٩٥٤ م .

وكانت الأرض الجزائرية توزع على حثالات الفرنسيين العاطلين مجاناً هذه الأرض التى كان يعمل عليها ويزرعها شهداء المقاومة الجزائرية [٣] .

---

(١) د/ جلال يحيي - المغرب الكبير - جـ٣ - ص ١٩٧ و ما بعدها .

(٢) David Gordon : the Passing of franch Algeria london . 1966 - P. 15.

(٣) أحمد توفيق المدني - هذه هي الجزائر - ص ٩٧ ، وما بعدها .

الجزائر فى الحرب العالمية الأولى :

عمد الفرنسيون إلى تجنيد الجزائريين على أساس فردى فكونت منهم فرقة عرفت بفرقة القناصة التى اشتركت فى كثير من الحروب الفرنسية ، وفى سنة ١٩١٢ عمدوا إلى فرض الخدمة العسكرية ، أو البدل المالى على كل الجزائريين ، ونظراً لحالة الفقر ، وغالبيتهم معدمون فقد تحولت الخدمة العسكرية إلى تجنيد إجبارى على الجزائريين .

ويذكر البعض أن فرنسا قد جندت أكثر من أربعمائة ألف لمحاربة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، مات منهم أكثر من ثمانين ألفاً ، كما أعدت فرنسا ثمانين ألفاً استخدمتهم فى المعامل الحربية الفرنسية ، وكذلك فى المعامل المدنية [1] .

كما عمل بعضهم فى فروع أخرى فى فرنسا ، وقد عاد من عاد من كل هؤلاء بعد انتهاء الحرب وقد شعر بقيمته وقيمة بلاده التى اغتصبها المستعمر ، واكتسب خبرة جديدة ، وعلم فنون العسكرية ، وبدأ البعض منهم يفكر فى الأمور السياسية والصحافة التى بدأت تنتشر بعد الحرب .

وكان أول من نزل إلى ميدان السياسة والصحافة هو الأمير خالد الهاشمى ابن الأمير محيى الدين ، فهو حفيد الأمير عبد القادر الجزائرى ، وكان خالد ضابطاً فى الجيش الفرنسى ، وشارك فى الحرب ضد أعداء فرنسا ، وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى قاد وفداً إلى فرساى ، وأخذ يطالب بتطبيق مبادئ الرئيس الأمريكى ويلسون على الجزائر ، وتقرير مصيرها بأيدى أبنائها ، دون أن يجد لمطالبه صدى .

حركات الكفاح الوطنى بعد الحرب الأولى :

ويعد تحرك خالد الهاشمى بداية حركة الكفاح القومى ومقدمة للحركات

---

(١) أحمد توفيق ـ هذه هي الجزائر ـ ص ١٦١ ، ١٦٢ .
وانظر د / جلال يحيي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٣ ص ٢٥٠ ، جـ ٤ ـ ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

السياسية الجزائرية ، وما أن عاد خالد من رحلته إلى فرساى بفرنسا حتى أنشأهيئة سياسية أطلق عليها : « وحدة النواب المسلمين » ، وأقام لها جريدة حرة هى جريدة الأقدام مطالباً فيها بإصلاحات عديدة ، مما جلب عليه عداوة الفرنسيين فنفوه خارج البلاد بعد أن اتهموه بالخيانة .

وتبعته حركات سياسية بعضها نهج النهج نفسه ، ولا سيما فى الثلاثينات من القرن العشرين حيث ظهرت واتضحت وجهة التيارات السياسية التى كان بعضها فى أقصى اليمين وهم رجال الصوفية ، وبعدهم اليمين المعتدل وأغلبهم من المثقفين الجزائريين ، وأصحاب اتجاه الوسط الذى يعتزون بانتمائهم الإسلامى وحفاظهم على العربية ، وهم أيضاً من العلماء الذين أثر فيهم تعاليم الشيخ / محمد عبده ، والسيد / رشيد رضا ، وهؤلاء كانوا يرفضون الجنسية الفرنسية ويحافظون على تراثهم العربى الإسلامى ، ونظموا أنفسهم فى جمعية العلماء المسلمين فأنشأوا لهم جريدة الشهاب والبصاير ، أما اليسار فشملتهم جمعية : نجم شمال أفريقية ، وأغلبهم من العمال الذين عملوا فى فرنسا وهذه الجمعية قد انفردت بمطالبها التى حاربت من أجلها لتوحيد بلاد المغرب : تونس والمغرب مع بلادهم الجزائر ، وأخيراً فى أقصى اليسار ظهر الحزب الشيوعى الجزائرى [1] وقد استمر الصراع بين هذه الجبهات الجزائرية فبعضها أيد الفرنسيين مثل الصوفية ، والبعض الآخر قاوم بشتى السبل السياسية والدبلوماسية والصحافة . . الخ . وكان موقف فرنسا الكبت والاضطهاد لكل من يخالف سياستها كما أودعت السجن كل من طالبها بالحرية الجزائرية ولا سيما قبل الحرب العالمية الثانية التى ازدادت فى أثناء الحرب .

الحرب العالمية الثانية وأثرها على الجزائر :

نشبت الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٣٩ م ، وسارعت الحكومة الفرنسية

---

(١) د / جلال يحيي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٤ ـ ص ٢١٤ وما بعدها .

بتعطيل نشاط الأحزاب والهيئات السياسية [١] ، فقد سقطت فرنسا صريعة أمام قوات ألمانيا بعد عدة أسابيع ، واستسلم أكثر من مليون ونصف المليون من رجالها رغم وقوفهم خلف حصن واستحكامات خط ما جينو ، واضطرت حكومة فيشى الفرنسية لقبول مطالب الألمان ، وسلمت أراضيها للألمان ، وإلا أنها رغم كل ذلك احتفظت بالأحكام والقوانين العرفية ، وحالة الطوارئ فى الجزائر ، وظلت مصرة على وضع زعماء الحركات السياسية الجزائرية فى السجن ، وعندما نزلت القوات الأمريكية على أرض الجزائر فى ٨ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ م حاول الجزائريون شرح قضيتهم ومحاولة الاستفادة منهم ، ولكن الأمريكان كانوا قد صمموا على عدم إضعاف فرنسا لتواصل العمل بجانب الحلفاء .

ولما يجد الزعماء الوطنيون صدى اجتمعوا فى ٣ فبراير سنة ١٩٤٣ ، وتفاوضوا فى كيفية الحصول على حريتهم واستقلالهم ، وقرروا نشر بيان تقدموا به لأبناء الجزائر ، والفرنسيين والحلفاء ، يوضحون فيه آمالهم لبلادهم ، والطريق الذى أرادوه لهذا البلد ، وهو إعلان الجمهورية الجزائرية المستقلة .

اعتبر هذا البيان نقطة تحول تاريخى فى تطور الحركة السياسية الجزائرية ، ولا سيما أن أغلب رجال الأحزاب والجمعيات السياسية المختلفة قد انضمت إليه ، وكونوا هيئة أطلق عليها : « أنصار البيان والحرية » وبدأت فرنسا تواجه القوى الوطنية الجزائرية متكتلة ، وعلى قلب رجل واحد ، بعد أن كانت فرنسا تلعب فى المياه العكرة مستغلة الخلاف بين الجهات ، وسادت على طريقة : « فرق تسد الاستعمارية » .

وعلى أثر مظاهرة ٨ مايو سنة ١٩٤٥ م التى طالب فيها الجزائريون بالحرية فتح الفرنسيون النيران على المتظاهرين فى مجزرة بشرية رهيبة صاحبتها عملية تدمير للقرى على رأس أهلها بالطائرات والمصفحات ، وفى المدن كانت جماعات الميليشيا

---

(١) د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٥١٥ .

الأوربيين يسرقون المثقفين الجزائريين إلى مناطق يحفرون فيها قبورهم بأيديهم ، ثم يأمرون كل فوج منهم بدفن الفوج السابق عليه ، هذا عدا الوطنيين الذين عدُوا بالآلاف زجت بهم السلطات الفرنسية فى غياهب السجون .

وأسرعت فرنسا إلى حل جماعة أنصار البيان ، وحزب الشعب الجزائرى ، وظل المعتقلون فى سجونهم حتى ١٦ مارس سنة ١٩٤٦ م ، وما أن خرجوا منها حتى بادروا بتنظيم صفوفهم فى مواجهة المستعمرين الفرنسيين (١) .

الثورة الجزائرية الكبرى سنة ١٩٥٤ م :

وكانت المواجهة الشاملة قد تمت بالثورة الكبرى الجزائرية فى غرة نوفمبر سنة ١٩٥٤ فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حيث نظمت كل الأطراف ، وأعدت الأسلحة ، والتدريب عليها باشتراك الأمة الجزائرية جميعها فى يوم واحد تحت زعامة جبهة التحرير الوطنى بعد أن حلت الأحزاب السياسية وانضمت إلى الجبهة ، ولم يبق خارجها سوى جبهة (جماعة مصالى الحاج) الذين أنشأوا جيشاً آخر باسم الحركة الوطنية الجزائرية .

وبذلك انفجرت نيران الثورة فى كل مكان بالجزائر نالت من الفرنسيين فى كل مكان ، وألقيت عليهم القذائف والمتفجرات (التى صنعت محلياً) على مراكز السلطة ، والمنشآت العامة ، وثكنات الجندرمة فأحدث ذلك رعباً شديداً فى نفوس الفرنسيين (٢) .

ولذلك فقد بلغ الجيش الفرنسى ما يقرب من نصف مليون جندى فرنسى لم يستطع القضاء على الثورة ، فاتجهت إلى كهربة أسلاك على الحدود مع تونس ،

(١) د/ جلال يحيى ـ المغرب الكبير ـ جـ ٤ ـ ص ٢٢٩ وما بعدها .
وانظر : أحمد توفيق المدني ـ هذه هي الجزائر ـ ص ١٧٤ وما بعدها .
(٢) أحمد توفيق المدني ـ هذه مسلمي الجزائر ـ ص ١٩٢ وما بعدها .
وانظر : محمود شيت خطاب ـ المغرب العربي ـ ص ٢٥١ .

وعلى الحدود مع المغرب ، ثم شاركت فرنسا فى مؤامرة السويس سنة ١٩٥٦ على مصر للقضاء على النظام القائم فيها حتى لا يقوى على مساندة ثوار الجزائر .

ومع ذلك فلم تفلح كل هذه الإجراءات فى إضعاف الثورة ، بل زادت من اشتعالها حيث اضطرت جبهة التحرير الوطنية الجزائرية إلى نقل الحرب إلى فرنسا نفسها ، وتمكن الفدائيون من النيل من مخازن البترول بالقرب من مرسيليا فأشعلوا فيه النيران ، وأشعلوها كذلك فى بلاد فرنسية عديدة ، ووصلت أيديهم ، ونيرانهم إلى ناقلات البترول الرابضة فى الموانى الفرنسية ففجرتها ، ليس هذا فقط بل نال الثوار الفدائيون من العديد من نقط البوليس والتفتيش ، وبعض المواقع العسكرية فى فرنسا نفسها ، الأمر الذى كبد الفرنسيين خسائر فادحة .

واضطرت هيئة التحرير الوطنية الجزائرية إلى إعلان تكوين حكومة جزائرية مؤقتة لمواصلة الحرب ، وإدارة شؤون الجزائر فسارعت الدول العربية ، والأفريقية والأسيوية ، وبعض الدول الصديقة للعرب بالاعتراف بهذه الحكومة المؤقتة ، وتأييدها وحينئذ اضطرت فرنسا فى ١٩٥٧ إلى تقديم مقترحات لحل القضية الجزائرية مستبعدة الاستقلال وظلت مقترحاتها وتحركاتها بعيداً عن قضية الاستقلال حتى جاء ديجول إلى الحكم سنة ١٩٥٨ م بعد سقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة ، وكان الجميع فى فرنسا يعقد عليه الأمل فى إنقاذ الموقف فى الجزائر ، ولكنه فاجأ الجميع فى خطابه الشهير (١٦ سبتمبر ١٩٥٩ م) الذى عرض فيه خيارات ثلاث للجزائريين وهى : الاندماج الفرنسى أوالاستقلال التام ، أو الاستقلال مع الارتباط بفرنسا .

كان هذا الإعلان كارثة وفاجعة كبيرة للمستوطنين الفرنسيين فى الجزائر الذين ثاروا فى أوائل سنة ١٩٦٠ م وأعلنوا العصيان العسكرى الذى قاده بعض جنرالات فرنسا بزعامة شال وسالان وآخرون إلا أن ديجول نجح فى القضاء على هذا العصيان ، وساعدت شخصية ديجول على نجاح فكرة التفاوض مع الثورة الجزائرية وعقد الصلح بعد ذلك .

وفى أوائل سنة ١٩٦٢ أجريت مفاوضات بين الجانبين الفرنسيين والجزائرى أدى إلى اتفاق بينهما على وقف القتال ، وإطلاق سراح الزعماء الوطنيين المعتقلين ، وحق الجزائر فى الاستقلال وتقرير المصير على أن تتولى السلطة هيئة مكونة من ١٢ من وجوه الجزائر يحكمون خلال فترة انتقالية ، ثم أجرى استفتاء كان نتيجته الرغبة الأكيدة فى الاستقلال .

وبالفعل أعلن استقلال الجزائر فى أول يونيو سنة ١٩٦٢ م ، واعترفت بها الدول دولة مستقلة ذات سيادة[١] .

• • •

(١) د/ جلال يحيي ـ المغرب الكبير ـ جـ ٤ ـ ص٣٨٩ ، ٣٩٠ .
انظر : د/ زاهيه قدوره ـ تاريخ العرب ـ ص ٥٢١ وما بعدها .
David Gordon - the Passing of French, Al geria - op - cit - P . 71 .



الفصل الثالث عشر
المغرب الأقصى

المغرب الأقصى

تمهيد

المغرب هو اللفظ المختصر أطلق على منطقة المغرب الأقصى ، وكان يطلق عليه من قبل : مراكش ، وموقعه أقصى الغرب من الشمال الإفريقى الذى يحده من الغرب المحيط الأطلسى ، ومن الشمال البحر المتوسط ، ومن الجنوب الصحراء الأسبانية ، وتحيط به الجزائر من الشرق والجنوب أيضاً ، ويعد المغرب أقرب نقطة تصل بين إفريقيا وأوربا عن طريق مضيق جبل طارق كما أن المغرب من طرفه قريب من جزيرة صقلية .

ولذلك فموقع المغرب استراتيجى بسبب قربه من أوربا ، والتقاء القارتين أدى إلى نشاط تجارى وسياسى حيث دخل العرب شبه الجزيرة الأيبرية وكونوا الأندلس ، وعن طريق المغرب أيضاً خرجوا منه .

ويمتاز المغرب بخصوبة تربته وهطول الأمطال فيه بكثرة ، واشتماله على سلسلة جبال أطلس العالية الارتفاع ، وبه أنهار كثيرة أهمها : نهر أم الربيع وطوله ٥٠٠ كم٢ ، ونهر وداى درعة ، ونهر أبى رقراق ، ونهر تانسفيت ، وغيرها .

وبالمغرب مدن عتيقة وهامة منها : مكناس ، وفاس ، ومراكش ، (جوهرة الجنوب) ، والقصر الكبير ، ووجدة ، ووزان ، والرباط العاصمة السياسية الساحلية ، وسلا ، وأزمور ، والصويرة ، وأصلية ، ومليلة ، وسبته ، ومن الموانى الهامة : الدار البيضاء ، وأغادير وطنجة على مضيق جبل طارق [١] .

نشأت فى بلاد المغرب دول عديدة تنازعت فى بنيها السلطة والنفوذ ابتدأها

---

(١) د/ محمد عبد الغني سعودي ـ الوطن العربي ـ ص ٥٣١ وما بعدها .
انظر : د/ زاهية قدوره ـ تاريخ العرب ـ ص ٥٢٧ وما بعدها .

إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب مؤسس دولة الأدارسة الذى وحد بلاد المغرب الأقصى (بعد عبث الخوارج الذين ثاروا على عامل الخليفة) وبعد أن فتح تلمسان فى المغرب الأوسط (الجزائر) سنة ١٧٥ هـ/ ٧٩١ م توفى سنة ١٧٧ / ٧٩٣ م حيث خلفه إدريس الثانى الذى بنى مدينة فاس المغربية وجعلها عاصمة ومقراً لحكمه فى سنة ١٩٢ هـ ٨٠٧ م ، ومازالت تتوسع ويقصدها الناس حتى صارت حاضرة المغرب كله .

وفى سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م شرعت فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهرى فى بناء جامع القرويين الذى غدا منارة إسلامية تنشر الثقافة وتحفظ التراث العربى وأصبح جامعة المغرب الإسلامية ، ولا سيما بعد نكبة : الفردوس المفقود .

ولم تنته دولة الأدارسة إلا فى سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م بعد ظهور الدولة العبيدية فى تونس ، وتمكنها من ضم المغرب إليها ومن سنة ٣٠٥ هـ إلى سنة ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٦ م أصبح الأمر سجال بين الفاطميين فى تونس ، والأمويين فى الأندلس ، وبعد انقراض الدولة الأخيرة وقيام ملوك الطوائف على أكتافها ، ظهر فى المغرب دولة مغراوة التى امتد حكمها من ٤٢٨ هـ/ إلى سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م .

فقد تغلبت عليها دولة المرابطين التى نشأت من رباط صنهاجى تعلموا فيه أصول الدين ، وأصبح نواة دينية عسكرية خرجت يوسف بن تاشفين الذى استولى على فاس ، وأسس مدينة مراكش ، وجعلها حاضرة وعاصمة لملكه سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م ، ثم استولى على تلمسان عاصمة المغرب الأوسط (الجزائر) ، ودان له المغربين الأقصى والأوسط سنة ٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢ م .

وكان نصارى الأندلس قد أخذوا فى مقاتلة المسلمين فى عهد يوسف بالمغرب ، واستنجد به أهل الأندلس فلبى ندائهم فى سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م ، واستطاع أن يخمد شرورهم حتى عاش الإسلام بعده أربعة قرون قبل أن يتحول الأندلس إلى :

(الفردوس المفقود) .

كما تمكن يوسف بن تاشفين فى ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م من إخضاع ملوك الطوائف لحكمه وتوج حياته الكريمة بانضوائه تحت لواء دولة الخلافة العباسية ، وكرم عندما خوطب بلقب : أمير المسلمين حتى توفى سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٥ م وظلت دولته فى عزو صنعه حتى نشبت المعارك بين المرابطين ، والموحدين بسبب ثورة المهدى بن تومرت والحروب الخطيرة التى قامت بينهما ابتداء من سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م وانتهى الأمر بسقوط مراكش ودولة المرابطين فى يد الموحدين سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م .

وعاشت دولة الموحدين فى المغرب فيما بين سنتى ٥١٤ هـ / ١١٤٦ م إلى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م حيث قطعت تبعية بلاد المغرب للخليفة العباسى ، وتسمى زعماؤهم بأمير المؤمنين ، وتمكنوا أيضاً من السيطرة على الأندلس ، وهزيمة النصارى الذين كانوا يحصلون على عطف ومباركة البابا لا ستخلاص الأندلس من المسلمين .

وتتعاقب سنة الله فى خلقه عندما يتمكن ابن عبد الحق من القضاء على دولة الموحدين ، ويملك المغرب فى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م حيث تبدأ دولة أخرى فى حكم المغرب قرابة ثلاثة قرون وحتى سنة ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ م وهى دولة بنى مرين [١]

الأطماع الإيبيرية (أسبانيا والبرتغال) فى المغرب :

استهل القرن الخامس عشر أحداثه بمحاولات أسبانية (قشتالة) للسيطرة على مناطق مغربية حيث هاجم الأسبان مدينة تطوان سنة ١٤٠١ م واحتلوها ردحاً من الزمن ، وفى سنة ١٤١٥ م تمكنت البرتغال من احتلال مدينة سبته (الذى استمر احتلالهم لها برتغاليين وأسبان) حتى التاريخ المعاصر .

وبعدها اتجهوا إلى طنجة على ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث احتلها

---

(١) محمود شيت خطاب ـ المغرب العربي ـ ص ١٧٧ وما بعدها .

البرتغاليون سنة ١٤٣٨ م فى محاولة منهم لشطر المغرب العربى الإسلامى شطرين والتمكن من التهامه (١) ، كما استولى الأوربيون بعد ذلك على مجموعة أخرى من الموانى المغربية مثل أزمور ، والقصير الصغير ، وأصيلة (٢) .

وقد تلى دولة بنى مرين بعد ضعفهم تمكن فرع منهم وهو بنى وطاس من السلطة إلا أن بنى وطاس هؤلاء كانوا يحملون معهم عوامل الضعف لهم ولغيرهم حيث تكالب أفرادهم على السلطة فتنازعوا ، وأضعفهم الشقاق فيما بينهم .

ولذلك فقد زادت أطماع البرتغاليين والأسبان فيما تحت أيديهم من بلدان وموانئ كلها عامرة ، حتى قيض الله دولة أخرى مجاهدة ظهرت على المسرح المغربى هى دولة السعديين ابتداء من سنة ٩٦١ هـ/ ١٥٥٣ م ، وهى دولة عربية علوية ، وكان عملها من البداية تنظيم الجهاد لطرد الأجانب الذين احتلوا الموانى وبعض البلاد المغربية ، واتحد معهم البربر ونصروهم على بنى جلدتهم من بنى وطاس (الذين هم من البربر) .

وكانت بداية السعديين هو أبى عبد الله محمد القائم بأمر الله الذى كان مقيماً بمدينة درعة ، فبايعه الفقهاء ، وشيوخ القبائل حيث تزعم قبائل السوس وجاهد بهم إلى أن توفى سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م وخلف ولدين أكبرهما أبو العباس أحمد الأعرج الذى بايعه الناس ، وتمكن من الانتصار على البرتغاليين فى مواقع عديدة ثم تمكن من دخول مراكش سنة ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م .

وقد اضطر أحمد الأعرج فى سنة ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٣ م إلى الاتفاق مع الوطاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون للأشراف السعديين من تادلة إلى السوس ، وللوطاسيين من تادلة إلى حدود المغرب الأوسط (الجزائر) إلى أن تمكن المهدى

---

(١) Ricard Robert Etude sur l'Histoire des Portuguais au maroc, Paris, 1955. p. 144 .

(٢) Dacuments indits sur L'histoire de L'occupation Espagnol en Afrique 1506 . 1584 .

(أبو عبد الله محمد الشيخ) أخو أحمد الأعرج فى سنة ٩٦١ هـ / ١٥٥٤ م من القضاء على الوطاسيين ، ودخول فاس (عاصمتهم) ولكنه قتل فى سنة ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧ م بعد أن استرد العديد من موانى المغرب من يد البرتغاليين الذين لم يبق لهم سوى طنجة وسبته وهزغان فقط [١] .

وفى أيام الدولة السعدية زمن عبد الله بن محمد المهدى حدثت معارك كبيرة مع البرتغاليين كان أشهرها فى التاريخ معركة : « وادى المخازن » التى اشترك فيها ثلاثة من الملوك ، وقتلوا فيها حيث كان على رأس جيش البرتغاليين ملكهم سباستيان ، يعاونه المتوكل الذى هرب مستنجداً بالبرتغاليين ، وكان الثالث هو عبد الملك أمير السعديين .

ففى سنة ١٥٧٨ التقى جيش البرتغاليين مع جيش السعديين عند وادى المخازن (شمال فارس) حيث لقى البرتغاليون هزيمة شنيعة فقدوا فيها ٢٦ ألف قتيل ، وسقط الملوك الثلاثة صرعى وقد آل الحكم بعد عبد الملك إلى أخيه أحمد الذى تلقب بالمنصور [٢] .

وربما كان من نتيجة معركة وادى المخازن تحطم قوة البرتغاليين ، مما سهل على فيليب الثانى ملك أسبانيا بعد عامين سنة ١٥٨٠ م أن يضم البرتغال إلى بلاده وظل قابضاً عليها ستين عاماً .

وقد ازدهرت بلاد المغرب وتوسعت فى عهد المنصور الذى استطاع أن يقضى على مملكة صنغهاى ببلاد السودان بعد أن أرسل عليها جيشاً كبيراً تمكن من الحصول على غنائم كثيرة فجاءت الأحمال مليئة بالتبر والذهب واستغلها أحمد المنصور

---

(١) محمود شيت خطاب - المغرب العربي - ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
وانظر : Ricard Robert . Op. cit . P. 368 .
(٢) د / زاهية قدورة - تاريخ العرب - ص ٥٣٤ - ٥٣٥ .
وانظر : د / صلاح العقاد - المغرب العربي - ص ٥٣ .
و د / جلال يحيي - المغرب الكبير - جـ ٣ ص ٣٩ .

(الذى لقب بالذهبى) فى تحصين بلاده ، وتقوية جيشه ، ومع ذلك فقد أنهكت هذه الموارد بلاد السودان .

وأدى سقوط مملكة صنغهاى فيها إلى قيام ممالك صغيرة وضعيفة انشغلت بالتناحر فيما بينها ، وسادت الفوضى فى هذا الجزء من الإقليم السودانى بعد تراخى قبضة المغرب .

ومع ذلك فقد ازدادت هيبة المغرب فى نظر الأوربيين ، وبات الجميع يخطب وده ، ولا سيما انجلترا وهولندا ، ويمكن القول أن المغرب فى عهد المنصور قد أخذ شكل الإقليم المتميز عن جيرانه فى المنطقة ، واستقل بشخصيته فى هذا العهد الذهبى [١] .

وبعد المنصور الذى توفى سنة ١٦٠٣ م والعهد الذهبى تنازع أبناء الأسرة السعدية على وراثة السلطة والحكم .

وأدى ذلك إلى انقسام الدولة إلى حكومتين إحداهما فى فاس والأخرى فى مراكش واستنجد البعض منهم بالأوربيين ، وقام البعض الآخر بإنشاء سلطات مستقلة فى بعض المقاطعات ، وأهم هذه القوى : جمهورية سلا التى كانت تتحكم فى موقع استراتيجى يطل على الملاحة بين أسبانيا والعالم الجديد ، كما كان كذلك بين أوربا والمحيط بالإضافة إلى جبل طارق ، وساعدها على الازدهار هجرة مسلمى الأندلس إليها سنة ١٦١٠ م وعندما زاد عدد السكان بنوا مدينة جديدة كانت نواة الاتساع وازدهار مدينة الرباط .

إلا أن هذا الاختلاف (الانفصال) ، وتعدد مناطق النفوذ والتناحر بينها قد أدى إلى زوال حكم وسلطة السعديين وانتقلت السلطة من بعدهم إلى الأشراف

---

(١) د/ جلال يحيي - المغرب الكبير - جـ٣ - ص ٤٣ وما بعدها .
وانظر : التفاصيل في كتاب : د/ صلاح العقاد المغرب العربي - ص ٥٥ وما بعدها .

الحسينيين (العلويين) الذين يحكمون المغرب حتى العصر الحاضر [١] .

دولة العلويين فى المغرب :

تعود أصولهم إلى الحجاز ، من سلالة الحسن بن على فهم أشراف انتقلوا إلى المغرب فى القرن السابع الهجرى ، واستقروا فى واحة تافلات فى الجنوب الشرقى ، ولم يكن هناك وفاق بينهم وبين الطرق الصوفية العديدة التى كانت منتشرة فى المغرب حينئذ .

وقد طلب منهم أهل تافيلات تدبير أمورهم وتخليصهم من حكم وسيطرة الطرق الصوفية فأجابهم محمد الشريف ، إلا أنه اصطدم بحكام الجزائر ، وفشل فى تحقيق نتيجة إيجابية وخلفه أخوه الرشيد الذى كان ذو كفاءة فاستولى على تافلات ، وبدأ التوسع متفقاً مع العثمانيين على الحدود الفاصلة بين الجزائر ومراكش ثم بسط سلطانه على مراكش ، وامتد إلى الريف ، والرشيد يعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقى للدولة الشريفية العلوية فى المغرب .

وخلفه أخوه اسماعيل الذى سار على نهجه وفاقه فى أعماله حيث اعتبره المورخون من أعظم السلاطين فقد دعّم البلاد بجيش قوى نظامى ، فرفعت أعماله هيبة مراكش أمام العالم بعد أن تمكن من تحرير العديد من الجيوب التى كان يسيطر عليها الأوربيون على السواحل ، وفى معاملاته مع الإنجليز والعثمانيين ظهر موقفه القوى ، والتعامل بالندية .

كما كان على الصعيد الداخلى والمحلى قد اشتهر بالحزم والقوة ،والبطش أحياناً ، ولا سيما مع من كانوا يهددون سلطانه من أفراد أسرته .

وقد امتد حكم إسماعيل ما يقرب من نصف قرن من سنة ١٦٧٢ م إلى ١٧٢٧ م وخلفه مجموعة ضعيفة من الحكام زعزعت عرش البلاد حتى تولى حكمها محمد

---

(١) د/ صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٩٥ وما بعدها .

ابن عبد الله سنة ١٧٥٧ م الذى نعمت البلاد فى عهده بشىء من الاستقرار كما نشطت التجارة كذلك بشكل ملحوظ ، وعقد مع دول أوربية علاقات تجارية ، وكذلك مع الولايات المتحدة الأمريكية التى عقد معها معاهدة صداقة وتجارة ، واستلزم ذلك إنشاء ميناء موجادور على أثر ازدياد ورواج التجارة ، ثم استرد مزغان من البرتغاليين .

وأقام محمد كذلك علاقات وثيقة مع العثمانيين ، وأدى ارتباطه مع شريف مكة الشريف سرور بالمصاهرة أن زاد الاتصال بين البلدين ، وتمكن محمد بن عبد الله كذلك من استعادة طنجة من براثن الأوربيين حيث كان البرتغاليون قد استولوا عليها مرة ثانية بعد استقلالهم عن الأسبان .

وعندما أراد ملك البرتغال أن يتزوج من ابنة شارل الثانى ملك انجلترا وهبه طنجة كجزء من المهر لابنته ، ولكن المراكشيون تمكنوا فى سنة ١٦٨٤ م من ضرب الحصار عليها ، وتشديد قبضتهم حتى اضطر الإنجليز إلى الإنسحاب منها .

ولكن الخطأ الكبير الذى وقع فيه محمد بن عبد الله هو منحه امتيازات أجنبية فى المعاهدات التى أبرمها مع فرنسا كانت وبالاً بعد ذلك حيث ساعدت على تدخل الأجانب فى شؤون مراكش ، واحتلالها من قبلهم فيما بعد[١] .

وانتهى عهد محمد بن عبد الله فى سنة ١٧٩٤ م فى وقت تغيرت فيه الأحداث الدولية ، وأصبح إيقاعها سريعاً بعد الثورة الفرنسية والصراع الدولى فى القارة الأوروبية ، والأمر الذى جعل المولى سليمان يتخذ سلسلة من التصرفات الغريبة ليتحاشى الاصطدام بالدول الأوربية ، وباع سفنه لتونس ، والجزائر وحرم على رعاياه التجارة فى البلاد النصرانية .

---

(١) د/ صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٦٤ وما بعدها .
وانظر : د/ زاهية قدورة ـ تاريخ العرب ـ ص ٥٣٦ وما بعدها .

كما حدد للقنصليات الأجنبية مدينة طنجة كمقر لها ، وامتنع عن المشاركة بدور واضح فى السياسة الدولية ففرض بذلك العزلة على بلاده ، وفى الوقت الذى كانت فيه الدول الأوربية تطمع فى السيطرة على بلاد المغرب كلها : المغرب الكبير .

وقد تولى بعد سليمان المولى عبد الرحمن سنة ١٨٢٤ م ، وحاول جاهداً أن يعيد حركة الجهاد البحرى إلا أنه فشل فى ذلك فقد وصل الاستعمار الفرنسى إلى جارته الجزائر ، وقبضت على زمام الأمور فى هذا القطر المغربى الشقيق[1] ومع ذلك فلم يفعل سلاطين مراكش العلويين مثل غيرهم حيث إنهم قد أحجموا عن مديد العون للأوربيين ، وظلت أيديهم بيضاءعن هذه الدنية .

إلا أنهم ترددوا فى مساعدة الجزائريين خشية من فرنسا وتهديداتها العسكرية فاضطر عبد الرحمن للتراجع عن المساعدة لإخوانه ، وعن مقاومة القوى الأوربية المتصارعة .

إلا أن عبد الرحمن لم يستطع وقف وكبح مشاعر القبائل على الحدود مع الجزائر التى كانت تؤيد حركة المقاومة التى تزعمها الأمير عبد القادر فى الجزائر ، ولذلك كانت فرنسا تحتج المرة تلو الأخرى واضطر كذلك عبد الرحمن إلى الخروج عن سياسته التقليدية فى عدم الاحتكاك عندما عمد القائد الفرنسى بيجو إلى الانتقال للحدود مع مراكش واحتل مدينة وجدة ، فى الوقت الذى كان يحاول فيه بيجو إغراء دولته باحتلال مراكش أو جزء منها .

على أثر ذلك اتحدت جيوش المولى عبد الرحمن مع جيوش الأمير عبد القادر الجزائرى تؤازرهم قوات من القبائل الشرقية حتى بلغ الجميع ستين ألفاً إلا أنهم هزموا أمام القوات الفرنسية المنظمة ، والمسلحة تسليحاً حديثاً .

ورغم تقدم القوات الفرنسية فى داخل البلاد المراكشية إلا أنها اضطرت

---

(١) د/ جلال يحيى - المغرب الكبير - جـ ٣ - ص ٧٦ ، ٧٧ .

للانسحاب منها خشية من المواجهة مع بريطانيا التى لم تكن لترضى عن سيطرة فرنسا على موقع مراكش وتوابعه الاستراتيجى ، واضطرت مراكش لقبول معاهدة مع فرنسا سنة ١٨٤٤ م مستسلمة لمطالبها ، ورسمت الحدود بين الجزائر ومراكش مع ما فيها من مشاكل قسمت القبيلة الواحدة إلى شطرين ، كما بدأت فرنسا تمد تحركاتها فى الصحراء الكبرى التى اعتبرتها الاتفاقية أرضاً مشاعاً مستغلة ظروف أن فرنسا هى الأقوى .

ولم يكن يثنيها عن احتلال مراكش سوى التهديدات البريطانية لفرنسا [١] .

وشهدت الفترة التالية (النصف الثانى من القرن التاسع عشر) تكالب الدول الأوربية الاستعمارية على فتح أبواب المغرب فى محاولة من كل منها لاحتلاله ، ولذلك فقد عقد مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ م اتخذ فيه المؤتمرون قراراً نص على المحافظة على استقلال المغرب ، وتركه مفتوحاً للتجارة الحرة مع جميع الدول .

وظهر فى هذه الفترة أن تكالب دول عديدة ومحاولتها احتلال المغرب قد جاء فى صالحه ، إذ أن كل دولة منها كبحت جماع الأخرى عن تحقيق هذا الهدف ، ولكن تولى أمره نخبة من السلاطين الضعاف ، وانتشار المشاكل التى أخذ يحتج بها الأوربيون وخاصة وجود وانتشار اللصوصية الذى أوقع المغرب فى حرج أمام الدول الأوربية .

أضف إلى ذلك الترف واللهو والإسراف الذى عاش فيه المولى عبد العزيز (١٨٩٤ ـ ١٩٠٨) م ، واضطراره إلى فرض الضرائب ، ثم عدم جدواها فاضطر إلى الاقتراض من الدول الأوربية حيث شجعته فرنسا على ذلك لتوقعه فى الشرك نفسه الذى وقعت فيه مصر وتونس (قبل ذلك) ليكون ذلك طريقاً وذريعة لاحتلال البلاد .

وكان مجال القروض التى عقدت فى سنة ١٩٠٣ ، ١٩٠٥ ، ١٩٠٦ م هو

(١) د/ صلاح العقاد ـ المغرب العربي ـ ص ٢٠٥ وما بعدها .

الوسيلة التى حاولت بها فرنسا للاستيلاء على المغرب بنشاط سرى دون أن تثير حفيظة غيرها من الدول ، ولكن تغير الظروف الدولية قد أطاح بمعاهدة مدريد التى أشرنا إليها ، فقد سعت فرنسا إلى اتفاقية مبادلة مع انجلترا على أساسها يتم إطلاق يد فرنسا فى مراكش فى مقابل إطلاق يد انجلترا فى مصر .

وظلت هناك معضلة كحجر عثرة أمام فرنسا بعد تخطيها معارضة انجلترا وكانت المعضلة هى ألمانيا التى باتت تراقب الموقف عن كثب لمصالحها العديدة فى المغرب .

وفاجأ الإمبراطور الألمانى البلاد المعنية بزيارته إلى طنجة بالمغرب سنة ١٩٠٥ م وإعلانه وجوب الحفاظ على اسقلال المغرب ، والحفاظ عليه مفتوحاً أمام التجارة الحرة لجميع الدول ، وكان يهدف من إعلانه إحراج موقف فرنسا التى تعد العدة لالتهام مراكش ليس هذا فحسب بل مضى الإمبراطور الألمانى فى سياسته فأقنع روزفلت الرئيس الأمريكى بعقد مؤتمر دولى لضمان استقلال المغرب الأمر الذى عارضته فرنسا .

ورغم أنف فرنسا انعقد المؤتمر على السواحل الأسبانية سنة ١٩٠٦ م حضرته ١٢ دولة من بينها المغرب ، وتمخض عن قرارات تضمنت المحافظة على استقلال المغرب وسيادته على أراضيه [١] .

ومع ذلك فقد تذرعت فرنسا ببعض الحوادث الفردية والجماعية وحماية الأوربيين ، وانطلقت تستولى على بعض البلاد المغربية ، كما أن إغراق المغرب فى الديون قد شجع فرنسا على احتلال عاصمة البلاذ (فاس) ، وفى المقابل تنازلت فرنسا لألمانيا عن مساحات شاسعة فى السودان الفرنسى نظير إطلاق يد فرنسا فى المغرب .

---

(١) روم لاندو - تاريخ المغـــرب في القرن العشرين - ترجمة / نقولا زيادة - بيروت - ١٩٦٣ - ص ٥٢٠ وما بعدها .

وفى ٣٠ من مارس سنة ١٩١٢ تمكنت فرنسا من اقناع السلطان عبد الحفيظ (الذى كان حاكماً حينئذ على المغرب) بإبرام معاهدة حماية وتظاهر الطرفان بأن ذلك لمصلحة البلاد ، وأنها لقيت ترحيباً من أهل فاس ، وكانت هذه مغالطة كبيرة إذ أن أهلها قد عدوا ذلك خيانة للدين والوطن وانتهى أمر المغرب بأن منحت أسبانيا نسبة ٠٥, ٠ من أرضه ، بينما تركت طنجة ميناء يخضع لإدارة دولية [1] .

السياسة الفرنسية ومقاومة المغربيين لها :

عمدت فرنسا إلى وسيلة الفرقة بين الأهالى عندما أصدرت مرسوم : « الظهير البربرى » ويهدف المرسوم إلى تأصيل التقاليد البربرية وجعلها بديلاً للشريعة الإسلامية الأمر الذى لمس الوتر الحساس عند المسلمين فاشتعلت المقاومة ولم تتوقف حتى عجزت فرنسا عن السيطرة على البلاد طوال عشرين عاماً .

كما عمدت فرنسا إلى إعادة ما صنعته فى الجزائر بنقل مواطنين فرنسيين إلى المغرب ، وسهلت لهم السيطرة على الأراضى الزراعية ، وعلى الموارد المعدنية والمؤسسات الاقتصادية الهامة ، كما عينتهم فى كبرى الوظائف فى حين لم تترك للمغاربة سوى الوظائف الصغيرة ، وبلغ ما تملكه الفرنسيون من الأراضى حولى ٣٠ ٪ اختيرت من أجودها وأخصبها .

ولذلك فقد انفجرت المقاومة المغربية ببسالة فى وجه المحتل الفرنسى حيث ظهر لها قادة كان أعظمهم على الإطلاق هو :

الأمير عبد الكريم الخطابى :

هو أحد أفراد أسرة كبيرة كانت تسيطر على منطقة الريف التى كانت تحت حكم إسبانيا ، وكان هو وأخوه محمد خبيران بالشؤون السياسية حيث إنهما نالا قسطاً كبيراً من الثقافة الغربية بالإضافة إلى الثقافة الوطنية ، وقبل ثورته تعلم الأسبانية

---

(١) د/ جلال يحيي - المغرب الكبير - جـ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .
وانظر : روم لاندو - تاريخ المغرب في القرن العشرين - ص ١١١ .

والفرنسية ، وكان يعلم الموظفين الأسبان اللغة البربرية ، وقد سجن سنة ١٩٢١ لخلاف بينه وبين ضابط أسبانى ، ولكنه فر من السجن .

وبدأ ينظم مجموعة من الرجال وجمع الناس حوله فى ثورة مسلحة ، وأراد تحرير منطقة الريف من السيطرة الأسبانية ، حيث التقى بهم فى معارك عديدة هزمهم فى الكثير منها .

ففى سنة ١٩٢١ قضى على جيش أسبانى بأكلمه بلغ عدده عشرين ألفا بالقرب من مدينة مليلة ، حتى تسبب ذلك فى وقع انقلاب بأسبانيا ، واستطاع فى سنة ١٩٢٤ م إجلاء الأسبان عن بعض مناطق من الريف واسعة وبدأ ينطلق للمناطق التى تحتلها فرنسا .

إلا أن الخلاف بين رجاله مكن الفرنسيون منه فهزموه ، واستسلم سنة ١٩٢٦ م وتم نفيه إلى إحدى جزر المحيط الهندى حيث ظل بها حتى سنة ١٩٤٧ م عندما لجأ إلى مصر من منطقة السويس أثناء مروره بها إلى فرنسا وبالطبع مثله مثل غيره من المجاهـــدين والمناضلين لقى كل تكـــريم وترحيب يليق بأمثاله فى مصـــر حيث ظل يواصل جهاده إلى أن حصل المغرب على استقلاله ، ووافته المنية بالقاهــرة فى سنة ١٩٦٣ م .

وقد فجر عبد الكريم بجهاده عملياً وسياسياً وعسكرياً طاقات الشباب المغربى الذى أخذ يطالب بالحرية فى مجلة المغرب التى انشأوها والتجمعات السياسية التى قادها علال الفاسى ، وأحمد بلفريج حتى شكل المغربيون حرب الاستقلال فى سنة ١٩٤٤ م .

وبدأ يقيم المؤتمرات ويدعو إلى استقلال البلاد ، وتكونت جبهة واحدة موحدة من الأحزاب كلها سنة ١٩٥١ م ظلت تناضل حتى نال المغرب (مراكش) استقلاله من فرنسا سنة ١٩٥٦ م بعد قيام حكومة ملكية دستورية فى سنة ١٩٥٥ وبذلك أعيد السلطان محمد بن يوسف للحكم ، كما نال المغرب استقلاله من أسبانيا وتحقق

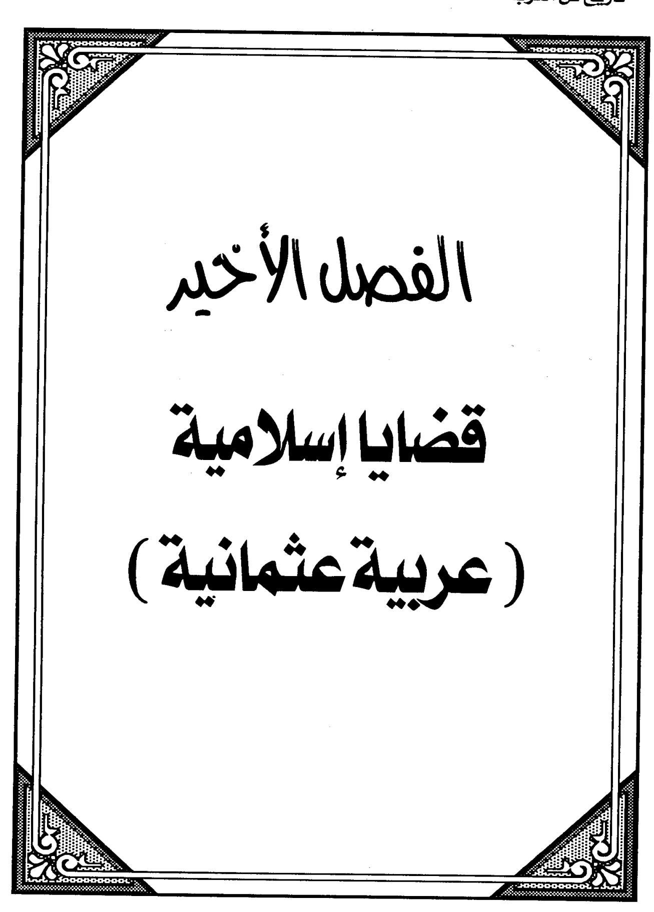
استقلال البلاد كلها فى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٦ م ، كما أعيدت طنجة إلى سيطرة المغرب عليها بعد أن كانت منطقة دولية وانضم المغرب للأمم المتحدة ، وجامعة الدول العربية فى العام نفسه .

وفى سنة ١٩٦١ م تحقق جلاء القوات الفرنسية عن جميع قواعدها فى المغرب ، وكذلك تم تصفية القواعد الأمريكية فى العام التالى .

وتجدر الإشارة إلى أن السلطان محمد بن يوسف قد وافته المنية فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٦١م ، وخلفه على العرش ابنه الملك الحسن الثانى[1] .

• • •

(١) روم لاندو ـ تاريخ المغرب في القرن العشرين ـ ص ١٩١ وما بعدها .
وانظر : محمود شيت خطاب ـ المغرب العربي ـ ص ٢١٥ .



الفصل الأخير

قضايا إسلامية

(عربية عثمانية)

سياسة السلطان عبد الحميد والجامعة الإسلامية :

تدنت أحوال الدولة العثمانية ، ووصلت إلى أسوء حالاتها فى القرن التاسع عشر ، الأمر الذى دفع بفريق من الترك الأحرار على رأسهم مدحت باشا إلى عزل السلطان عبدالعزيز ، وإرغامه على التخلى عن عرش السلطنة فى ٣٠ من مايو سنة ١٨٧٦ م ، وجاءوا بمراد الخامس الذى لم يجلس على أريكة الحكم سوى بضعة أشهر نظراً لاختلال شخصيته وقواه العقلية ، فجاءوا بأخيه الأصغر عبد الحميد الثانى ونصبوه فى ٣١ من أغسطس سنة ١٨٧٦ ودعوه إلى إقامة دستور للبلاد .

وقد كانت فكرة الدستور بنظامه الحديث ، فى العالم الإسلامى تعد من الأفكار الغريبة نوعاً ما فيما أعتقد إذ أن المسلمين قد ظلوا طوال قرون العصور الإسلامية يلتزمون عقائدياً ، ودنيوياً بدستور الإسلام : القرآن وشرح السنة له ، ومع ذلك فقد ظهرت الدساتير فى العالم الغربى ، وكان رفاعة الطهطاوى هو أول من ترجم الدستور الفرنسى إلى لغة شرقية ، وحمل معه هذه الترجمة عند عودته من باريس إلى القاهرة سنة ١٨٣١ م

وبدأت فكرة المطالبة بالدستور ـ بمختلف أشكاله ـ فى المنطقة العربية والإسلامية تظهر على السطح ، فأصدر باى تونس دستور (عهد الأمان) سنة ١٨٥٧ م ـ كما ذكرنا من قبل ـ وأعد الخديوى إسماعيل وثيقة اعتبرت قانون أساسى لمصر ، وكان ذلك قبل اعتزاله الحكم سنة ١٨٧٩ [١] .

وجاء تولى السلطان عبد الحميد الثانى فى ظروف دولية صعبة وقاسية على الدولة العثمانية وولاياتها فى العالم الإسلامى ، إذ كان الغرب قد أخذ بأسباب الحضارة والتقدم ، وأخذت الدولة العثمانية بأسباب التأخر ، فضلاً عن أن مصدر

---

(١) نقولا زيادة ـ أبعاد التاريخ اللبناني الحديث ـ ص ٢٢٦ .

قوتها ، وهى تعاليم الإسلام قد بدأت تتخلى عنها ، أو قل تتخذها مظهراً لا جوهراً .

وثالثة الأثاث فى ضعف الإنكشارية وفساد نظامهم فى السنوات الأخيرة ، وفشل كل محاولات إصلاحها بالإضافة للضربات المتلاحقة التى منيت بها الانكشارية على يد الروس ، وفى حروب شبه جزيرة القرم ، وضياع الجيش والبحرية العثمانية فى معركة نصيب فى الشام أمام قوات محمد على سنة ١٨٣٨ م .

ولذلك فقد وقعت ولايات عثمانية عديدة فريسة الأطماع والاستعمار الأوربى فقد استولت بريطانيا على عدن سنة ١٨٣٩ م ، كما استولت بصور شتى على الخليج العربى ، والعراق ، وبعد فترة استولت على مصر سنة ١٨٨٢ م ، والسودان بعدها بقليل .

بينما استولت فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، وتونس سنة ١٨٨١ م ، ومراكش (المغرب) سنة ١٩١٢ م ، ثم سوريا ولبنان بعد الحرب العالمية الأولى فى حين استولت إيطاليا على بعض الممتلكات المصرية فى شرق أفريقيا (مستعمرة عصب ومصوع) ، واستولت على ليبيا سنة ١٩١١ م وبات الاستعماريون لا هم لهم سوى استنزاف خيرات وشباب المسلمين العرب لمصالح بلادهم وللسياسة التى انتهجوها .

فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تحاول عزل ولاياتها العربية عن العالم الخارجى ، والتحدث باسمهم الأمر الذى شق عليها أن تعى كل مشاكلها ، والضغوط الحديثة التى تعانى منها هذه الولايات فى ظل امتيازات أجنبية جلبتها الدولة على رؤوس العرب كسيف استنزف خيراتهم بمسميات شتى .

فى هذه الظروف الحالكة حاول عبد الحميد وبعض المخلصين الخروج من المأزق فكان الدستور الذى وجد فيه عبد الحميد تقييدا لحريته واستبداده .

فانقلب عليه وأطاح به سنة ١٨٧٧ م متذرعاً بإعلان روسيا الحرب (١٨٧٦ ـ ١٨٧٨ م) كما عصف برجاله : مدحت باشا ، وأعضاء البرلمان الذين أعيد بعضهم إلى مواطنهم ونفى البعض الآخر إلى مناطق نائية ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه من حكم مطلق .

ولجأ عبد الحميد ـ أمام هذه الرياح العاتية ـ إلى سياسة إسلامية استخدمها لمقاومة المعارضين فى الداخل والخارج ، وكذلك فى مواجهة أعدائه فأحيا الخلافة الإسلامية ، وأبرز بعناية أن السلطان بوصفه خليفة أعلى هو حامى حمى الدين الإسلامى تحت شعار الجامعة الإسلامية ، وأخذ يضرب على الأوتار التى تمس المسلمين جذباً لتأييدهم ، حتى يتسنى له القضاء على الحركات الدستورية التى تزعمها أحرار الترك ، والحركات الانفصالية التى قامت فى البلاد العربية ، والولايات الإسلامية الأخرى .

ومن جهة أخرى فقد استهدفت سياسة عبد الحميد الإسلامية (الجامعة الإسلامية) كسب ورقة الحماس الدينى لدى المسلمين فى صفه عند رعايا بريطانيا فى الهند ، ورعايا فرنسا فى الشمال الإفريقى ، ورعايا روسيا فى القوقاز والتركستان ، وكسب تأييدهم له فى مواجهة الدول الاستعمارية ليمثلوا ضغطاً عليها ولذلك أخذ يهدد بإثارة هذه الأمم الإسلامية فى وجه تلك الدول [١] .

ولم يكن هذا السلوك الحميدى من طرف واحد بل كانت الشعوب الإسلامية هى الأخرى تشخص بأبصارها فى اتجاه الدولة العثمانية لحمايتها مثلما حدث فى الهند بعد الفراغ القيادى لامبراطورية المغول الهندية على أثر الثورة والفتنة التى نشبت بالهند (١٨٥٧ ـ ١٨٥٨) ضد الحكم البريطانى ، وقضاء الانجليز على تلك القيادة .

---

(١) د/ السيد محمد الدقن ـ دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ـ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

كذلك كان الأهالى فى مصر ، وفى تونس ، وقبلها الجزائر والخاضعون للروس فى طشقند ، وسمرقند منذ سنة ١٨٦٨ م ، وبخارى ، وغيرها الجميع أخذو يستنجدون بالدولة العثمانية [١] ، فقد كان الأمر ثقيلاً على تلك الشعوب التى عودتها الدولة على الارتخاء ، وتولت مهمة الدفاع بالنيابة ، مما جعلها تغط فى سبات عميق قروناً طويلة .

نامق كمال ودعوته الإسلامية :

وكان أول من دعا إلى حماية العالم الإسلامى بالوسائل الثقافية لإحداث رابطة بين أجزائه هو محمد نامق كمال (١٨٤٠ ـ ١٨٨٨) م الذى دعا إلى الحرية ، وحب الوطن بما يتلائم والشريعة الإسلامية .

فقد كان مسلماً شديد التعلق بالمبادئ الإسلامية رغم ثقافته الأوربية التى كان يدعو للاقتباس منها بما يوافق شريعة الإسلام ، لأن محاسن الحضارة الأوربية استمدتها من الإسلام ، وما يأخذه المسلم منها لابد وأن يعلم أن هذه بضاعته ردت إليه ، حتى الديمقراطية التى يتشدق بها الغرب ما هى إلا تقليد بسيط لأوامر الله للنبى ـ ﷺ ـ وللمسلمين : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ** ﴾[٢] ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾[٣] فكان نامق يردد هذه الآيات دائماً حتى أن الأتراك العثمانيين باتوا يستخدمون النصين الكريمين بكثرة فى أواخر القرن التاسع عشر .

كما اعتبر نامق أن ما جاء فى كتاب روح القوانين Esprit des Lcis لمونتسكيو Montesquieu charlesسنة ١٨٦٣ ، ما هو إلا ترديد للقوانين التى تحمل العدالة والحكمة التى جاءت ونادت بها الشريعة الإسلامية ، ولذلك أخذ نامق فى ترجمة الكتاب المذكور [٤] .

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ٣ ـ ص ١١٨١ ، ١١٨٢ .

(٢) الآية ١٥٩ من آل عمران .

(٣) الآية ٣٨ من سورة الشوري .

(٤) د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ٣ ـ ص ١١٨٢ وما بعدها .

جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ــ ١٨٩٧) م :

أما جمال الدين فقد كان مفكراً عالمياً حيث استهدف قيام وحدة إسلامية تحت زعامة الدولة العثمانية ، ونشر فكره ورأيه فى العديد من الدول الأفريقية والأسيوية والأوربية فقد التف الناس حوله فى الهند ، وسمعت الجماهير لآرائه التحرية من ربقة الاستعمار ، ثم غادرها إلى مصر ـ للمرة الأولى ـ أوائل سنة ١٨٧٠ حيث أقام بها أربعين يوماً استغلها فى نشاط علمى فى دار سكنها بحى خان الخليلى القريب من الأزهر الشريف .

وغادر مصر إلى إسلامبول التى لقى بها حفاوة وتقدير خاصة من الصدر الأعظم عالى باشا ، وعينته الحكومة العثمانية عضواً فى مجلس المعارف فأبدى ملاحظاته لإصلاح مناهج التعليم ـ ولكن شيخ الإسلام هناك توجس خيفة من آرائه فأضمر له السوء ، وناصبه العداء كما ألب الناس عليه ، مما اضطره للرحيل إلى مصر ثانية فى مارس سنة ١٨٧١ م ، وفيها قرر له الخديوى إسماعيل راتباً (عشرة جنيهات شهرياً)

ظل الأفغانى فى مصر ثمانية أعوام ونصف ، نهل فيها المجتمع المصرى من أفكاره الإسلامية لإيقاظ وعى المسلمين ، وإثارتهم على أعدائهم ، حتى خشى منه الإنجليز والخديوى توفيق [(١)] فأصدر توفيق فى رمضان ١٢٩٦ اغسطس ١٨٧٩ أمراً بنفى الأفغانى مدعياً عليه أنه رئيس جماعة سرية اجتمعت على فساد الدين والدنيا [(٢)] ، وأن الحكومة المصرية أبعدته ، ووجهته من طريق السويس إلى الأقطار الحجازية [(٣)] .

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٣ ـ ص ١١٨٨ ، ١١٨٩ .

(٢) انظر تفاصيل أعماله في مصر في كتاب .

د/ مصطفي محمد رمضان ـ تاريخ الحركة الوطنية ـ ص ٢١٦ وما بعدها .

(٣) الوقائع المصرية ـ العدد ٨٢٦٠ ـ بتاريخ ١٣ من رمضان سنة ١٢٩٦ هـ / ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٩ م .

وانظر : د/ سعد الحلواني ـ العلاقات ـ ص ١١٣ .

ولكنه انتقل إلى الهند بسفينة بريطانية فأقام فى حيدر أباد ، وألف فيها كتابه : رسالة فى إبطال مذهب الدهريين - ورد على داروين Darwin وراقبته الحكومة الإنجليزية محددة إقامته فى كلكتا بالهند حتى انتهت الثورة العربية فسمحت له بالسفر إلى أى مكان ما عدا الشرق .

انتقل الأفغانى إلى انجلترا (لندن) سنة ١٨٨٣ ، ومنها إلى فرنسا (باريس) حيث أصدر فيها جريرة : العروة الوثقى التى عاونه فيها الإمام : محمد عبده ، وميرزا محمد باقر ، وظل على اتصال بتلاميذه فى مصر ، وغيرها وهو ينتقل بين باريس ولندن ، ثم ذهب إلى فارس ، ومنها إلى روسيا التى أخذ ينشر فى صحفها مقالاته وينتقد فيها السياسة البريطانية ، كما طبع المصحف الشريف بها ، وبعض الكتب الدينية لمسلمى الروس .

ثم اتجه الأفغانى إلى ميونخ بألمانيا ومنها إلى فارس التى نشر بها آرائه التحررية ، واجتمع عليه الخاصة والعامة بل والقادة كذلك ، حتى وشى به الرجعيون عند الشاه فى الوقت الذى كان يطالب فيه الأفغانى بالحرية والعدل والاصلاح فاقتاده الفرس إلى الحدود مع العراق (العثمانية) ومنها إلى لندن حيث أسهم فى جريدة شهرية عربية إنجليزية اسمها : « ضياء الخافقين » كان متحاملاً فيها على الشاه داعياً الشعب الفارسى إلى عزله .

وقد دعا السلطان عبد الحميد إلى إسلامبول فلبى دعوته ، وظل بها إلى أن لقى ربه فى سنة ١٨٩٧ م[1] ، فقد كان الأفغانى يعمل على توحيد كلمة المسلمين تحت ظل الخلافة العثمانية ، ويعلق عليها آمالاً فى حمايته من الاستعمار الأوربى .

ولذلك تلاقت هذه الدعوة الأفغانية مع دعوة السلطان العثمانى عبد الحميد للجامعة الإسلامية ، وظل الطرفان يعملان على هدم القومية التى يغنى عنها الرابطة الإسلامية الأوسع والأقوى .

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوي - الدولة العثمانية - جـ ٣ - ص ١١٨٩ - ١١٩٠ .

ثم تطور فكر الأفغانى برؤية دفاعية عن العروبة ـ دون أن يتخلى عن الاتجاه الإسلامى ـ وأن اللسان العربى هو لسان الدين بل غالى فى ذلك إلى أن طالب بتعريب الدولة العثمانية ، وعدد المحاسن والنتائج الإيجابية التى من الممكن حصادها لو تعربت الدولة ، وأن فى ذلك عزها ومنعتها .

ولذلك فقد دَبَّ الخلاف بين الأفغانى والسلطان عبد الحميد إذ أن الأول أخذ يدعو إلى دولة لا مركزية ، واستشهد بالخديوية المصرية التى تمتع حاكمها بسلطان واسعة (فى عهد إسماعيل) وأراد الأفغانى ترك الولايات تحذو حذو مصر ، وتتوقف الدولة عن إرسال الولاة لتقوم خديويات قوية وفى ذلك تشجيع لفارس وأفغانستان ، والهند على الانضواء تحت راية الخلافة اللامركزية ، ويصير السلطان العثمانى ملك لهؤلاء الملوك ، وليس ملكاً لولاة ضعاف أكل الزمان وشرب على نظامهم .

إلا أن السلطان عبد الحميد رفض أفكاره اللامركزية ، ولا سيما أن الأفغانى كان يحمل بين أفكاره مطالب دستورية تنظم الممالك التى طالب بتحويل الولايات إليها ، كما طالب بتحويل النظام الاستبدادى إلى نظام شورى ، الأمر الذى زاد شكوك السلطان وأسرع إلى إغلاق جريدة البيان التى أصدرها أحد مريدى الأفغانى (محمد باشا المخزونى) سنة ١٨٩٣ م [١] .

ويبدو أن شجاعة الأفغانى وجرأته فى آرائه ، وإعلانها على الملأ سواء فى الإسكندرية ، فى القاهرة ، وكذلك فى إسلامبول ، وأوربا ، وبلاد فارس وفى الصحافة التى دفع الناس إلى إنشائها ، وما أنشأه هو منها كل ذلك قد جعل الحكام ، وأصحاب المناصب الكبيرة والنفوذ يخشون ويقلقون على كراسيهم ومراكزهم فناصبوه العداء سواء كان ذلك من السلطان وصدرة الأعظم أم من الخديوى ، أم من الإنجليز ، وشاه الفرس ، كل هؤلاء وبعض حاشيتهم ، ومن دار فى فلكهم وقفوا

---

(١) د/ محمود صالح منسي ـ تاريخ الشرق العربي ـ ص ١٠٦ وما بعدها .

فى مواجهة شخص واحد هو الأفغانى .

ويذكر أستاذنا الدكتور / السيد الدقن [١] : أن السلطان العثمانى كان يود استغلال الأفغانى أحسن استغلال تحقيقاً لمصلحته الشخصية ، ولذلك عندما وجد الأفغانى أن سياسة عبد الحميد موجهة ضد الأحرار والثوار ، وقف منه موقفاً عدائياً دون أن يتحرز فى توجيه اللوم إليه ، حتى أن الأفغانى دخل على السلطان يوماً طالباً منه أن يقيله من بيعته ، وقال له : « بايعتك بالخلافة والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد . . . »

ورغم ترددى فى التسليم بإمكانية تجرؤ الأفغانى على هذه المقولة ، إلا أنه ربما قد وصلت العلاقة بين الطرفين إلى حد شجعت الأفغانى على مصارحة السلطان برأيه ، بالإضافة إلى أن الرجل كان بلا شك مفرطاً فى الجرأة والشجاعة .

وتجدر الإشارة إلى أن سياسة عبد الحميد الإسلامية ، وحركة الجامعة الإسلامية قد قامت على أسس ودعائم كبيرة اهتم بتميتها كان على رأسها : الخلافة التى أراد إحياء عظمتها ، واسترداد هيبتها فى العالم الإسلامى ، واستمالة الشخصيات الكبيرة ووجهاء هذا العالم .

والدعامة الثانية : هى الحج والعمل على تيسيره ، واستثماره فى إعلاء مكانة السلطان ، كما عمل على إنشاء سكة حديد الحجاز لتيسير سبل الانتقال إلى مكة والمدينة ، والعودة منهما بيسر وسهولة وأمان [٢] .



(١) د/ الدقن - دراسات في تاريخ الدولة العثمانية - ص ١٢٧ .
(٢) د/ السيد الدقن - دراسات في تاريخ الدولة العثمانية - ص ١٢٧ وما بعدها .
وانظر : د/ محمود صالح منسي - تاريخ الشرق - ص ١١١ وما بعدها .



عوامل ضعف وانهيار الدولة العثمانية وأثرها على العالم العربى

أولاً : العوامل الخارجية .

ثانياً : العوامل الداخلية

تعددت العوامل والأسباب التى أدت إلى ضعف وانيهار الدولة العثمانية ، وهى فى نظرى كثيرة جداً متشابكة سأعرض فى هذه العجالة إلى أقواها وأشدها تأثيراً على العالم العثمانى بعامة ، والعالم العربى بخاصة :

أولاً : العوامل الخارجية

١ ـ تكالب الأمم الأوربية بخاصة ، والنصارى بعامة على الدولة وولاياتها منذ أن قامت ، واتسعت ، واحدثت خللاً وارتباكاً فى التوازن الأوربى الدولى باستيلائها على العديد من البلاد الأوربية وتدمير جيوشها ، وتحالفت مع جهات فيه لتدمير جهات أخرى (كما حدث فى التحالف مع فرنسا ضد جيرانها الأوربيين) ، وربما كان الأمر أقدم من ذلك وأعمق .

فمنذ أن انتشرت راية التوحيد الإسلامية ، واستطاع المسلمون تقويض الإمبراطوريات الكبرى رومانية نصرانية ، وفارسية وثنية ، واستيلاء المسلمين على بلاد عديدة فى أوربا وآسيا ، وانتشار الإسلام ، وممالكه فى مناطق عديدة قد جعل هناك (عند الأوربيين بخاصة) حالة من الثأر ملتهبة ، فعملوا طوال سنوات عديدة على إعادة الكرَّة على المسلمين فى الأندلس مستغلين انشغال المسلمين بالترف واللهو والثقافة والعلم فى أخريات حياتهم فيها ، والأهم خلافاتهم ، ونجح الأوربيون فى إخراجهم منه محققين بذلك بعض أهدافهم للأخذ بالثأر من المسلمين والنيل منهم ، ثم استداروا على العالم الإسلامى الذى كان أغلبه قد خضع للعثمانيين محاولين إضعافه وتدميره فضلاً عن إضعاف وتدمير القوة الكبرى ، التى باتت تدافع عنه وتحميه (الدولة العثمانية) .

٢ ـ تغلغل اليهود فى القصور السلطانية وغيرها ، وفى بعض الأعمال المختلفة وإفساح بعض الدول الأوربية المجال لهم لبذل كل السبل التى تؤدى إلى إضعاف الدولة وانهيارها حتى يسهل على تلك الدول الإطباق عليها .

٣ ـ زوجات وحريم السلاطين العثمانيين من الأوربيات حيث كانت الكثيرات منهن تعملن على تقويض دعائم الدولة العثمانية بشكل عام فى أمور الحكم ، وإقصاء بعض الصالحين من خلفاء السلاطين وتولية الأقل صلاحية جعل هناك سلسلة من الحكام الضعاف يتولون أمر السلطنة العثمانية [١] .

٤ ـ وهو من أهم العوامل إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، ولذلك فقد أفردت له الدراسة المستقلة التالية :ـ

الامتيازات الأجنبية وأثرها على الولايات العربية :

شكلت الامتيازات الأجنبية التى حصلت عليها بعض الدول الأوربية منذ عهد مبكر فى تاريخ الدولة العثمانية حجر عثرة فى سبيل تقدم الولايات العربية والعثمانية كذلك إذا استغلت تلك الدول الامتيازات فى التدخل المستمر فى شئون الدولة العثمانية ، وعانت البلاد العربية كثيراً من هذه الامتيازات ولا سيما بعدما ضعفت الدولة العثمانية .

فقد عمل الأوربيون على إيقاظ النعرة الطائفية ، وإثارة الفتن والفرقة على طريق الاستعماريين (فرق تسد) ، وكانت هذه الامتيازات قد تمت على شكل نظم تعهدية لا تستطيع الدولة العثمانية ، ولا تملك حق إلغائها أو تعديلها من تلقاء نفسها فلم تكن الدولة تخشى من آثار الامتيازات إذ أنها عقدتها إبان عنفوانها وقوتها ، ولم تتأثر بها إلا بعد أن دب فيها الضعف ، وتكالبت عليهم الأمم والخطوب من كل حدب وصوب .

ويعود تاريخ هذه الامتيازات إلى عهد السلطان العثمانى محمد الفاتح بعد دخوله فاتحاً القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م مباشرة إذ أنه قد وضع أحكاماً خاصة

---

(١) انظر تفاصيل تغلغل نفوذ الحريم في شئون الدولة في كتاب .
د/ عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ ١ ص ٥٩٨ ـ ٦٣٩ .

بالأجانب (غير المسلمين) لتدبير أمورهم بمعرفتهم ، ومنح الجاليات الأجنبية التى تعمل بالتجارة فى أنحاء الدولة العثمانية امتيازات خاصة تشجيعاً لهم ، ودفعاً للتجارة أملاً فى رواجها ، وأول مثل على ذلك ما صنعه محمد الفاتح مع التجار الجنويين الذين كانوا يقيمون فى ضاحية جلاطة ، بمدينة القسطنطينية والامتيازات التى نالوها منه [١] .

١ ـ وفى عهد السلطان بايزيد الثانى (١٤٨١ ـ ١٥١٢) م بدأت تلوح فى الأفق علاقات بين الدولة العثمانية مع مملكة الروس التى كانت قد تفرق شملها بعد أن اكتسحها المغول وتسلطهم عليها حتى تمكن دوق موسكو (إيوان الثالث) من استعادتها منهم ، وإعادة عنفوانها ومجدها السابق سنة ١٤٨١ م .

وقد بدأت الاتصالات سنة ١٤٩٢ م عندما وصل إلى إسلامبول أول سفير روسى يحمل مجموعة من الهدايا للسلطان بايزيد الثانى ، وبعدها بأربع سنوات استطاع سفير روسى آخر أن يحصل على مجموعة من الامتيازات للتجارة الروس فى أرض الدولة العثمانية [٢] كانت مقدمة لتلك الامتيازات التى تبعتها أخرى وأطماع روسية مستمرة فى ممتلكات ومواقع العثمانيين الاستراتيجية .

وعندما دخل السلطان سليم الأول مصر سنة ١٥١٧ م عقد مع جمهورية البندقية معاهدة لتشجيع رعاياها على استمرار وزيادة أوجه التعاون التجارى مع مصر فى جو من الأمان والسلام وشملت هذه المعاهدة مجموعة من الامتيازات نشير إلى بعضها الذى تحول فيما بعد إلى معوقات وشوكة فى جبين الدولة وولاياتها الإسلامية : ـ

٢ ـ فى المادة الخامسة : تقرر أن يكون للقنصل وحده حق تولى السلطة القضائية بين مواطنيه ، ويبت فى الأمور المتصلة بمصالحهم ، وهذه المادة قد تطورت فيما بعد

---

(١) د / السيد الدقن ـ دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ـ ص ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) محمد فريد بك ـ الدولة العلية . ص ٧٠ .

إلى امتيازات قضائية وصلت إلى الفصل بين الأجنبى غير المسلم ، والمسلم العثمانى عن طريق القناصل والمحاكم المختلطة ، وبها ضاعت الحقوق الخاصة بالأهالى العثمانيين .

المادة الثالثة عشر : نصت على إعفاء القناصل الأجانب من دفع الضرائب والرسوم إلا فى الحالات التى يصدر فيها أمر من السلطان أو حكم قضائى وبالتالى حدثت تجاوزات بسبب هذا البند فى مجال التجارة وتحصيل الرسوم عليها .

٣ ـ إعفـــاء البنادقة من ضريبة البهار التى كانت قد بلغت خمسة آلاف دينار سنوياً [١] .

وفى عهد السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) بدأت اتصالات سياسية وعسكرية مع فرنسا سعى إليها فرانسوا الأول بعد أن استفحل أمر عدوه اللدود الملك الامبراطور شارلمان الذى كان قد جمع ملك النمسا وأسبانيا وألمانيا ، وجزء كبير من إيطاليا بالإضافة إلى مدينة وهران بجزائرالغرب الأمر الذى جعله محيطاً من كل الجهات بملك فرنسا (ما عادا جهة البحر) [٢] .

وأدت الحروب بينهما إلى وقوع فرانسوا الأول أسيراً بعد هزيمته فى موقعة بافيا Pavia سنة ١٥٢٥ وسيق إلى أسبانيا سجيناً عند الإمبراطور شارلمان حتى أطلق سراحه سنة ١٥٢٦ [٣] . حينئذ عمل على محو خزى هزيمة بافيا وعار الأسر ، فبدأ يفاوض الدولة العثمانية واستمالتها كقوة عظمى إلى جانبه .

وبالفعل حدث تعاون عسكرى بينهما على إثر اتفاقية سنة ١٥٢٨ م خاصة ما قام

---

(١) د / عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية ـ جـ ٢ ـ ص ٧٠٠ وما بعدها .

(٢) محمد فريد بك ـ الدولة العلية ـ ص ٨٤ .

(٣) د / عبد الحميد البطريق وآخر ـ التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلي أواخر القرن الثامن عشر ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٩٧ ص ١٢٥ .

به السلطان سليمان من الاستيلاء على عاصمة المجر مرتين حيث كانت فى تعاون متسمر مع الإمبراطور شارلمان إضافة إلى استيلاء أخيه فرديناند على المجر بعد دخول سليمان فاتحاً لها لأول مرة ، وكذلك حصار سليمان لعاصمة النمسا (ڤيينا) وهدمه لأجزاء كبيرة من سورها ، ولولا الشتاء القارس ، ونفاذ ذخيرة المدفعية لأكمل استيلاءه عليها .

ويذكر البعض (١) : أن خير الدين باربروسا قد قام بدور بارز فى التقريب بين العثمانيين والفرنسيين فى هذا المجال .

وعلى أثر ذلك عقدت اتفاقيات بين فرنسا وقعها السفير الفرنسى المسيو لافورى ، فى فبراير سنة ١٥٣٥ م وسميت (معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا) منحت فرنسا فيها امتيازات لرعاياها فى الولايات العثمانية المحروسة اشتملت على :

حرية التجارة لرعايا الدولتين فى بلاد كل منهما ، وعدم زيادة الرسوم والضرائب التى يدفعها الفرنسى عما يدفعه التركى ، وكذلك الأمر نفسه فى الطرف الآخر .

والتأكيد على حسن معاملة قنصل فرنسا فى الإسكندرية ، وأن يتعامل بالقانون الفرنسى فى محاكمة رعاياه ، ثم نظمت فى الاتفاقية وسائل التعامل والمحاكمة بين الفرنسى والتركى التى تم تحريفها واستغلالها فى عهود الضعف العثمانية التى استشرت فيها الأطماع الأوربية (٢) .

كما تناولت اتفاقية سنة ١٥٣٥ مبدأ غريباً وهو : أن كل من يقيم فى الأراضى العثمانية مدة لا تتجاوز العشر سنوات لا يلزمه أحد بدفع الخراج أو أى نوع من أنواع الضرائب ، كما لا يكلف بأعمال رغما عن أنفه مثل الحراسات بأنواعها أو مصانع

(١) د/ جلال يحيي ـ العالم العربي الحديث ـ ١٩٩٧ ـ ص ٣٥ .
(٢) محمد فريد بك ـ الدولة العلية ـ ٩١ ـ ٩٢ .
وانظر : عبد العزيز الشناوي ـ الدولة العثمانية جـ ٢ ـ ص ٧٠٨ .

السفن . . الخ ويكون للعثمانيين الشيء نفسه في البلاد الفرنسية ، وأضيف إلى ذلك أيضاً دعوة ملك انجلترا والبابا ، وملك اسكتلندا للإنضمام إلى هذه المعاهدة [١]

والغرابة تكمن في شيئين الأول : إعفاء المقيم أقل من عشر سنوات من الضرائب والخراج ، وهو أمر لا يقبله المنطق ، والشيء الثاني حرص فرنسا على دعوة انجلترا للاتفاقية لتستفيد من الامتيازات في الأراضي العثمانية ، ثم نراها بعد عدة عقود تعارض بشدة المعاهدة التي أبرمتها إسلامبول مع انجلترا سنة ١٥٨٠ وسعي السفير الفرنسي لدى السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٦) لإلغائها .

وعلى كل فقد تمت هذه المعاهدة بعد مراسلات بين مراد الثالث وملكة انجلترا إليزابيث الأولى ، وانتهت إلى منح مراد الثالث للتجار الإنجليز تعهداً بحمايتهم ، وبحرية التجارة لهم [٢] ، وتوالت المعاهدات الإنجليزية بعد ذلك في سنوات تالية ، كما عقدت معاهدة أخرى بين هنري الثاني ملك فرنسا (ابن فرانسو الأول) والسلطان سليمان سنة ١٥٥٣ رهن فيها هنري الثاني سفن أسطوله الحربي الفرنسي لدى الأسطول العثماني حتى تتمكن فرنسا من دفع ما عليها من ديون للدولة العثمانية ومقدارها ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب [٣] .

وفي عهد السلطان سليم الثاني (ابن سليمان) ـ (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤) م جددت المعاهدات والامتيازات بين العثمانيين والفرنسيين (في عهد شارل التاسع) وأضيف عليها امتيازات جديدة للفرنسيين منها : إعفاء من دفع الخراج الشخصي وغير ذلك الأمر الذي أتاح للفرنسيين فرصة الزج بالإرساليات النصرانية وتداخل القناصل

---

(١) Hurewitz, J.C: Siplomacy in the neer and middle East - op - Cit vol.I.PP.3-5 .

(٢) نص المعاهدة عند : Hurewitz . J.C : OP. Cit. P.P. 7 - 9

(٣) محمد فريد بك ـ الدولة العلية ـ ص ١٠٢ .

الفرنسيين فى الشئون الداخلية للولايات بحجة حماية النصارى ، وهم فى الحقيقة يعملون على التمكين لهم خاصة إبان ضعف الدولة العلية [١] .

ويذكر أستاذنا الدكتور / السيد محمد الدقن [٢] : « أن هذه الامتيازات التى كانت فى الأصل منحة وتفضيلاً قد صارت قيداً فى عنق الدولة العثمانية ومخلة بكرامتها وسيادتها فى عهود ضعفها » .

فقد تم بناء على هذه الامتيازات تفضيل الأوربيين (الذين يقصدون البلاد العثمانية طلباً للرزق) فى ميادين القضاء ، والتجارة ، والعمل ، وحساب الرسوم والضرائب . . . الخ حيث شكلت لهم محاكم قنصلية خاصة على الأرض العثمانية ، دون تدخل أو سيطرة عثمانية عليهم ، بالأضافة إلى ما اغتصبه القناصل من حقوق اكتسبوها بقوة بلادهم ، ونفوذها .

العوامل الداخلية

كان على رأس العوامل الداخلية التى دمرت الدولة العثمانية :

١ ـ عملت الدولة على إضعاف قدرات ولاياتها العربية بشتى السبل خشية من الثورات والحركات الانفصالية التى كانت تقوم رغم أنفها ، ولكنها كانت تعمل على احتوائها بكل ما تملك وأصبح الاعتماد فى الغالب على قوتها العسكرية ، ولا سيما الانكشارية التى ما أن ضعفت حتى تدهورت الدولة عسكرياً ، وتتابعت الهزائم فى أغلب معاركها .

٢ ـ استعلاء العثمانيين واتجاههم أحياناً للعزلة عن المجتمعات التى خضعت لهم ، مما أدى إلى وجود فواصل كبيرة منعت من امتزاج الشعبين التركى والعربى نظراً لأنهم كانوا يزدرون العرب ، ويعتبرونهم أقل فالعرب فى نظرهم هم : الفلاحون الذين ليس لهم عمل سوى زراعة الأرض والعناية بها .

---

(١) محمد فريد بك ـ الدولة العلية ـ ص١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) د / السيد الدقن ـ دراسات في تاريخ الدولة العثمانية ـ ص ٧٨ .

٣ ـ ما ذكره العديد من المؤرخين عن التخلف والجمود والفقر الذى أصاب العالم الإسلامى ، ويتحمل العثمانيون جزءاً من هذا العيب بينما الجزء الآخر منه يخص ظروف البلاد العربية فضلاً عن أن الدولة العثمانية لم تأخذ بأسباب التقدم التى أخذت بها الدولة الأوربية فتغلبت عليها .

٤ ـ اختلال نظام الانكشارية ، بعد السماح لهم بالزواج سنة ١٥٦٦ وركونهم إلى الاستقرار المدنى والراحة ، وفشل محاولات الإصلاح التى دعا إليها بعض السلاطين لتغلب هؤلاء الإنكشارية عليهم .

٥ ـ فساد الإدارة المركزية والمحلية ، وأعضائها ، وتفشى الرشوة ابتداء من أعلى سلطة فى الدولة إلى أدناها الأمر الذى ساعد على فشل أعمال عديدة من بينها تقلد الوظائف ، واحتكار الأعمال ، ولم يعد العمل والإخلاص فيه والحقوق هو العامل الفضل فى المصالح بل أصبحت الرشوة والمحسوبية والقرابة هى الأساس فى تسيير أمور الدولة .

٦ ـ الحركات الانفصالية والثورات التى قامت فى الولايات العثمانية المختلفة مثل : ثورة المورة فيها وعلى بك الكبير فى مصر ، وضاهر العمر فى الشام وحركات محمد على باشا فى مصر والشام ، والمماليك فى العراق وغيرها .

• • •

تم بحمد لله فى أبها ـ السعودية
الجمعة ٩ ربيع الأول سنة ١٤١٩ هـ .
٤ يوليو (تموز) ١٩٩٨م
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د . سعد الحلوانى .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

المصادر والمراجع

المصادر

أولاً : الوثائق :

أولاً : وثائق تركية وعربية غير منشورة :

أ - دار الوثائق القومية بالقاهرة .

تناولت العديد من وثائق الدفاتر والمحافظ الآتية : -

١ - دفتر ٣ بحربر

٢ - دفتر ٤ بحربر

٣ - دفتر ١٦ بحربر

٤ - دفتر ١٩ بحربر

٥ - دفتر ١٠ عابدين

٦ - دفتر ٤٠ عابدين

٧ - دفتر ١ معية تركى

٨ - دفتر ٥ معية تركى

٩ - دفتر ٧ معية تركى

١٠ - دفتر ١٠ معية تركى

١١ - دفتر ١٤ معية تركى

١٢ - دفتر ٦٧ معية تركى

١٣ - دفتر ١٥٦ مجلس ملكية - تقارير مجالس جدة

١٤ ـ دفتر ٥ يومية قيودات ورشة الجورنال بديوان المعاونة

١٥ ـ محفظة ١١ جهادية

١٦ ـ محفظة ٢٧٠ حجاز

١٧ ـ محفظة سايرة

١٨ ـ محفظة ٦٦ عابدين .

١٩ ـ محفظة ٢٣١ عابدين .

٢٠ ـ محفظة ٢٣٥ عابدين .

٢١ ـ محفظة ٢٦٦ عابدين .

٢٢ ـ محفظة ٢٦٩ عابدين .

٢٣ ـ محفظة ٩ / ١ ب مجلس الوزراء ـ السودان ـ الثورة المهدية .

ب ـ دارة الملك عبد العزيز بالرياض

٢٤ ـ وثائق ٢ / ٢ / ك ـ ١٢٢ .

٢٥ ـ وثائق ٢٧ / ١٣٤٤ .

ج ـ مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج .

٢٦ ـ الوثيقة رقم ١٠٠ تاريخ .

مجموعة وثائق الطهطاوى (صفر ١٢١٨ هـ/ مايو ١٨٠٣ م) .

ثانياً : الوثائق الأمريكية :

وثائق وزارة الخارجية الأمريكية

٢٧ ـ Documents of US Department of state

٢٨ ـ 890 F . 404 June 16 1992

٢٩ـ No . 163 890 F . 00/1 - November 6 1923

٣٠ـ 890 F . 00 / 2 Dec 5 1923

٣١ـ No. 662 890 F. 00 / 4 Aug. 10 1925

٣٢ـ No. 229 890 F. 00 / 4 Aug. 10 1925

٣٣ـ No. 690 890 F.00 / 7 Sept. 23 1925

٣٤ـ No. 1921 890 F. 77 / 4 Aug. 17 1926

٣٥ـ No. 1982 890 F. 77 / 5 Jul. 29 1926

٣٦ـ 890 F. 00 / 1 Nov. 26 1927

٣٧ـ No. G 24 / 1 890 F. 00 / 10 Feb. 13 1928

٣٨ـ No. 93 890 F. 24 / 2 Apr. 27 1928

٣٩ـ No. 616 890 F. 0443 / 1 Jul 23 1929

ثالثاً المخطوط :

٤٠ ـ مخطوطة حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج ـ ورقة ٨٥ ـ رقم ٨٢ تاريخ ـ مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج .

رابعاً : الوثائق العربية المنشورة :

٤١ ـ الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين ـ المجموعة الأولى (١٩١٥ ـ ١٩٤٦) جامعة الدول العربية ـ إدارة فلسطين ـ الشعبة السياسية ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م

٤٢ ـ وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـ بيروت ١٩٦٨ .

خامساً الوثائق الأجنبية المنشورة

أ ــ وثائق أسبانية

٤٣ ــ Documents indits sur L'histoire de Loccupation E.spagnol en Afique. 1506 - 1584 .

ب ــ وثائق إنجليزية

٤٤ ــ Government of palastine statisical Abstract of palastine 1941 .

سادساً : المصادر والمراجع العربية والأجنبية المترجمة الأخرى :

● **فوزى**

٤٥ ـ إبراهيم فوزى (باشا) ـ السودان بين يدى غوردن وكتشنر ـ القاهرة ـ ١٣١٩ هـ .

● **حقى**

٤٦ ـ إحسان حقى ـ تونس العربية ـ بيروت ـ (د . ت)

● **الضياف**

٤٧ ـ أحمد بن أبى الضياف ـ إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ـ تونس ١٩٦٤ م .

● **أمين**

٤٨ ـ أحمد أمين ـ زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م .

● **الأنصارى**

٤٩ ـ أحمد الأنصارى ـ المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ـ مكتبة الفخرانى ـ (د . ت) .

• **المدنى**

٥٠ ـ أحمد توفيق المدنى ـ هـذه هى الجـزائر ـ مكتبة النهضـة المصـرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م .

• **ابن زنبل**

٥١ ـ أحمد الرمال (بن زنبل) آخرة المماليك ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ م .

• **دحلان**

٥٢ ـ أحمد بن زينى دحلان ـ خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ ١٣٩٧ هـ .

• **مصطفى**

٥٣ ـ د / أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ الولايات المتحدة والمشرق العربى ـ الكويت ـ ١٩٧٨ م .

• **عسه**

٥٤ ـ أحمد عسه ـ معجزة فوق الرمال ـ بيروت (لبنان) ـ ط ١ ـ ١٩٦٥ م .

• **ياغى**

٥٥ ـ د / إسماعيل أحمد ياغى ـ الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ـ دار المريخ ـ القاهرة ـ (د . ت) .

• **جارشلى**

٥٦ ـ إسماعيل حقى أوزون جارشلى ـ أمراء مكة فى العهد العثمانى ـ ترجمة د / خليل مراد ـ ١٤٠٦ هـ .

• بلنت

٥٧ ـ ألفريد بلنت ـ التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر ـ القاهرة ـ (د . ت) .

• سامى

٥٨ ـ أمين سامى ـ تقويم النيل ـ م ١ ج ٣ ـ دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٣٥٥ هـ .

• سعيد

٥٩ ـ أمين سعيد ـ تاريخ مصر السياسى (من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ م إلى انهيار الملكية ١٩٥٢ م) ـ مصر ـ ١٩٥٩ م .

• يحيى

٦٠ ـ د / جلال يحيى ـ العالم العربى الحديث ـ القاهرة ـ ١٩٩٧ م .

٦١ ـ د / جلال يحيى ـ المغرب الكبير ـ النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨١ م .

• أنطونيوس

٦٢ ـ جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب ـ بيروت ـ ١٩٦٢ م .

• بن غنام

٦٣ ـ حسين بن غنام ـ تاريخ نجد ـ تحقيق د / ناصر الدين الأسد ـ القاهرة ـ ١٣٨١ هـ .

• الجاسر

٦٤ ـ حمد الجاسر ـ مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ـ دار اليمامة ـ الرياض ـ ١٩٦٦ م .

• ابن حوقل

٦٥ ـ ابن حوقل ـ صورة الأرض ـ مكتبة الحياة ـ بيروت ـ (د . ت)

• لاندو

٦٦ ـ روم لاندو ـ تاريخ المغرب فى القرن العشرين ـ ترجمة / نقولا زيادة ـ بيروت ١٩٦٣ م .

• المحاسنى

٦٧ ـ زكى المحاسنى ـ النهضة العربية الحديثة (الأردن) ـ القاهرة ـ (د . ت) .

• قدروه

٦٨ ـ د / زاهية قدروه ـ تاريخ العرب الحديث ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٩٨٥ م .

• الحلوانى

٦٩ ـ د / سعيد بدير الحلوانى ـ الاتصالات الأوربية الحبشية وأثرها على العالم العربى ـ ندوة التوسع الأوربى الأول ـ اتحاد المؤرخين العرب ـ ١٩٩٥ م .

٧٠ ـ د / سعد بدير الحلوانى ـ تجارة الحجار (١٨١٢ ـ ١٨٤٠ م) ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ م .

٧١ ـ د / سعد بدير الحلوانى ـ الحكم المصرى فى سواكن وملحقاتها (١٨٦٥ ـ ١٨٨٥ م) ـ رسالة ماجستير ـ كلية اللغة العربية ج الأزهر ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ .

٧٢ ـ د / سعد بدير الحلوانى ـ العلاقات بين مصر والحجاز ونجد فى القرن ١٩ ـ ط ٢ ـ القاهرة ١٩٩٥ م .

٧٣ ـ د / سعد بدير الحلوانى ـ اليهود فى الحروب الصليبية وموقف صلاح الدين منهم ـ ١٩٩٦ .

● **حراز**

٧٤ـ د/ السيد رجب حراز ـ أفريقيا الشرقية والاستعمار الأوربى ـ النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ م .

● **الدقن**

٧٥ـ د/ السيد محمد الدقن ـ دراسات فى تاريخ الدولة العثمانية ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ م .

٧٦ـ د/ السيد محمد الدقن ـ كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ ـ ط ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م .

● **نوفل**

٧٧ـ د/ سيد نوفل ـ الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ م .

● **بسيونى**

٧٨ـ صلاح بسيونى ـ مصر وأزمة السويس ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٠ م .

● **الشامى**

٧٩ـ صلاح الدين الشامى ـ الموانى السودانية ـ مصر ـ ١٩٦١ م .

● **العقاد**

٨٠ـ د/ صلاح العقاد ـ التيارات السياسية فى الخليج من بداية العصور الحديثة حتى أزمة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١ م .

٨١ـ د/ صلاح العقاد ـ المشرق العربى المعاصر ـ الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ م .

٨٢ـ د صلاح العقاد ـ المغرب العربى ـ الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ م .

● المختار

٨٣ ـ صلاح الدين المختار ـ تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها ـ (د . ت) .

● الجمل

٨٤ ـ د / شوقى عطا الله الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ م .

٨٥ ـ د / شوقى عطا الله الجمل ـ المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث (لبيبا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب) ـ الأنجلو المصرية ـ ط ١ ـ القاهرة ١٩٧٧ م .

● الزاوى

٨٦ ـ الظاهر أحمد ـ جهاد الأبطال فى طرابلس الغرب ـ ١٩٧٠ م .

● إسماعيل

٨٧ ـ د / عبد الجواد صابر إسماعيل ـ دور مصر فى الحرب العثمانية اليونانية (١٨٢١ ـ ١٨٢٣) ط ١ ـ القاهرة ـ ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

● البطريق

٨٨ ـ د / عبد الحميد البطريق وآخر ـ التاريخ الأوربى الحديث ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٩٧ م .

● السلطان

٨٩ ـ عبد الحميد الثانى (السلطان) ـ مذكرات السلطان عبد الحميد ـ ترجمة / محمد حرب عبد الحميد ـ دار الأنصار ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ م .

• الجبرتى

٩٠ ـ عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ـ مطبعة الأنوار المحمدية ـ القاهرة .

• الرافعى

٩١ ـ عبد الرحمن الرافعى (بك) ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ـ دار المعارف ـ ط ٥ ـ ١٩٨١ م .

٩٢ ـ عبد الرحمن الرافعى (بك) ـ عصر محمد على ـ النهضة المصرية ـ ط ٣ ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م .

٩٣ ـ عبد الرحمن الرافعى (بك) ـ مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ـ مصر ـ ط ١ ـ ١٩٤٢ .

• الجيلانى

٩٤ ـ عبد الرحمن بن محمد الجيلانى ـ تاريخ الجزائر العام ـ بيروت ١٩٦٥ م .

• عبد الرحيم

٩٥ ـ د / عبد الرحيم عبد الرحمن ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر ـ دار الكتاب الجامعى ـ ط ٤ ، ط ٥ ـ القاهرة ١٩٨٦ ، ١٩٩٠ م .

٩٦ ـ د / عبد الرحيم عبد الرحمن ـ الدولة السعودية الأولى ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ ط ٢ ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ م .

• الشناوى

٩٧ ـ د / عبد العزيز محمد الشناوى ـ أوربا فى مطلع العصور الحديثة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ م .

٩٨ ـ د / عبد العزيز محمد الشناوى ـ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ـ الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ ج ٢ ، ١٩٨٣ ج ٣ .

● نوار

٩٩ ـ د / عبد العزيز نوار ـ تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ـ دار الكتاب العربى ـ القاهرة ـ ١٣٨٨ هـ .

١٠٠ ـ د / عبد العزيز نوار ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر (العراق) ـ منشورات جامعة الدولة العربية ـ

● التل

١٠١ ـ عبد الله التل ـ كارثة فلسطين ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م .

● ابن بشر

١٠٢ ـ عثمان بن بشر ـ عدوان المجد فى تاريخ نجد .

● عمر

١٠٣ ـ د / عمر عبد العزيز عمر ـ تاريخ المشرق العربى (١٥١٦ ـ ١٩٢٢) ـ دار المعرفة الجامعية الإسكندية ـ ١٩٩٣ م .

● خاط

١٠٤ ـ د / فؤاد المرسى خاطر ـ مصر والنشاط السوفيتى فى البحر المتوسط ١٩٥٦ ـ ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ـ مكتبة نهضة الشرق ـ ج القاهرة ـ ١٩٩٦ م .

● كرومر

١٠٥ ـ اللورد كرومر ـ بريطانيا فى السودان ـ ترجمة / عبد العزيز أحمد عرابى ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ـ ط ١ ـ القاهرة ـ ١٩٦١ م .

● الشونة

١٠٦ ـ كاتب الشونة ـ مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية ـ تحقيق / الشاطر بصيلى ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة .

• لوريمه

١٠٧ ـ لوريمو ج ـ ج ـ دليل الخليج ـ القسم التاريخى ـ ترجمة / مكتب أمير قطر ـ (د . ت) .

• خورى

١٠٨ ـ مجيد خورى ـ لبيبا الحديثة ـ ترجمة / نقولا زيادة ـ بيروت ـ ١٩٦٠ م .

• ابن إياس

١٠٩ ـ محمد بن أحمد ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ـ ط بولاق ١ ـ القاهرة ـ ١٣١١ هـ .

• أنيس

١١٠ ـ د / محمد أنيس ـ الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ـ ١٩١٤ م) الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ م .

• شريف

١١١ ـ محمد بديع شريف ـ النهضة العربية الحديثة (العراق) ـ منشورات جامعة الدولة العربية .

• التونسى

١١٢ ـ محمد بيرم التونسى ـ صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ـ القاهرة ـ ١٨٩٠ م .

• الغامدى

١١٣ ـ محمد جمعان محمد داد الغامدى ـ مدينة جدة فى عهد الملك عبد العزيز ١٩٢٥ ـ ١٩٥٣ ـ رسالة ماجستير ـ كلية اللغة العربية ـ ج الأزهر ـ القاهرة ـ ١٩٩١ م .

١١٤ ـ محمد جمعان محمد داد الغامدى ـ ولاية الجيش فى العصر العثمانى ١٨٠٥ ـ ١٩٠٣ ـ رسالة دكتوراه ـ كلية اللغة العربية ج الأزهر بالقاهرة ـ ١٩٩٥ م .

● **الأشهب**

١١٥ ـ محمد الطيب بن إدريس ـ السنوسى الكبير ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م .

● **سعودى**

١١٦ ـ د / محمد عبد الغنى سعودى ـ الوطن العربى ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ .

● **الجزائرى**

١١٧ ـ محمد بن عبد القادر ـ تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ـ بيروت ١٩٦٤ م .

١١٨ ـ محمد عبد القادر ـ تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر ، وأخبار الجزائر ـ الإسكندرية ـ ١٩٠٣ م .

● **شكرى**

١١٩ ـ د / محمد فؤاد شكرى ـ السنوسية دين ودولة ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ م .

● **فريد**

١٢٠ ـ محمد فريد (بك) الدولة العلية العثمانية ـ مكتبة الآداب ـ ط ٢ ـ مصر ـ ١٨٩٦ م .

● **عبد الله**

١٢١ ـ محمد مرسى عبد الله ـ إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣ ـ ١٨١٨ ـ المكتب المصرى الحديث ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ م .

● ناجى

١٢٢ ـ محمد ناجى وآخر ـ طرابلس الغرب ـ ترجمة / أكمل الدين محمد إحسان ـ مكتبة الفكر ـ ليبيا ـ ١٩٧٣ م .

● منسى

١٢٣ ـ د / محمود صالح منسى ـ تاريخ الشرق العربى الحديث ـ دار الوزان ـ القاهرة ـ ١٩٩٠ م .

١٢٤ ـ د / محمد صالح منسى ـ الشرق العربى المعاصر ـ القسم الأول ـ الهلال الخصيب ـ القاهرة ـ ١٩٩٥ م .

● الشنيطى

١٢٥ ـ محمود الشنيطى ـ قضية ليبيا ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م .

● خطاب

١٢٦ ـ محمود شيت خطاب ـ المغرب العربى ـ دار الفكر ـ ط ٢ ـ بيروت ـ ١٩٧٣ .

● درويش

١٢٧ ـ د / مديحة أحمد درويش ـ تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين ـ دار الشروق ـ ١٩٨٠ م .

● خالد

١٢٨ ـ مصطفى خالد وآخر ـ التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ـ ط ٤ ـ بيروت ـ ١٩٧٠ م .

● رمضان

١٢٩ ـ مصطفى محمد رمضان ـ تاريخ الحركة الوطنية وجذور النضال المصرى ـ مصر ـ ١٩٨٥ م .

١٣٠ ـ مصطفى محمد رمضان ـ وثائق مخصصات الحرمين الشريفين فى مصر إبان العصر العثمانى وأهميتها فى تاريخ الجزيرة ـ ندوة تاريخ الجزيرة ـ الرياض ـ ١٣٩٧ هـ .

● الدباغ

١٣١ ـ مصطفى مراد الدباغ ـ الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام ـ بيروت ـ ١٩٦٣ م .

● شقير

١٣٢ ـ نعوم شقير ـ تاريخ السودان ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٨١ م .

● قساطلى

١٣٣ ـ نعمان بن عبده بن يوسف الدمشقى ـ حصر اللثام عن نكبات الشام ـ القاهرة ـ ١٨٩٥ م .

● زيادة

١٣٤ ـ نقولا زيادة ـ أبعاد التاريخ اللبنانى الحديث ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ بيروت ـ القاهرة ـ ١٩٧١ ، ١٩٧٢ م .

١٣٥ ـ نقولا زيادة ـ ليبيا فى العصور الحديثة ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة (د . ت) .

● السمالى

١٣٦ـ نور الدين عبد الحميد ـ تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ـ القاهرة ـ ١٣٥٠ م

● إيفانوف

١٣٧ ـ نيقولاى إيفانوف ـ الفتح العثمانى للأقطار العربية (١٥١٦ ـ ١٥٧٤) ـ ترجمة / يوسف عطا الله ـ ١٩٨٨ م .

• دوديل

١٣٨ ـ هنرى دوديل ـ محمد على مؤسس مصر الحديثة ـ ترجمة / أحمد عبد الخالق وآخر ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة .

١٣٩ ـ هيلموت مايشر ـ مصر وعالم البحر المتوسط فى الحرب العالمية الثانية ـ ترجمة / د . رؤوف عباس ـ ندوة مصر وعالم البحر المتوسط ـ مكتبة نهضة الشرق ـ ج القاهرة ـ ١٩٩٦ م .

١٤٠ ـ هيلين آن ريفلين ـ الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ـ ترجمة : د/ أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخر ـ دار المعارف ـ القاهرة .

سابعاً : المصادر والمراجع الأجنبية :

١٤١ ـ Aqil Hyder Hassan Abidi : Jordon Apolitical study 1948 - 1957 india' 1965 .

١٤٢ ـ Bodger G. p. History of the imams and syyids of oman by saleh fin Razilc from 661 to 1856, London, 1871 .

١٤٣ ـ Christopher Herold : Bonaprate in Egypt , London 1962 .

١٤٤ ـ Coupland R : East Africa and its invaders from the Earlist times to the Deeth seyyid said in 1850, oxford , 1938 .

١٤٥ ـ Crawford : the fung kingdom of sennar Gloucester, 1951 .

١٤٦ ـ David Gordon : the passing of french Algeric ,

London , 1966 .

١٤٧ـ Dwight L. Ling : Tunisia from pratectorate to Republic indiana , 1967 .

١٤٨ـ Earl of Cromer - Modern Egypt , London , 1908 .

١٤٩ـ Hill Richard, Egypt in the Sudan 1820 - 1881 , London 1959 .

١٥٠ـ Hollis christopher : Italy in Africa, London, 1941 .

١٥١ـ Hurewitz , J, C : Diplomacy in the near and middle east Londin , 1962 .

١٥٢ـ Julien charles Ander : Histoire Del' Agerie Contemporaine , Paris , 1964 .

١٥٣ـ Muhammad Ali Hilcmat : Essai sur L. Histoire des Relations irano, ottamanes de 1722 a 1747 , Paris , 1937 .

١٥٤ـ Phillfy , saudi Arabia , London - 1955 .

١٥٥ـ Pritchard , Evans : the sanusi of cyrenaice oxford , 1948 .

١٥٦ـ R. Boyly winder : Saudia Arabia in the Ninteenth Cetury, New york , 1965 .

١٥٧ـ Robert L. Tignor : Modernization and British colonial Rule in Egypt 1882 - 1914 , Princeton , 1966

١٥٨ـ Rugh William A - Riyadh History and Guide 1969 .

١٥٩ـ Safwat M: Tunis and the Great Powers , 1943 .

١٦٠ـ Stephen hemsley longrigg : syria and lebonon under franch mandate oxford 1955 .

١٦١ـ Tayler Allon : Predube to israel , london . 1967 .

١٦٢ـ Traeller G : The Birth of saudi Arabia , London , 1958 .

١٦٣ـ Waddington : Journal of visit to same parts of Ethiopia , London , 1822 .

١٦٤ـ Yale william : The near east , London , 1958 .

ثامناً : الدوريات

١٦٥ ـ أخبار اليوم المصرية عدد ٥ / ١٠ / ١٩٥٧ مذكرات مفتى فلسطين .

١٦٦ ـ أخبار اليوم المصرية عدد ١٢ / ١٠ / ١٩٥٧ مذكرات مفتى فلسطين .

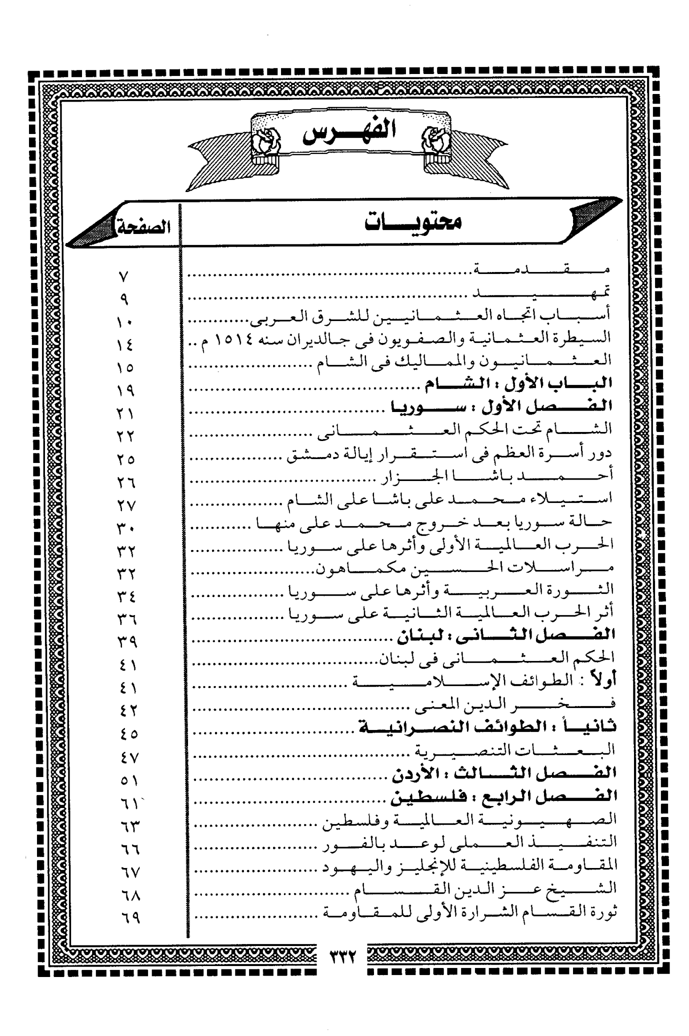
١٦٧ ـ الأهرام المصرية ـ العدد ٣٢٢٦٤ السبت ١٢ إبرايل ١٩٧٥ م .

١٦٨ ـ الأهرام المصرية السنة ١٢٢ ـ العدد ٤٠٦٨٩ ـ ٢ مايو سنة ١٩٩٨ م .

١٦٩ ـ مجلة السياسة الدولية ـ عدد مايو ـ ١٩٧٠ م .

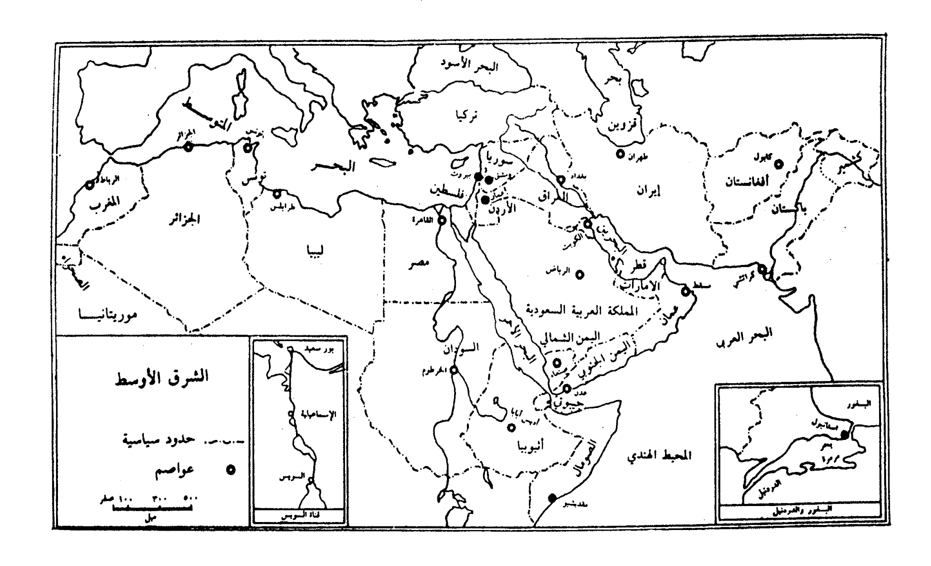
١٧٠ ـ مجلة السياسة الدولية ـ عدد يونيو ـ ١٩٧٠ م .

١٧١ ـ الوقائع المصرية ـ العدد ٨٢٦٠ ـ ١٣ رمضان ١٢٩٦ هـ / ٣١ أغسطس ١٨٧٩ م .



الفهرس

محتويات	الصفحة



الشرق الأوسط
حدود سياسية
عواصم
البحر الأسود
تركيا
إيران
العراق
سوريا
الأردن
فلسطين
مصر
ليبيا
الجزائر
المغرب
موريتانيا
السودان
أثيوبيا
الصومال
المملكة العربية السعودية
اليمن الشمالي
اليمن الجنوبي
قطر
الإمارات
عمان
أفغانستان
باكستان
البحر العربي
المحيط الهندي
البحر
قناة السويس

كتب وبحوث للمؤلف

١ ـ العلاقات بين مصر والحجاز ونجد .

٢ ـ تجارة الحجاز .

٣ ـ تعمير مكة المكرمة .

٤ ـ تعمير المدينة المنورة .

٥ ـ الاتصالات الأوربية الحبشة وأثرها على العالم العربى .

٦ ـ اليهود فى الحروب الصليبية وموقف صلاح الدين منهم .

٧ ـ عبد الله النديم وعلاقته بمفكرى عصره .

٨ ـ هوفمان وكتاباته الإسلامية .

تحت الطبع

١ ـ تأريخ التاريخ مدخل إلى علم التاريخ .